مـــارك تويـــن

ترجمات مختارة

من قصصه

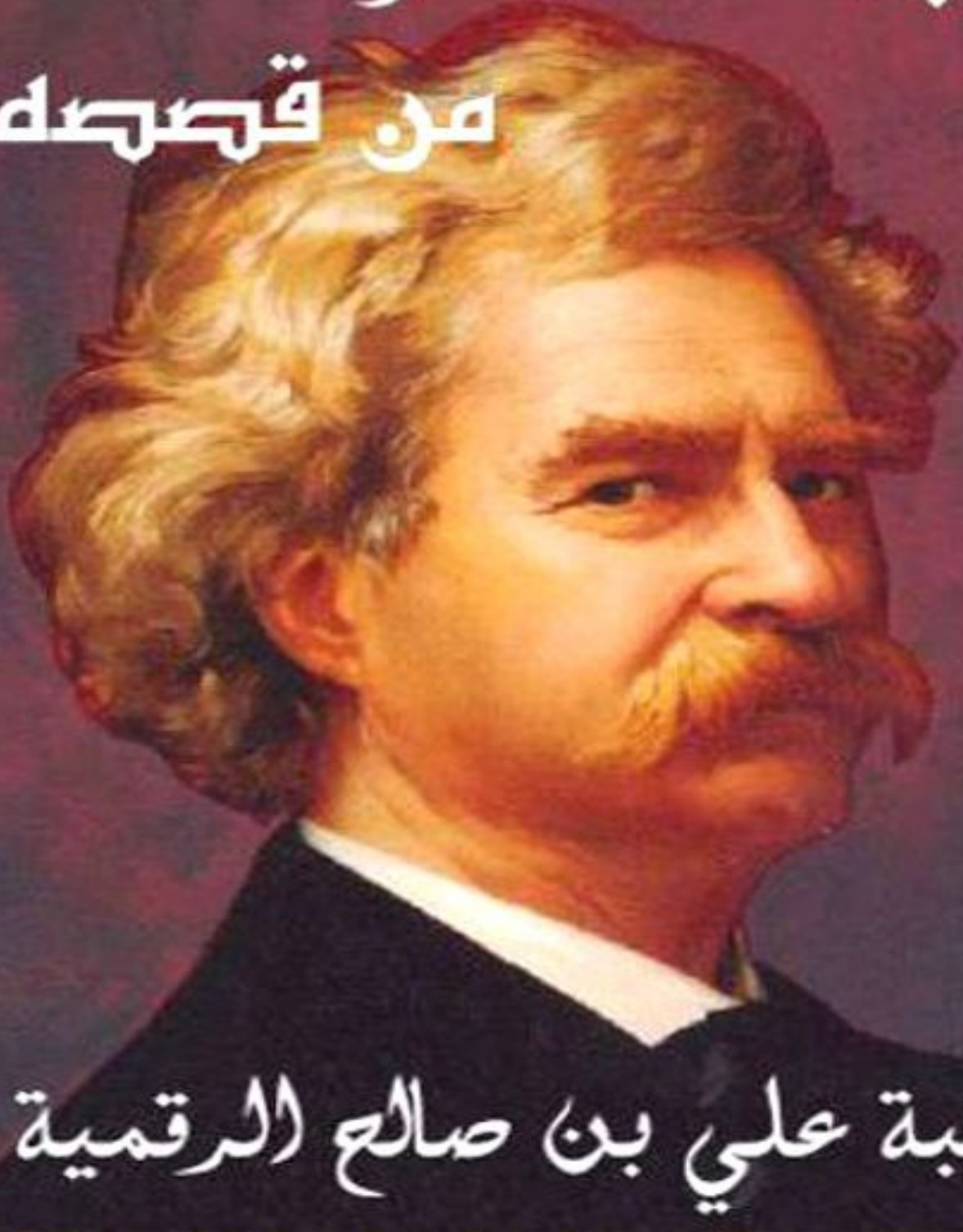

مكتبة علي بن صالح الرقمية

مارك توين

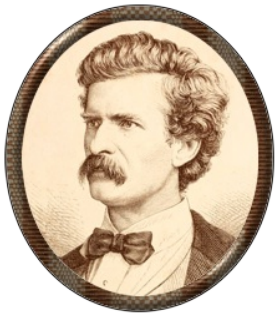

ترجمات مختارة
من قصص مارك توين

مجموعة قصصية

ترجمة أمل عمر الرفاعي

1910 - 1860

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

المقدّمة

أعزائي القراء

يسرني أن أضع بمتناولكم ترجمة لمختارات من القصص القصيرة للكاتب الأمريكي مارك توين.

كان اختياري لهذه القصص انطلاقاً مما لمسته في أسلوبه الأدبي الرفيع، من سلاسة في التعبير، ومن دقّة في تصوير وفي سبر أعماق الطبيعة الإنسانية بما فيها من خير وشرّ.
كان مارك توين، بما يتمتع به من خيال روائي متميّز، قد تمكّن من أن ينقل مخيلة القراء إلى العالم الذي تدور حوله أحداث تلك الروايات، وإلى جعلهم ينغمسون فيها ويتعايشون مع أحداثها.

الكاتب مارك توين، كما ستطلعون من سيرته الذاتية، من مشاهير الكتّاب الأميركيين في عصره، ويُعتبر من الكتّاب الشموليين لما في إنتاجه الأدبي من التنوّع بحيث اشتمل على: الروايات، المسرحيات، المقالات المتنوّعة في النقد الأدبي والاجتماعي والسياسي، وعلى القصص القصيرة ومنها أيضاً بعض قصص الأطفال.

كما كان بذات الوقت ناقداً لاذعاً تمكن، بكل جرأة، من إلقاء الضوء على الكثير من سلبيات الواقع السياسي والاجتماعي في تلك الحقبة من القرن التاسع عشر، وهذا ما جعله يتعرّض للكثير من المشكلات، وما جعله أيضاً ينشر بعض مؤلفاته باسم مستعار.

وسوف يسرني أن أضع بمتناولكم، في مجلد ثانٍ سوف يتم نشره لاحقاً , ترجمة لمختارات أخرى من مؤلفاته ومن مؤلفات كبار الكتاب المعاصرين له ممن حصلوا على جائزة نوبل في الآداب

أتمنى لكم قراءة ممتعة.

أمل عمر بسيم الرفاعي

نعم الحياة الخمس

1

في صبيحة أحد أيام هذه الفانية كانت إحدى الجنيّات الطيبات قد أتت إلى شاب يافع وهي تحمل بيدها سلّة وقالت له:

– لدي في هذه السلّة بعض العطايا، فلتأخذ إحداها وتترك الأخريات. لكن عليك أن تكون على حذر، وأن تختار بحكمة. نعم !...عليك بالفعل أن تختار بحكمة لأن واحدة منها فقط ذات قيمة حقيقية.

كانت العطايا الخمس كالتالي :
الشهرة، الحب، الثروة، المتعة، والموت.

قال الشاب بحماس:
– لا حاجة للتفكير مليّاً. واختار المتعة.

انطلق ذلك الشاب في هذا العالم الكبير، وغرق في جميع الملذات التي يمكن أن يستمتع بها من هم في سن الشباب. إلا أن جميع تلك الملذات كانت قصيرة الأجل، مُخيّبة للآمال، تافهة وغير مُجدِية، وكانت كل منها تتركه وهي تسخر منه... إلى أن قال في النهاية:
– أضعت كل تلك السنوات من حياتي دون جدوى., ولو كان بإمكاني فقط أن أختار من جديد، فسوف أختار بحكمة.

2

حينئذ ظهرت الجنيّة من جديد وقالت له :

– لاتزال لدي أربع من العطايا. بإمكانك أن تختار مرّة أخرى، ولكن تذكّر بأن الوقت يمرّ بسرعة، وبأن واحدة منها فقط ذات قيمة حقيقية.

فكّر الرجل ملياً، واختار الحب، دون أن يكون قد التفت إلى الدموع التي كانت قد إغرورقت بها عينا تلك الجنيّة.

بعد مرور سنوات... سنوات عديدة... كان ذلك الرجل جالساً أمام نعش وفي منزل فارغ يُطارح أفكاره ويُحدث نفسه ويقول:

– ها قد رحلوا جميعاً، الواحد تلو الآخر وتركوني وحيداً... وهاهي آخرهم ومن كانت أغلاهم لدي مُسجاة أمامي الآن . حلّت بي النوائب الواحدة تلو الأخرى. ودفعت ثمن كل ساعة من تلك السعادة التي باعها لي ذلك التاجر الغادر الحب، بآلاف الساعات من الأحزان، وأنا الآن ألعنه من أعماق قلبي.

3

– بإمكانك الاختيار مرّة أخرى!.. كان ذلك صوت الجنيّة.

– لابد أن السنوات علّمتك الحكمة. من المؤكد أن الأمر كذلك. بقيت لدي هنا ثلاث من العطايا، واحدة منها فقط ذات قيمة حقيقية، تذكّر ذلك! عليك الآن أن تختار بحرص.

فكّر الرجل مليّاً ثم اختار الشهرة، وذهبت الجنيّة في طريقها وهي تتنهد.

مرّت السنوات، وعادت الجنيّة من جديد. وقفت خلف ذلك الرجل الذي جلس وحيداً في زوال النهار يندب ويُفكّر. كانت الجنيّة على علم بما يدور في ذهنه:

– ملأت شهرتي قد ملأت .، كان الجميع يُشيدون بي.، وكان مديحي يدور على كل لسان– كان ذلك مُحبباً إلي بالطبع، إلا أنه لم يَدم سوى لفترة قصيرة، فترة قصيرة جداً...

آه!.. كم كانت تلك الفترة قصيرة! فقد تلا ذلك الغيرة، ثم الكراهية، ثم الافتراء، ثم الازدراء، ثم الاضطهاد الذي كان بداية النهاية. إلى أن جاءت أخيراً تلك الشفقة التي كانت التشييع الأخير لما كنت فيه من شهرة.

آه!.. يا لمرارة ويا لبؤس الشهرة ! لعن الله الكَدر حين صفوتها، والازدراء والشفقة حين زوالها.

4

سمع الرجل حينئذ صوت الجنيّة تقول:

– فلتختر مرّة أخرى، لا تزال لدي اثنتان من العطايا. لا تيأس. كانت إحداها فقط منذ البداية ذات قيمة ثمينة، وهي لاتزال موجودة.

قال الرجل:

الثروة !.. نعم، الثروة هي القوّة!.. كم كنت أعمى البصيرة!.. سوف تستحق الحياة أخيراً أن أعيشها. سوف أنفق، سوف أبدد المال، سوف أبهر العيون. سوف أجعل أولائك الذين سخروا مني يزحفون أمامي في الوحل، وسوف أُشبع قلبي المُتعطش برؤيتهم ينظرون إلي بغيرة وحسد. سوف

أحصل على جميع وسائل الترف، على جميع المباهج، على كل ما يفتن النفس، وعلى جميع الملذات الجسدية التي يهفو إليها قلب المرء. سوف أشتري، وأشتري، وأشتري كل شيء التقدير، الاحترام، الإجلال، والتبجيل. سوف أحصل على كل ما تُتيحه لي سوق الحياة، وعلى كل ما يُزين هذا العالم من أشياء ثمينة... كنت قد أضعت الكثير من الوقت لأنني اخترت الشيء الخطأ، لكن لندع ذلك جانباً، كنت حينذاك جاهلاً، لذا اخترت ما كان يبدو لي بأنه الاختيار الأفضل.

مرّت سنوات ثلاث أخرى بسرعة البرق. وجاء اليوم الذي جلس فيه ذلك الرجل العجوز في حجرة حقيرة على السطح وهو يرتجف. كان شاحب الوجه، تُحيط بعينيه الهالات، يرتدي الملابس الرثّة، وكان يُتمتم وهو يقضم كِسرة يابسة من الخبز:

– لعن الله جميع النعم الدنيوية، فهي ليست سوى أكاذيب، أكاذيب ذات مظهر خادع، وليست سوى أشياء زائفة يُخدع بها البشر. هذه ليست من النعم، وإنما هي أشياء فانية. ليست المتعة، والحب، والشهرة، والثروة سوى أسماء وهمية للحقائق الدائمة التي هي: الألم، الحزن، العار، والفقر. كانت تلك الجنيّة على حقّ، فلم يكن لديها سوى شيء واحد له قيمة حقيقية. شيء واحد لا يُقدّر بثمن. كم أجد الآن جميع الأمور الأخرى رخيصة وحقيرة بالمقارنة مع تلك الحقيقة الوحيدة الجديرة بالإكبار، تلك النعمة الثمينة، الجميلة، الطيّبة التي تجعل كل ما يعانيه المرء من الآلام التي تنهك الجسم، ومن الخزي والحزن اللذين يأكلان الذهن والقلب، تنغمس جميعها في نوم هادئ دون أحلام و دون معاناة. امنحيه لي فقد تعبت، وبذلك سوف أستريح.

5

عادت الجنيّة مرّة أخرى، لكنها لم تكن تحمل معها سوى أربع من تلك العطايا. لكن ما يريده

كان الموت. قالت الجنيّة :

– منحته لطفل صغير. كان ذلك الطفل جاهلاً إلا أنه وثق بي، و طلب مني أن أختار له، لكنك لم تطلب مني أن اختار لك.

قال الرجل العجوز:

–آه.. يا لتعاستي فما الذي تبقى لي هنا؟

أجابت الجنيّة:

– ما تبقى لك هو الشيء الوحيد الذي حتى أنك لا تستحقه: إنه الازدراء الذي لا يرحم سن الشيخوخة.

قصة حب من القرون الوسطى

1- الكشف عن السرّ

كان الوقت ليلاً، وكان السكون مخيماً على القلعة القديمة التي تقع في مقاطعة غلوجنستاين، وقد قارب العام 1222 من نهايته. هناك وميض لضوء واحد يبدو من بعيد في أعلى برج من أبراج القلعة حيث تنعقد جلسة مُداولة سريّة.

جلس اللورد العجوز غلوجنستاين بوجه متجهّم على كرسي الحكم وهو في حالة من التأمّل وقال بلهجة رقيقة:

- ابنتي!

أجابه شاب يرتدي ملابس الفرسان من رأسه إلى قدميه، تبدو عليه علامات النبالة:

- تكلم والدي.

- ابنتي، حان الوقت لكي أكشف لك عن اللغز الذي كان يُحيّرك طوال فترة صباك، فلتعلمي بأنه كان قد نجم عن الظروف التي سوف أكشف لك عنها الآن.

شقيقي أولريخ الآن هو الدوق العظيم لمقاطعة براندربورغ. كان والدنا وهو على فراش الموت قد أوصى، بأن تنتقل جميع أملاك العائلة إلى عائلتي، إن لم يرزق شقيقي أوليرخ بولد ذكر، شريطة أن أكون أنا قد رزقت بابن . وكان والدي علاوة على ذلك قد أوصى بما يلي:

إن لم يُرزق كلانا سوى بالإناث، فإن ابنة أولريخ هي التي سترث جميع الأملاك، ولكن هذا

لو أثبتت بأنها تمتع بسمعة لاغبار عليها. أما في حال العكس, فإن ابنتي هي التي ترث جميع الأملاك لو أثبتت حفاظها على سمعة طاهرة الذيل.

وهكذا كنا أنا وزوجتي العجوز نبتهل إلى الله بحرارة أن يمنّ علينا بولد ذكر. لكن دعواتنا لم تُستجب وكنا قد رزقنا بك. كنت في غاية اليأس , كنت أرى تلك الجائزة العظيمة تكاد تفلت من قبضة يدي، وأشعر بأن ذلك الحلم الرائع سوف يتلاشى!.. كنت قد بنيت على ذلك الكثير من الآمال لأن خمس سنوات كانت قد مرّت على زواج أولريخ دون أن يكون قد رزق بوريث من أي من الجنسين.

إلا أنني قلت لنفسي عليك أن تصمد، فلم تخسر بعد كل شيء., ثم خطرت ببالي خطة الإنقاذ التالية :

كنتِ قد ولدت في منتصف الليل., ولم يكن هناك من اطلع على جنسك سوى القابلة والممرضة وستٍ من الخادمات. وكان ما فعلته هو أنني قمت بشنقهم جميعاً وقبل أن تمضي ساعة واحدة على ولادتك.

وفي صباح اليوم التالي كانت البارونية بكاملها تطير فرحاً لما تم الإعلان عنه من أنه قد ولد في غلوجنستاين طفل ذكر- ووريث لمقاطعة براندربورغ العظيمة. حسناً، وكان بذلك قد تمّ حفظ السر.

ثم تولّت شقيقة والدتك رعايتك بنفسها طوال فترة طفولتك، ومنذ ذلك الحين لم نعد نخشى شيئاً.

ولكن، وعندما كنت قد بلغت سن العاشرة، كان شقيقي أولريخ قد رُزق بابنة. حزننا جداً لذلك، لكننا كنا نأمل دوماً التوصّل إلى نتائج جيّدة من وجود احتمال لإصابة تلك الطفلة بالحصبة، أو بأحد الأمراض الأخرى من أعداء الطفولة. إلا أننا كنا دوماً نصاب بخيبة الأمل، فقد عاشت تلك الفتاة وترعرعت، لعنة الله عليها !..

لكن لاأهمية لذلك، فقد نجونا. فلدينا ابنٌ. أليس ولدنا هو الدوق في المستقبل؟ أليس كونراد

الحبيب هو الولد المطلوب؟ فها قد أصبحت يا ابنتي امرأة في سن الثمانية والعشرين، ولم يخطئ أحد حتى الآن بإطلاق أي اسم آخر عليك.

وقد حان الوقت لكي نتخطّى العصر الذي حكم خلاله شقيقي أولريخ. أصبح الآن ضعيفاً، وتسببت مشاغل الدولة بإصابته بالقرحة. لذا أبدى رغبته في أن تذهبي إليه لكي تتولي مهام الدوقية بالنيابة، رغم أنها لن تكون سوى بالاسم. خدمك الآن على استعداد وسوف تتوجّه رحلتك هذه الليلة.

والآن أصغي إلي جيداً، وتذكري كل كلمة أقولها:

هناك قانون قديم قِدم ألمانيا ينصّ على أنه في حال جلوس أية امرأة، ولو للحظة واحدة ، على الكرسي الرفيع للدوقية, قبل أن يتم تتويجها بحضور الشعب، فسوف تموت!.. لذا انتبهي لكل ما سأقوله: عليك أن تتظاهري بالتواضع، وأن تقومي بإصدار أحكامك من موقع كرسي المرتبة الأولى الذي يقع في أسفل العرش. وعليك أن تلتزمي بذلك إلى أن يتم تتويجك حيث ستكونين بذلك قد أصبحت بأمان. ليس من المتوقع على الإطلاق أن يتم اكتشاف جنسك، ومع ذلك، فإن من الحكمة أن يتم تنفيذ جميع الأمور بحرص شديد، وبالشكل الذي يجب أن تتم فيه في هذه الحياة الدنيوية الغادرة.

– أووه!.. أبي! ألهذا السبب كانت حياتي بأكملها عبارة عن كذبة؟ أكان كل ذلك لكي أقوم بخداع ابنة عمي البريئة بما لديها من حقوق مشروعة؟ أبي، أرجوك أن تُجنبي ذلك، فلتُجنب ابنتك كل ذلك.

– ماذا أيتها الوقِحة ! أهذه هي مكافأتي لقاء ما أجهدت ذهني به لكي أؤمن لك تلك الثروة الكبيرة؟ أقسم برحمة والدي بأن شعورك هذا بالميل للبكاء يخصّك وحدك، لكنه لا يتوافق أبداً مع مزاجي، اذهبي على الفور إلى الدوق، ولتحرصي على أن تتوافق تصرفاتك مع ما أهدف إليه.

لنكتفي الآن بهذا القدر من الحديث الذي دار بينهما. ويكفينا أن نعلم بأن جميع التوسلات، والاستعطاف، والدموع التي زرفتها تلك الفتاة ذات الطبيعة الطيبة لم تكن قد أجدت نفعاً. فلا كل ذلك ولا أي شيء آخر كان بإمكانه أن يُحرّك القلب المُتحجّر لذلك اللورد العجوز غلوجنستاين.

وهكذا كانت تلك الفتاة في آخر الأمر قد شاهدت, بقلب أثقلته الدموع، أبواب القصر تُقفل خلفها، ووجدت نفسها تنطلق في الظلام، تحيط بها ثُلّة من الفرسان ومن المَقتطعين (الشخص الذي يمنحه البارون إقطاعة لقاء خدمة السلاح) من حملة السلاح، ومن مجموعة من الخدم البواسل.

جلس البارون العجوز بعد سفر ابنته صامتاً لعدة دقائق, ثم التفت إلى زوجته الحزينة وقال:

– سيدتي، يبدو أن الأمور سوف تسير جيداً بالنسبة إلينا. فها قد مرّت ثلاثة أشهر كاملة على إيفادي لذلك الكونت الوسيم الداهية ديتزين بتلك المهمة الشيطانية إلى ابنة أخي كونستانس. قد لا ننجو في حال إخفاقه في مهمته، لكنه لو نجح بتلك المهمة، فلن تكون هناك قوّة على الأرض بإمكانها أن تمنع ابنتنا من أن تصبح الدوقة، على الرغم من أن الحظ العاثر سيجعل ابنتنا لتكون أبداً دوقاً.

قالت البارونة:

– قلبي يملأه التوجّس من الأسوأ، إلا أن الأمور قد تسير جيداً مع ذلك.
– اصمتي أيتها المرأة! دَعي البوم تنعق، ولنذهب إلى الفراش ونحلُم بدوقية برادنربورغ وعظمتها.

2– مهرجان، ابتهاج، ودموع

بعد مرور ستة أيام على الأحداث التي تم ذكرها، كانت عاصمة دوقية (إمارة يحكمها دوق) براندربورغ بكاملها تتألق بموكب عسكري، وتَصدح بهتافات الولاء لكونراد الوريث الشاب للعرش وبالابتهاج بقدومه.

وكان قلب الدوق العجوز قد امتلآ بالسعادة، ذلك لأن شخصية كونراد التي تتسم بالوسامة واللباقة كانت قد جعلته يحظى على الفور بمحبته., كما كانت أروقة القصر الفخمة قد ازدحمت بالنبلاء الذين استقبلوا كونراد على نحو رائع. وبذلك بَدت جميع الأمور مواتية وبهيجة مما جعل مخاوف وأحزان كونراد تتلاشى ويحلّ محلها الشعور بالرضى والاطمئنان.

ولكن, وفي ذات الوقت، كان في إحدى الغرف النائية من القصر، مسرحٌ لأحداث مختلفة تماماً. كانت الليدي كونستانس الابنة الوحيدة للدوق تقف بمفردها بجانب النافذة بعينين حمراوين، منتفختين مليئتين بالدموع.

أجهشت كونستانس من جديد بالبكاء وقالت بصوت مرتفع:

" رحل ذلك النذل ديتزين، فرّ من الدوقية ! لم يكن بإمكاني في البداية أن أصدّق ذلك. لكن هذه هي الحقيقة مع الأسف! لقد أحببته، تجرأت على حبه، رغم أنني كنت أعلم جيّداً بأن والدي الدوق لن يسمح أبداً بزواجي منه، كنت قد أحببته، نعم. كنت قد أحببته لكنني الآن أكرهه ومن كل قلبي. آه!.. ما الذي سيحلّ بي؟ ضعت، ضعت، ضعت ! وسوف أفقد عقلي".

3- تفاقم المؤامرة

مرّت بضع شهور كان جميع الرجال خلالها يُشيدون بكونراد الشاب، ويمتدحون حكمته في قراراته، والرأفة التي تتسم بها العقوبات التي يفرضها، والتواضع الذي يبدو عليه وهو يُصدر أحكامه وهو في مكتبه الواسع. وبذلك كان الدوق العجوز قد وضع بسرعة جميع الأمور بين يدي كونراد، وتنحّى جانباً لكي يستمع بكل فخر إلى وريثه الذي كان يُصدر قرارات العرش من مقعد الصف الأول.

قد يبدو من الجليّ للمرء بأن الشخص الذي حَظِي بذلك القدر الكبير من محبة ومن مديح وتقدير جميع الرجال، وهو ما كان كونراد قد حَظي به، لايمكن إلا أن يكون سعيداً. لكن الغريب

في الأمر أن كونراد لم يكن كذلك. ذلك لأنه لاحظ بكثير من الفزع بأن الأميرة كونستانس كانت قد بدأت تحبه !.. كانت محبة الآخرين لكونراد من حسن طالعه، لكن ذلك الحب كان قد جعله يشعر بالرعب وباقتراب الخطر. فقد تبيّن له،علاوة على ذلك، بأن الدوق كان في غاية السعادة عندما اكتشف ذلك وبأنه كان يأمل بزواجهما.

كما كان ذلك الحزن العميق الذي يبدو على وجه الأميرة قد بدأ يتلاشى نوعاً ما., ومع مطلع كل يوم جديد, كان الأمل والحيوية يشعان من عينيها، كما أن بعض الابتسامات التائهة كانت قد بدأت تبدو من حين لآخر على وجهها الذي طالما كانت تبدو عليه المعاناة.

لذا شعر كونراد بالخوف، ولعن نفسه بمرارة لأنه عندما كان غريباً وجديداً على ذلك المكان، كان قد خضع لنداء غريزته بأن بحث عن رفقة من هي من ذات جنسه., وذلك لأنه كان يائساً وفي حاجة إلى التعاطف الذي قد تشعر به أية امرأة وحيدة.

ثم بدأ كونراد يتفادى ابنة عمه تلك، لكن ذلك كان من شأنه أن جعل الأمور تسوء أكثر مما كانت عليه. وكان من الطبيعي أنه كلما كان يتفاداها، كلما كانت تضع نفسها في طريقه. كان كونراد في البداية يستغرب فقط تصرفها ذاك، إلا أن الأمر أصبح في النهاية يتسبب له بالفزع. كانت تلك الفتاة تطارده. كانت تطارده، وتُصادفه في كل مكان وفي جميع الأوقات، أثناء النهار وأثناء الليل. كما كان القلق كان يبدو عليها بشكل يدعو للاستغراب. لذا حدّث كونراد نفسه: "من المؤكد أن لغزاً ما يكمن وراء ذلك القلق".

ولم يكن ذلك ليستمر إلى الأبد., فقد بدأ الجميع يتحدثون عن الموضوع، وبدأت علامات الحيرة تظهر على الدوق، كما كان كونراد المسكين قد أصبح أشبه بشبح لشدة الكرب والفزع.

وذات يوم، وبينما كان كونراد خارجاً من إحدى الغرف الخلفية المُلحقة بصالة عرض اللوحات، اعترضت كونستانس طريقه وأمسكت بيديه الاثنتين بيديها وقالت:

– لِم تتجنبني؟ ما الذي فعلته؟ ما الذي قلته لكي أفقد تقديرك لي ؟ من المؤكد أنني قد كنت قد حظيت بذلك سابقاً. كونراد ! أرجوك، لا تستخف بي، أرجوك، ألن تشفق على قلب يتألم؟ ليس

بإمكاني, لا, ليس بإمكاني أن أمتنع أكثر من ذلك عن التفوّه بهذه العبارات، أخشى أن يقتلني صمتي: أحبك كونراد ! بإمكانك الآن أن تزدريني لو كان عليك ذلك، ولكن لابد من أن أعبّر لك عن محبتي .

وقف كونراد صامتاً. ثم كانت كونستانس بعد فترة تردّد، ربما لعدم فهمها لسبب صمته، قد أحاطته بذراعيها ثم لمعت في عينيها فرحة كبرى وقالت:

– ها أنت ترقّ لحالي ! نعم, أنت ترقّ لحالي! وسوف يكون بإمكانك أن تحبني ! سوف تحبني! أرجوك، قل بأنك سوف تفعل ذلك كونراد، كونراد الذي أعبده !

تنهد كونراد بصوت مرتفع، وعَلت مُحياه صِفرة مرضية، وبدأ يرتجف أشبه بشجرة حور رجّراج. ثم قام بإبعاد الفتاة عنه، وصاح وهو في غاية اليأس :
– أنت لا تعرفين معنى ما تطلبينه مني! هذا من المستحيل الآن وإلى الأبد. ثم هرب كالمجرم، وترك تلك الأميرة في حالة من الدهشة والذهول.

وبعد بضع دقائق كانت كونستانس تبكي وتنتحب في غرفتها، بينما كان كونراد أيضاً يبكي وينتحب في غرفته. كان كل منهما في غاية اليأس، وكان كل منهما يرى أمام عينه بداية الدمار.

وبعد فترة قصيرة كانت كونستانس قد نهضت على قدميها ببطء وقالت:
– عندما أستعيد الآن في ذهني كيف كان يستخف بحبي في اللحظة التي كنت فيها أعتقد بأن حبي يُذيب قلبه القاسي، أشعر بأنني أكرهه. أنا الآن أكرهه! رفضني بازدراء! هذا ما فعله بي ذلك الرجل ــ ل رفضني وأبعدني عنه كما قد يبتعد المرء عن كلب".

4- البوح بالسر الرهيب

مرّ الوقت وعاد الحزن يبدو من جديد على ملامح ابنة ذلك الدوق الطيّب, ولم يعد أحد يراها هي وكونراد معاً. كان الدوق قد حزن كثيراً لذلك., بينما كان الشحوب الذي كان يبدو على وجه كونراد قد بدأ يزول مع الوقت ، كما عادت الحيوية السابقة تبدو في عينيه., وكان من الجليّ أنه يُدير شؤون الحكم بحكمة تدلّ على النضج وعلى العزيمة.

في ذلك الوقت، كانت بعض الهمسات الغريبة قد بدأت تُسمع من القصر., ثم بدأت تلك الهمسات تعلو أكثر فأكثر وتنتشر وتدور في كل أنحاء الدوقية. وهذا ما كانت تدور حوله الهمسات :

" وضعت الليدي كونستانس طفلاً ".

وعندما سمع اللورد غلوجنستاين بالأمر أرجح خوذته حول رأسه ثلاث مرات وصاح:
" فلتعش طويلاً دوق كونراد. ها قد أصبح عرشه مضموناً منذ اليوم وإلى المستقبل ! لقد أنجز ديتزين مهمته بشكل جيّد، وسوف يُكافأ هذا النذل على ذلك.

ثم قام بإعلان تلك الأنباء على أوسع نطاق، وخلال ثماني وأربعين ساعة لم يبق في البارونية من لم يرقص ولم يغنِ فرحاً... احتفالات صاخبة وأضواء احتفاءً بذلك الحدث العظيم., وكان الجميع يشعرون بالفخر وبالسعادة لأجل غلوجنستاين العجوز.

5- الكارثة المروّعة

انعقدت جلسة المحاكمة. اجتمع جميع لوردات وبارونات براندربورغ في قاعة الحكم في قصر الدوقية، بحيث لم يعد هناك أي مكان شاغر حتى لإتاحة المجال لوقوف أو لجلوس أي مشاهد. جلس كونراد في الصف الأول، وقد اكتسى بالفراء والأرجوان كما جلس في الجهة الأخرى أعلى القضاة مرتبة في العالم. كان اللورد العجوز قد أعطى أوامره بأن تتم محاكمة ابنته دون أية محاباة، ثم أوى إلى فراشه بقلب مُنكسر، فقد أصبحت أيامه معدودة., وكان كونراد البائس

قبل المحاكمة قد توسل إليه حتى لقاء حياته أن يعفيه من بؤس محاكمة ابنة عمه على جريمتها، لكن ذلك لم يُجده نفعاً.

وفي الوقت الذي كان القلب الأكثر حزناً في ذلك الحشد هو قلب كونراد، كان القلب الأكثر بهجة هو قلب والده الذي كان قد جاء دون علم ابنته وجلس بين حشود النبلاء وهو يشعر بالانتصار والنشوة لتضاعف ثروته.

وبعد أن قام القضاة بتقديم البيانات اللازمة , وبعد أن تمت تلاوة الإجراءات التحضيرية الأخرى، قال رئيس القضاة :

- تقدمي إلى الأمام أيتها السجينة.

نهضت الأميرة البائسة، ووقفت أمام ذلك الحِشد الكبير دون نقاب. واستمر رئيس القضاة بالقول:

- أيتها السيدة النبيلة، ثبت للقضاة المبجلين في هذه المحكمة بأن جلالتك قد وضعت طفلاً دون زواج. واستناداً إلى القوانين المطبقة لدينا من زمن بعيد، فإن عقوبتك سوف تكون الموت، ما عدا في احتمال واحد، وهو بأن يقوم المُبجل الدوق بالوكالة، اللورد الطيّب كونراد، بإبلاغك بقرار حكمه العادل، لذا انتبهي لما سيقوله.

تقدّم كونراد إلى الأمام. كان قلب المرأة تحت ردائه يفيض بالشفقة على تلك السجينة المحكوم عليها بالموت وقد امتلأت عيناه بالدموع., فتح شفتيه لكي يتكلم، لكن رئيس المحكمة قال له بسرعة:

لا، ليس هنا، أيها المُبجل، ليس هنا، فليس من القانوني أن تنطق بالحكم في أي مكان في الدوقية ماعدا على عرش الدوقية. ارتعش قلب كونراد المسكين، كما هزّت رعدة شديدة ما كان فيه والده العجوز من تماسك وصلابة. ذلك لأن كونراد لم يكن قد تُوّج بعد فهل سيجرؤ على انتهاك حرمة العرش؟ تردّد كونراد وشحب وجهه لشدة الخوف، ولكن كان عليه أن يقوم بالمطلوب منه. كانت جميع العيون المتسائلة قد ارتكزت عليه., ومن المؤكد أن تلك النظرات سوف تتحول إلى شكوك في حال تردده أكثر من ذلك. وبذلك صعد إلى العرش وتقدم ثانية نحو الصولجان وقال:

– أيتها السجينة سوف أقوم بالواجب الجليل الذي فوّضني به اللورد أولريخ المبجل دوق براندربورغ. انتبهي لما سأقوله:

– بموجب القانون المطبّق في هذه المقاطعة منذ القدم، عليك أن تُعلني عن شريكك في هذا الإثم، وأن تسلميه إلى الجلاد، وإلا فسوف يُحكم عليك حتماً بالموت. انتهزي هذه الفرصة وأنقذي نفسك ما دام بإمكانك ذلك، ولتقومي بتسمية والد طفلك.

سَرت همهمة مَهيبة في المحكمة، ثم ساد صمت عميق بحيث أصبح بإمكان المرء أن يسمع دقات قلبه.

حينئذ استدارت الأميرة ببطء نحو كونراد، وأشارت إليه بإصبعها وقالت وهي تنظر إليه بعينين تشعّان بالحقد:

– ها هو الرجل!..

حينئذ، ضربت قلب كونراد رعشة شبيهة برعشة الموت، لأنه كان على يقين بعجزه وبعدم وجود أي أمل لنجاته. فليست هناك قوة على الأرض بإمكانها أن تُنقذه. فلكي يتمكن من نقض تلك التهمة لابد وأن يكشف عن أنه امرأة. لكن الموت هو بذات الوقت عقوبة جلوس امرأة على العرش قُبل أن يتم تتويجها !

أغمي على كونراد على الفور، وكان والده بذات الوقت قد سقط على الأرض وأغمي عليه.

أما بقية هذه الرواية المثيرة الزاخرة بالأحداث الخطيرة، فلن يتم العثور عليها لا في هذا المؤلف، ولا في أيٍ من المؤلفات الأخرى، لا في الوقت الحاضر ولا في المستقبل.
والحقيقة أنني كنت بذلك قد وضعت بطل أو بالأحرى بطلة هذه الرواية في موقف حرج ودقيق، بحيث لم أعد أعلم كيف سيكون بإمكاني أن أخرجه أوأن أخرجها منه ثانية... لذا فسوف أنسحب من الموضوع، و سوف أترك لذلك الشخص أمر الخروج من هذا المأزق بأفضل الطرق

التي قد تتاح إليه، أو فليبق مكانه. كنت أعتقد بأنه سوف يكون من السهل علي أن أخرجه أو أن أخرجها من ذلك الإشكال، لكن الأمر يبدو مختلفا الآن.

تجربة غريبة

هذه هي القصة كما رواها لي اللواء (رتبة عسكرية) وكما بإمكاني أن أتذكّرها:

كنت في شتاء العام 1862– 1863 قائداً لحامية ترومبل في نيو لندن بولاية كونيتيكت. ربما لم يكن في حياتنا في مثل ذلك المكان الكثير من الإثارة بالنسبة لحياة في الجبهة الأمامية. إلا أن حياتنا كانت مع ذلك، وبطريقة ما، مثيرة بما فيه الكفاية. ولم يكن لذهن المرء هناك أن يتوقف بسبب عدم وجود ما يمكن أن يُحفّزه باستمرار. وكان ذلك لسبب واحد هو أن الجو العام في المنطقة الشمالية كان حافلاً في ذلك الوقت بشائعات مُبهمة ــ شائعات حول ما يقوم به الجواسيس الذين كان المتمردون ينشرونهم في كل مكان، والذين كانوا يستعدون لتفجير حصوننا في المنطقة الشمالية، ولإحراق الفنادق فيها، ولإرسال الملابس الملوثة إلى مدننا وكل ما يشابه ذلك من أمور أخرى...

كل ذلك كان من شأنه أن يقضّ مضاجعنا، وأن يُقوّض رتابة الحياة التي كانت فيها حاميتنا. هذا عدا أن حاميتنا كانت بالإضافة إلى ذلك، موقعاً للإمداد بالمتطوعين من المجندين الجُدد. وفي هذا ما يشير أيضاً إلى أنه لم يكن لدينا ما يكفي من وقت لكي نُضيعه في النوم والأحلام أوفي التسكّع، ولماذا؟ لأنه، وعلى الرغم من كل ما كنا فيه من يقظة، فإن خمسين بالمئة مما كنا نُجنّدهم يومياً كانوا يتسرّبون ويتخلّون عن الخدمة في ذات الليلة، لأن ما يتقاضونه من المنح الحكومية كان ضخماً جداً، بحيث بإمكان المجند أن يدفع للحارس ثلاثمائة أو أربعمائة دولار لكي يَدعه يهرب،

ومع ذلك، كان سيتبقى معه من تلك المنحة الحكومية ما يُشكل ثروة حقيقية بالنسبة لأي رجل فقير. وهكذا وكما قلت سابقاً , لم تكن حياتنا مُملة على الإطلاق.

حسناً، وبينما كنت ذات يوم بمفردي في مسكني أنجز بعض الأعمال الكتابية، دخل علي فتى في الرابعة أو الخامسة عشر، شاحب الوجه، مُمزق الثياب. انحنى أمامي بكِياسة وقال:

– أعتقد أنكم تستقبلون المجندين هنا ؟

– نعم.

– من فضلك، هل بإمكانك أن تقبلني كمتطوّع ؟

– بُنيّ، بحق الله ! أنت صغير جداً كما أنك قصير القامة جداً.

ظهرت على وجهه علامات خيبة الأمل، ثم تحولت تلك النظرة بسرعة إلى تعبير عن لقنوط. ثم استدار ببطء كما لو أنه على وشك المغادرة، لكنه, بعد فترة تردد ,وقف بمواجهتي من جديد وقال لي بلهجة كانت قد أصابتني في أعماق قلبي:

– ليس لدي بيت، ولا أي صديق في هذا العالم، فلو كان بإمكانك على الأقل أن تُطوّعني...

لم يكن ذلك الأمر وارداً بالطبع، وكنت قد أعلمته بذلك بقدر ما كان بإمكاني من دماثة، ثم طلبت منه أن يجلس بجانب الموقد لكي يشعر بالدفء وأضفت:

– سوف تحصل الآن على بعض الطعام، لابد أنك تشعر بالجوع.

لم يجبني، ولم يكن بحاجة لأن يُجيب وإنما كانت نظرة الامتنان التي بَدت في عينيه الواسعتين الصافيتين أكثر تعبيراً مما يمكن أن تُعبّر عنه أية كلمات . جلس بجانب المدفأة واستمريت في الكتابة.

كنت بين الفينة والفينة أختلس النظر إليه. لاحظت بأن ملابسه وحذائه كانت جميعها ملوثة وتالفة، لكنها على الرغم من ذلك، كانت من نوعية جيدة ومن قماش أنيق., وكان في ذلك ما يوحي بأمر ما... وبالإضافة إلى كل ما ذكرته، كان صوته أبضاً خافتاً وموسيقياً., وكان يمشي ويتصرف بنبالة، لكن حزن عميق كان يبدو في عينيه . لابد أن الفتى البائس كان في مأزق. وكنت نتيجة لذلك قد شعرت بالاهتمام بأمره.

إلا أنني كنت مع ذلك قد استغرقت في عملي إلى حدّ ما، مما جعلني أنسى كل ما يتعلق بذلك الفتى البائس. ولست أعلم كم دام ذلك. ولكن عندما رفعت نظري إليه أخيراً كان ظهر الفتى أمامي، بحيث لم يكن بإمكاني أن أرى من وجهه سوى خدّيه اللذين كانت الدموع تسيل عليهما بصمت.

قلت في نفسي: فليسامحني الله، نسيت أن ذلك الفأر يتضوّر من الجوع., وقمت بالتعويض عن سوء تصرفي بأن قلت له:

- تعال أيها الفتى، سوف تتناول عشاءك معي، فأنا بمفردي هذه الليلة .

وكان أن ألقى الفتى علي نظرة أخرى من تلك النظرات التي تعبّر عن الامتنان، ثم أشرق وجهه بالسعادة.

ثم كان الفتى أمام المائدة قد وقف ويديه خلف كرسيه إلى أن جلست ثم جلس بعد ذلك على كرسيه. تناولت شوكة الطعام والسكين و... حسناً, ما حدث هو أنني كنت قد توقفت بعد أن أمسكت بهما ذلك لأن الفتى كان قد أحنى رأسه بصمت وبنوع من الكياسة والهدوء. مما جعل آلاف الذكريات تتوارد إلى ذهني. ذكريات عن الوطن وعن الطفولة، وتنهدت وأنا أفكر إلى أي مدى كنت قد ابتعدت عن الدين وعن علاجه الشافي للقلوب الجريحة وعن مواساته وعن عزاءه وعن دعمه وعونه.

كما كنت قد لاحظت أثناء تناولنا وجبتنا بأن الفتى روبرت ويكلو ــ وهذا هو اسمه بالكامل ــ كان يُحسن التصرف على المائدة. وبكلمة واحدة كنت قد لاحظت بأنه ذلك الفتى من مِنبت طيّب- دون الاهتمام بباقي التفاصيل- وبذلك كنت قد تأثرت كثيراً ببساطته وبصدقه.

تحدثنا بشكل رئيسي عنه، ولم أجد أية صعوبة في الحصول منه على تاريخ حياته. وعندما تحدث عن أنه كان قد ولد وترعرع في لويزيانا, كنت قد أحببته دون تردد، ذلك لأنني كنت قد أمضيت بعض الوقت هناك، وكنت أعرف منطقة ساحل الميسيسيبي بالكامل وأحب تلك المنطقة، ولم يكن قد مرّ وقت طويل على ابتعادي عنها لكي يبدأ اهتمامي بها بالتضاؤل.

كانت الأسماء التي يُردّدها ذات وقع جيّد جداً علي ــ وقع جيدّ جداً مما جعلني أوجّه مجرى

الحديث بالاتجاه الذي كان يجعله يُعيد ذكرها: "باتون روج، بلاكمين، دونالدسونفيل، بون كاريه، ستوك لاندينج، كارلتون، مرفأ السفن البخارية، مرفأ بواخر نيو أورلينز، شارع تشيوبيتولاس، الاسبلاناد، شارع كود بويز، فندق سان شارل، ساحة تيفولي، طريق شلّ، بحيرة بونشارتران".

وما أسعدني بشكل خاص كان سماعي من جديد أسماء السفن البخارية القديمة الأخرى التي أعرفها. كل ذلك كان قد جعلني أشعر بالبهجة، فقد أعادت إلى ذهني تلك الأسماء شكل الأشياء التي كانت هناك، كما لو أنني كنت قد عدت من جديد إلى تلك الأمكنة. وباختصار، كانت قصة ويكلو كالتالي:

كان ويكلو عندما اندلعت الحرب يعيش مع والده وعمته المعوّقة في مبنى فخم تملكه العائلة منذ خمسين عاماً، وفي مكان قريب من باتون روج. وبما أن والده كان اتحادياً، فقد تعرّض لمختلف أنواع الاضطهاد إلا أنه كان مع ذلك قد تمسك بمبادئه., إلى أن قام رجال ملثمون ذات ليلة بإحراق شقتهم الفخمة تلك، وبذلك كان على جميع أفراد العائلة أن يهربوا حفاظاً على حياتهم.

أما بعد ذلك فقد تمت ملاحقتهم من مكان لآخر، مما أدى إلى تعرّضهم إلى كل ما يمكن أن يُعرف عن الفقر والجوع والأسى. ثم لقيت العمّة المعوّقة راحتها أخيراً بالموت، فقد قتلها ما كانت قد تعرَضت إليه من بؤس. كانت قد توفيت كالمتشردة في حقل مهجور وعلى أرض مكشوفة , المطر يتساقط عليها والرعد يقصف فوق رأسها. ولم يكن قد مرّ بعد وقت طويل على وفاتها إلى أن قامت مجموعة من المسلحين بإلقاء القبض على الوالد., كانوا قد قتلوا الضحية أمام عينيه في الوقت الذي كان فيه ذلك الفتى يتوسل ويتضرع إليهم ويرجوهم إطلاق سراحه...

وفي تلك النقطة بالذات من الحديث , كان قد لمع في عيني ضوء يُنذر بالشؤم وقال بأسلوب الشخص الذي يتحدث مع نفسه :

– لا يهم!.. فإن لم يكن بإمكاني أن أتطوّع في التجنيد، فسوف أجد طريقة، سوف أجد طريقة ما...

ثم أكمل الفتى روايته.

وبعد أن لفظ الوالد أنفاسه، تم إعلام الابن بأن عليه أن يُغادر المنطقة خلال أربع وعشرين ساعة وإلا فسوف يكون عليه أن يواجه الكثير من الأوقات الصعبة. وبذلك كان الفتى تلك الليلة قد تسلل إلى جانب النهر واختبأ بجانب أحد المباني, إلى أن توقفت هناك بعد فترة قصيرة سفينة "دونكانكينر".. وبذلك سبح الفتى إلى تلك السفينة التي كانت تُسحب إلى مرفأها الأخير واحتجب عن الأنظار. وعندما وصلت السفينة قبل طلوع الشمس إلى منطقة ستوك، تسلّل الفتى إلى الشاطئ ومشى على قدميه لمسافة ثلاثة أميال، وهي المسافة التي تقع بين تلك المنطقة وبين منزل عمه المقيم في نيو أورلينز.

وكانت متاعبه بذلك قد انتهت لفترة. إلا أن عمه كان أيضاً من الاتحاديين، لذا لم يمر وقت طويل إلى أن قرّر بأن من الأفضل بالنسبة إليه أن يغادر نيو أورلينز إلى منطقة الجنوب.

وبذلك تسلّل العم وبرفقته ويكلو الصغير إلى خارج البلدة ثم هربا على ظهر سفينة بخارية، وبذلك قد وصلا في الوقت المناسب إلى نيويورك وأقاما في فندق "آستور".

كان ويكلو بعد ذلك قد أمضى وقتاً ممتعاً لفترة من الزمن. كان يتجول في شارع "برودوي" ويتأمل المناظر الغريبة في منطقة الشمال. إلا أن التغيير في حياته كان قد طرأ على حياته من جديد، ولكن ليس للأفضل... ذلك لأن العم الذي كان في البداية في غاية السعادة، كان قد بدأ يصبح قلقاً مضطرباً ومزاجياً على الدوام، وكان إما أن يتحدث باستمرار عن نقص الموارد المالية أو عن عدم وجود أية وسيلة لديه للحصول على المزيد من المال، وعلى أن ما لديه من مال لا يكاد يكفي لشخص واحد فكيف سيكفي لاثنين؟...

وهكذا كان العم في صبيحة أحد الأيام قد تخلّف عن تناول وجبة الإفطار. وعندما سأل عنه الفتى في المكتب، أعلمه الموظف المسؤول بأن عمه كان ليلة الأمس قد سدد فاتورته وغادر الفندق إلى بوسطن – كما يُعتقد– لكنه ليس متأكداً من ذلك.

وبذلك كان الفتى قد أصبح وحيداً من جديد وبدون أي أصدقاء، ولم يكن يدري ما سيفعله... ثم وجد بأن من الأفضل أن يحاول تعقّب عمه واللحاق به. وبذلك ذهب إلى ميناء السفن. ولكن عندما تبيّن له بأن ما تبقى في جيبه من المال لن يكفيه للسفر إلى بوسطن، وبأنه قد يكفيه فقط للسفر إلى نيو لندن، كان قد توجّه إلى ذلك المرفأ وقرّر أن يعتمد على القدر الذي قد يهيئ له وسائل السفر لباقي الطريق. وبدأ بعد ذلك يهيم على وجهه في شوارع نيو لندن ولثلاثة أيام ولياليها.. كان

يأكل وينام هنا وهناك مما يحصل عليه من يدّ الإحسان . إلا أنه آخر الأمر، وبعد أن كان قد فقد كل ما لديه من شجاعة وأمل، قرر العدول عن الرحيل.

– فلو كان بإمكانه الآن أن يتطوّع في التجنيد فلن يكون من هو أكثر منه امتناناً. أما في حال عدم وجود إمكانية لتجنيده، فهل هناك إمكانية لأن ينضم إلى فرقة الطبالين ؟ سوف يعمل بكل طاقته لكي يُرضي، وسوف يكون في غاية الامتنان.

حسناً، تلك كانت قصة الفتى ويكلو كما رواها لي تماماً بعد أن حذف التفاصيل. قلت:

– بُني! أنت الآن بين الأصدقاء ولا داعِ لأن تقلق بعد الآن.

كم لمعت عيناه في تلك اللحظة !...

كنت بعد ذلك قد ناديت الرقيب جون رايبرون، الذي كان من منطقة هارفورد، وهو لايزال يعيش فيها وقلت له:

– رايبرون، عليك أن تؤوي هذا الفتى مع فرقة الموسيقيين. سوف أضمه إليها كطبّال، وأريدك أن ترعاه وأن تعمل على أن تتم معاملته بشكل جيّد.

حسناً،!.. وبذلك كانت العلاقة بين القائد في منصبه وبين ذلك الطبّال قد وصلت إلى نهايتها، ولكن كان قد بقي في قلبي ذلك الأثر القوي الذي تركه ذلك الصغير المسكين المحروم من الأصدقاء., وبذلك ظللت بعد ذلك في وضع المراقبة آملاً أن أراه مبتهجاً وأن أجده قد بدأ يُصبح مرحاً وسعيداً. لكن ذلك لم يحدث.

مرّت الأيام ولم يتغيّر فيه شيء. لم يرافق أحد، وإنما كان شارداً على الدوام، يُفكّر باستمرار وتبدو على وجهه علامات الحزن.

وذات يوم , طلب الرقيب رايبورن الإذن بالتحدث معي على انفراد حيث قال:

– سيدي، آمل ألا أزعجك، لكن الحقيقة أن الموسيقيين هم على ما يبدو في حالة من الإرهاق الشديد وإلى الحدّ الذي تطلّب أن يقوم أحدهم بالتحدث إليك.

– لماذا، ما هو الإشكال؟

– سيدي، الموضوع يخصّ الفتى ويكلو. استنفذ الموسيقيون طاقتهم معه، وإلى الحدّ الذي ليس بإمكانك أن تتصوره.

– حسناً، استمر، استمر، ما الذي يفعله؟

– يُصلي سيدي.

– يُصلي؟..

– نعم سيدي، لم يعد الموسيقيون يعيشون حياتهم في سلام بسبب صلوات ذلك الفتى. فأول شيء يقوم به في الصباح هو الصلاة. وما يقوم به مساءً هو الصلاة أيضاً. والليالي، حسناً سيدي, كل ما يقوم به أثناء الليل هو أن يستلقي أشبه بشخص أصابه المسّ !.. أما النوم، حسناً – فليباركك الله سيدي– لم يعد بإمكانهم أن يناموا، فقد أوصلهم ذلك الفتى إلى الحدّ كما يقولون. وببساطة عندما يبدأ الفتى بابتهالاته المُكربة فلن يكون بإمكان أحد أن يُوقفه. فهو يبدأ برئيس فرقة الطبالين ويُصلي لأجله. ثم يبدأ برئيس فرقة البوق ويُصلي لأجله، ثم ينتقل إلى الطبال ويُغرقه بالصلوات. وهكذا وإلى آخر لائحة أعضاء الفرقة فهو يستعرضهم جميعاً، ويولي ذلك كل الاهتمام إلى الدرجة التي تجعلك تشعر بأنه يعتقد بأنه لن يعيش سوى لفترة قصيرة في هذا العالم., وبأنه يؤمن بأنه لن يلقى السعادة في الجنان ما لم ترافقه فرقة نحاسية، وبأنه يرغب بأن يستبقيهم بجانبه لكي يعتمد عليهم في عزف الألحان الوطنية بالأسلوب الذي يتناسب مع المكان.

حسناً، سيدي، وحتى لوتم إمطاره بالجِزم فذلك لن يؤثر به، وحتى لو كان المكان مظلماً فهذا لن يؤثر عليه أيضاً. كما أنه علاوة على ذلك, لا يُصلي بالطريقة العادية، وإنما يركع وراء ذلك الطبل الكبير وبذلك لا فارق لو تم رميه بالجزم فهو لا يأبه لذلك، ويغني كما لو أنه يلقى التصفيق والاستحسان. يصيحون به : توقف!.. أعطنا فترة استراحة!.. أطلقوا عليه النار!.. اخرج من هنا!.. وكل ما يماثل ذلك. ولكن ماهي النتيجة؟ كل ذلك لا يزعجه، فهو لا يأبه بكل ذلك.

ثم قال لي رايبرون بعد برهة توقف.

– ويبدو أيضاً بأنه فتى طيّب ومخبول. فهو ينهض في الصباح ويحمل جميع الجزم، لكي يفرزها ويضع كل منها بجانب الشخص الذي تعود إليه., وقد تم رميه بالجزم إلى الحدّ الذي جعله يعرف لمن تعود كل جزمة في الفرقة وأصبح بإمكانه أن يُميّزها بعينين مغلقتين.

وقال بعد فترة توقف أخرى كنت قد احتملته أثناءها دون أية مقاطعة:

– لكن الأمر الأكثر صعوبة هو أنه عندما ينتهي من صلواته، وهذا ما لا يحدث، يبدأ بالعزف وبالغناء. حسناً، سيدي أنت تعرف صوته المُحبب عندما يتكلم! وأنت تعلم كيف بإمكانه بذلك أن

يُقنع حتى الكلب المُقيد بالسلاسل الحديدية بالنزول من على عتبة الباب لكي يلعق يده.

سيدي! لو وثقت بكلامي، لايوجد مثيل لغنائه! صوت الناي أكثر خشونة من غناء ذلك الفتى، لأن ذلك الصوت يتدفق في الظلام بعذوبة شديدة وبرقّة، وبصوت خفيض مما يجعلك تعتقد بأنك في الجنان.

– ولكن ما هو السيئ في ذلك؟

– ها هو الآن سيدي. أتسمعه يغني؟

كم أنا فقير بائس، وأعمى فقط...

– فلتسمعه يغني ولمرّة واحدة فقط وسوف ترى كيف ستذوب حزناً وكيف سوف تبدأ الدموع تسيل من عينيك ! لا يهم ما الذي يُغنّيه, لكن ذلك الغناء يصل مباشرة إلى القلب ويدخل إلى عمق المكان الذي تعيش فيه، ويجعلك تتذكره في كل وقت. ها أنت تسمعه الآن يغني من جديد .

طفل الخطيئة والحزن الذي يملأه الرعب
انتظر إلى الغد ولتخضع لهم اليوم
لا تحزن على ذلك الحب
الذي يأتي من الأعلى

وهو بغنائه يجعلك تشعر بأنك من أكثر الأشخاص شروراً وجحوداً وقسوة على هذه الأرض. وهو عندما ينشد أغانيه عن البيت وعن الأم وعن الطفولة وعن الأشياء التي ضاعت وعن الأصدقاء القدامى الذين ذهبوا وماتوا، سوف يجعلك ترى أمامك كل ما كنت قد أحببته، وكل ما أضعته طوال حياتك. هو بالفعل رائع وقدسي عندما تُصغي إليه، لكن هذا الغناء، يا إلهي، يا إلهي، سيدي، هذا الغناء يجعل قلب المرء ينفطر. حسناً، ويكون أول من ينفطر قلبهم بالذات تلك الجماعة التي كانت قد ضربته بالجزم بعنف. ذلك الفتى يُخرجهم من جلودهم، بحيث يندفعون نحوه فجأة لكي يحتضنونه ! نعم، هم يفعلون ذلك! يسيل لعابهم ويطلقون عليه العبارات المُحببة ويطلبون منه أن يسامحهم. ولو حاول المجندين حاول في ذلك الوقت المساس بشعرة واحدة من رأس ذلك الشبل فسوف ينقضّون على ذلك المجند أشبه بفيلق عسكري كامل.

ثم تلا ذلك فترة توقف أخرى.

وقلت له:

– أهذا كل شيء؟

– نعم، سيدي.

– حسناً، وما هي الشكوى؟ ما هو الأمر الذي يطلبون مني القيام به؟

– ما يطلبونه ؟ ؟، ليباركك الله سيدي، كل ما يرغبون منكم القيام به هو إيقافه عن الغناء.

– أية فكرة هذه؟ كنت قلت لي للتو بأن موسيقاه رائعة.

– هي هكذا تماماً، فهي قدسية أكثر مما ينبغي. لذا ليس بإمكان المرء أن يحتملها، هي تُهيّج النفس، وهي بالفعل تقلب المرء رأساً على عقب، تدمر مشاعره وتحوّلها إلى أسمال بالية وتجعله يشعر بأنه سيء وشرير وبأنه لا يصلح لأي مكان سوى للجحيم. فذلك الغناء يجعل الجسد في حالة من التوبة الأبدية، ويجعل المرء يشعر بأن ليس هناك طعم لأي شيء وبأن لا عزاء له في هذه الحياة. كما أن هناك أيضاً ذلك البكاء.أترى؟ ففي كل صباح يشعر كل منهم بالخجل من النظر إلى وجه الآخر.

– حسناً، هذه قضية غريبة وشكوى فريدة من نوعها. وبالتالي هم يريدون مني أن أوقفه بالفعل عن الغناء ؟.

– نعم، سيدي، هذا هو مطلبهم, وهو ليس بالكثير. هم لا يريدون المطالبة بالكثير. كل ما يرغبون به بصدق وبتصميم هو إسكات تلك الصلوات أو جعلها على الأقل ضمن الحدود، لكن الشيء الأساسي هو ذلك الغناء. لو كان بالإمكان أن يتم إيقافه على الأقل عن ذلك الغناء.,هم يعتقدون أن بإمكانهم احتمال الصلوات مهما كانت قاسية عليهم، على ألا تكون بذلك القدر من الاستسلام.

وكنت حينذاك قد أعلمت الرقيب بأنني سوف آخذ الموضوع بعين الاعتبار. وكنت في تلك الليلة قد تسللت إلى سكن فرقة الموسيقيين واستمعت إليه., ووجدت بذلك بأن الرقيب لم يكن قد بالغ في عرض الأمر علي. أصغيت إلى ذلك الصوت الذي كان يتضرع ويتوسل في الظلام، وسمعت لعنات الرجال المُنهكين، وصوت الجزم التي كانت تنهال عليه في الهواء، وتقع وتضرب بعنف حول ذلك الطبل الكبير. تأثرت بذلك لكنني شعرت بذات الوقت بنوع من التسلية.

كان ذلك الغناء يتوقف من فترة لأخرى بسكون مؤثر ثم يعلو من جديد. يالله, لم يكن هناك ما

هو أكثر وفتنة وحناناً وقدسيةً، ومما هو مؤثر بهذا الشكل., فلم أكن بعد قد مكثت سوى لفترة قصيرة جداً إلى أن بدأت أن أمرّ بتجربة تلك الانفعالات التي لا تتلاءم مع قائد حصن.

وبذلك كنت في اليوم التالي قد أصدرت الأوامر التي تم بموجبها إيقاف تلك الصلوات وذلك الغناء. ثم تلا ذلك ثلاثة أو أربعة أيام كانت مفعمة بالحماس وبالاهتياج الكبير الذي رافق مناسبة منح جوائز القفز، مما منعني من التفكير ولا حتى لمرة واحدة بذلك الفتى الطبّال. لكن الرقيب رايبورن جاء إلي من جديد ذات صباح وقال:

– سيدي، ذلك الفتى يتصرف بطريقة غريبة.
– كيف ذلك ؟
– حسناً، سيدي هو يكتب طوال الوقت.
– يكتب؟، ما الذي يكتبه؟ رسائل ؟
– لا أدري سيدي، لكنه كلما كان خارج الخدمة، يتسكع بمفرده وهو يبحث طوال الوقت بفضول حول الحصن. لم يعد هناك أي ثقب أو زاوية في الحصن لم يدخل إليها ذلك الفتى. كما أنه بين الفينة والأخرى كان يُخرج من جيبه قلماً وورقة ويدوّن فيها شيئاً.

تسبّب لي ما قاله رايبرون أكثر الشعور بغضاً. كنت أرغب بأن أسخر من كل ذلك، لكن الوقت لم يكن ملائماً لأن أسخر من أي أمر قد تحوم حوله أقل شبهة. كانت أمور كثيرة تجري كل ما حولنا في الشمال في ذلك الوقت، مما نبّهنا إلى أن علينا أن نكون على أهبة الاستعداد، وبأن علينا أن نشتبه على الدوام وفي كل الأمور. كما كنت قد تذكرت حينئذ حقيقة ما يوحي به أن يكون ذلك الفتى من الجنوب ــ ومن أقصى الجنوب، ومن لوازيانا بالذات ــ وبذلك لم تكن تلك الفكرة بحد ذاتها، وفي مثل تلك الظروف, من النوع المُطمئن.

وكانت الأوامر التي كان علي أن أعطيها إلى رايبرون في ذلك الوقت، قد تسببت لي بألم مفاجئ. وكنت قد شعرت كما لو أنني الأب الذي يتآمر مع شخص آخر لكي يُعرّض ولده إلى العار والأذى، وقلت لرايبرون بأن عليه أن يهدأ وأن يأخذ وقته، وبأن عليه أن يجلب إلي، كلما سيكون بإمكانه ذلك، بعض ما يكتبه ذلك الفتى، ولكن دون أن يجعله يلتفت إلى ذلك. وأوصيته بألا يفعل شيئاً قد يجعل الفتى يكتشف بأنه تحت المراقبة. كما كنت قد أعطيت أوامري بأن يُسمح للفتى بكل

ما كنت ما منحته له من حرية التصرف، على أن يتم تعقّبه عن بعد كلما خرج إلى المدينة. كان رايبرون قد قدم إلي خلال اليوميين التاليين عدة تقارير، ولكن دون أي نجاح.

كان الفتى لا يزال يكتب، لكنه كان كلما ظهر رايبرون بالقرب منه, يدسّ أوراقه في جيبه دون مبالاة. وبأنه كان قد ذهب مرتين إلى إصطبل قديم مهجور في المدينة، حيث مكث هناك لدقيقة أو دقيقتين ثم خرج منه ثانية.

لم يكن بإمكان المرء أن يستخف بالطبع بمثل تلك الأمور التي كان فيها ما قد يُنذر بالشر. وبذلك اضطررت لأن أعترف لنفسي بأنني بدأت أشعر بعدم الراحة. ذهبت إلى مسكني الخاص وأرسلت في طلب مساعدي الثاني وهو من الضباط الذين يتصفون بالذكاء والحكمة، كما أنه كان علاوة على ذلك ابن القائد العام جيمس واتسون ويب.

دهش مساعدي واضطرب لدى سماعه ما رويته له. وكنا بعد أن تحدثنا مُطولاً حول الموضوع، قد توصلنا إلى الاستنتاج بأن الأمر يستحق الاستقصاء عنه ولكن بسرّية. وقررت أن أقوم بذلك بنفسي. وبذلك ذهبت للاستقصاء عن الحقيقة . وكنت في الساعة الثانية صباحاً, وعلى الفور من وصولي إلى سكن الفرقة الموسيقية، قد زحفت على بطني بين النائمين إلى أن وصلت أخيراً إلى مكان سرير ذلك الفتى المتشرد، دون أن أزعج أحد., أخذت بملابسه وأغراضه الشخصية وزحفت عائداً من جديد.

وعندما وصلت إلى سكني الخاص وجدت ويب بانتظاري هناك متلهفاً لمعرفة النتيجة، وبدأنا على الفور بتفتيش تلك الملابس. كانت الملابس مُخيبة للآمال لأن كل ما وجدناه في جيوب ويكلو كان فقط عبارة عن أوراق بيضاء وقلم ولاشيء آخر، فيما عدا مِطواة صغيرة وبعض الأشياء الغريبة من الأشياء التافهة التي يقتنيها الصبية ويُثمنوها كثيراً. ثم عدنا إلى تفحّص عدّة الأشياء الشخصية العائدة إليه ونحن نأمل العثور على شيء، لكننا لم نجد شيئاً سوى ما جعلنا نندم!.. فلم يكن ذلك سوى إنجيل صغير بداخله ورقة كُتبت عليها عبارة " أيها الغريب، كن طيباً مع ولدي لأجل والدته".

نظرت إلى ويب الذي كان قد أرخى نظره لكي لاينظر إلي، وكنت قد أسدلت عينيّ أيضاً ولم

يتكلم أي منا. أعدت الكتاب إلى مكانه بوقار، ونهض ويب وغادر المكان دون أن يُبدي أية ملاحظة... ثم كنت بعد فترة قد تمالكت شجاعتي لكي أستطيع القيام بمهمتي البغيضة بأن أعيد المسروقات إلى مكانها وأنا أزحف على بطني كالسابق. كان ذلك يبدو بمثل غرابة المهمة التي كنت فيها، وبذلك كنت بصدق قد شعرت بالسرور عندما انتهت تلك المهمة البغيضة وتمت.

وفي ظهيرة اليوم التالي تقريباً جاء إلي رايبرون كعادته لكي يعرض علي تقريره، لكنني قاطعته على الفور وقلت:

– لندع هذه التفاهات، فنحن نصنع بُعبُعاً من ذلك الفتى الصغير المسكين الذي ليس فيه ما يؤذي أكثر مما في كتاب للأغاني.

نظر إلي الرقيب باستغراب، وقال:

– حسناً سيدي، أنت تعلم بأنها كانت أوامرك، وقد حصلت الآن على بعض ما كتبه.

– وما الذي يفيدك في ذلك ؟ وكيف حصلت عليها ؟

قال رايبرون:

– اختلست النظر إليه من ثقب المفتاح ورأيته يكتب، وعندما قدّرت بأنه انتهى من ذلك، أصدرت صوتاً يشبه السعال الخفيف., رأيته حينئذ يقفز ويُلقي الورقة في النار وهو ينظر حوله لكي يتأكد من عدم مجيء أحد ثم جلس في مكانه باسترخاء ودون مبالاة... بعد ذلك دخلت إلى الغرفة، وأمضيت بعض الوقت في ممازحته، ثم أرسلته لأداء مهمة. لم أكن قد رأيته قط بذلك الارتباك، لكنه كان مع ذلك قد استأنف حديثه معي.

كانت الورقة التي كتبها قد سقطت فوق قطعة من الحطب، إلا أنها لم تكن قد احترقت لأن النار كانت باردة.، وذلك تمكنت من إخراجها.، ها هي.، لم تكد تحترق كما ترى.

نظرت إلى الورقة وقرأت فيها جملة أو اثنتين، ثم صرفت ذلك الرقيب وطلبت منه إرسال ويب إلي. وإليك المحتوى الكامل لتلك الورقة:

حصن ترومبيل 18

أيها الكولونيل (العقيد في الجيش) كنت قد أخطأت بما أوردته لكم حول القطر الداخلي لقذيفة المدافع الثلاث. فهي 18 باوناً. أما باقي الأسلحة فهي كما بيّنتها لكم. تبقى الحامية كما بيّنت سابقاً

ما عدا بالنسبة لجنود المشاة الذين كان من المفترض أن يتم إرسالهم إلى الخدمة في الجبهة الأمامية، إلا أنهم سيبقون حاليا في الخدمة هنا. ليس بإمكاني أن أبّين المدة الزمنية لذلك. ليس الآن، لكن هذا سيتم قريباً. نحن نعتقد بأن من الأفضل تأجيل جميع الأمور التي أخذتموها بعين الاعتبار إلى..."

كانت الرسالة قد توقفت هنا، لأن رايبرون كان قد سعل وقاطع الكاتب.

كان كل ما كنت أشعر به من عاطفة لذلك الفتى، وكل ذلك التقدير والتعاطف الذي كنت فيه مع ظرفه البائس, قد ذبل خلال لحظة واحدة أمام ما تم اكتشافه من تلك النذالة التي كانت تتم بدم بارد.

ولكن لا تهتم بذلك، كانت أمامنا قضية ــ قضية عاجلة تتطلب منا سرعة التصرف– قضيّة مصيرية تتطلب الاهتمام بدقّة بكافة التفاصيل. تباحثنا أنا وويب، قلّبنا الموضوع مرات ومرات وتفحصّناه من جميع الجهات ثم قال لي ويب:

– من المؤسف أن يكون رايبرون تأجيله ولكنابد أن هناك أمر ما سوف يتم تأجيله ولكن إلى متى؟ وما هو ذلك الشيء؟ كان بإمكان ذلك الحيوان الزاحف الورع أن يُشير إليه.

قلت:

– نعم، وهكذا فقد فاتتنا تلك الخدعة . ترى ما هو المقصود بكلمة "نحن" في الرسالة ؟ وهل هي مؤامرة داخل الحصن أم أنها خارج الحصن؟..

كانت كلمة "نحن" توحي، وبشكل مزعج، بأمر ما بحيث لم يكن من الحكمة أن نحاول تفسيرها فقط. وكنا بذلك قد التفتنا إلى الأمور الأكثر عملية.، وقرّرنا أن نبدأ قبل كل شيء بمضاعفة الحراسة وبالالتزام بأكثر قدر ممكن من الرقابة. ثم خطر ببالنا بعد ذلك أن نعمد إلى استدعاء ويكلو وأن نجعله يعترف بكل شيء، ولكن لم يكن يبدو لنا بأن من الحكمة أن يتم ذلك إلى أن تفشل جميع الطرق الأخرى. كان علينا أن نحصل أولاً على عدد أكبر من تلك المكاتبات، وبذلك بدأنا بالتخطيط للوصول إلى تلك النهاية وكانت قد خطرت ببالنا حينذاك الفكرة التالية:

لم يكن ويكلو يذهب على الإطلاق إلى مكتب البريد وربما كان ذلك الإصطبل المهجور هو

مكتب البريد الخاص به.

أرسلنا بطلب الموظف المسؤول عن الأمور ذات الصفة السريّة، وهو شاب من الجنسية الألمانية يدعى ستيرن وكما أنه نوع من التحرّي. رويت له كل شيء عن القضية وأمرته بالتقصّي عن الموضوع. وخلال ساعة واحدة كانت قد وصلتنا منه معلومات تفيد بأن ويكلو عاد ثانية إلى الكتابة.

كما وصلتنا أيضاً بعد فترة بسيطة معلومات تفيد بأن ويكلو طلب إذناً لمدة ساعة للذهاب إلى البلدة. وبذلك قمنا بتأخيره لبعض الوقت,وكان ستيرن أثناء ذلك قد أسرع بالذهاب إلى الإصطبل واختبأ فيه. وبعد قليل شوهد ويكلو يدخل إلى الإصطبل وهو يمشي الهوينا., حيث كان بعد أن نظر حوله قد خبأ شيئاً في إحدى الزوايا تحت بعض النفايات ثم غادر لمكان بكل تمهّل.

انقض ستيرن على الفور على ذلك الشيء الذي كان الفتى قد خبأه هناك ــ كانت رسالة ــ وكان قد أحضرها إلينا. كانت تحمل عنواناً، إلا أنها لم تكن تحمل أي توقيع، وإنما كان كل ما احتوته تكراراً لما كنا قرأناه في الرسالة السابقة إلا أنها كانت قد استكملت بما يلي:

" نعتقد بأن من الأفضل تأجيل الأمر إلى أن تذهب المجموعتان. أقصد الأربع مجموعات إلى الداخل. لم أتصل بعد بالآخرين. أخشى أن أجلب الانتباه. أقول أربعة لأننا فقدنا اثنين، فلم يكن قد مرّ وقت طويل على تجنيدهما إلا وتم إرسالهما إلى الجبهة، سوف يكون من الضروري جداً تأمين اثنين آخرين بدلاً عنهما. الاثنان اللذان ذهبا كانا من الأخوة من نقطة الثلاثين ميل. لدي أمر في غاية الأهمية عليّ أن أكشفه لكم، ولكن يجب ألا أثق بهذه الوسيلة من الاتصال، سوف نجرب وسيلة أخرى للاتصال".

قال ويب:

– ذلك الوغد الصغير ! من كان بإمكانه أن يظنّ بأنه من الجواسيس؟ على كل حال لا تهتم بالأمر., ودعنا نُضيف هذا إلى ما لدينا أمامنا من التفاصيل، ولنفكر كيف ستبدو هذه القضية:

أولاً: علينا أن نطرد من بيننا هذا الجاسوس الذي أصبحنا نعرفه.

ثانياً: لدينا ثلاثة جواسيس آخرين لا نعرفهم.

ثالثاً: كان قد تم تقديم هؤلاء الجواسيس إلينا بذلك الأسلوب السهل والبسيط الذي يتم بموجبه التطوّع في الجيش الاتحادي، ومن الواضح أن اثنين منهما قد خانا وبذلك تم إرسالهما إلى الجبهة.

رابعاً: لابد أن هناك في الخارج بعض الجواسيس المساعدين لهم وبعدد لايمكن تحديده.

خامساً: يبدو أن عليه أن يعلمهم بأمر هو في غاية الأهمية, وهو يخشى نقله إليهم بالطريقة الحالية، لذا سوف يقوم بتجربة طريقة أخرى.

هذه هي القضية كما تبدو أمامنا. فهل سيكون علينا أن نقبض على ويكلو ونجعله يعترف؟ أم أن علينا أن نقبض على ذلك الشخص الذي ينقل الرسائل من الإصطبل ونجعله يتكلم ؟ أم أن علينا أن نبقى على هدوءنا إلى أن نكتشف المزيد ؟!...

قرّرنا إتباع المسار الأخير. وارتأينا بأننا لسنا في حاجة حالياً إلى البدء باتخاذ بعض الإجراءات العاجلة، بما أن من الجليّ أن على المتآمرين على ما يبدو الانتظار إلى أن يتم إجلاء مجموعتي المشاة من طريقهم. خوّلنا ستيرن عدداُ كبيراً من الصلاحيات، وطلبنا منه أن يستخدم كل إمكانياته لكي يكتشف وسيلة الاتصال الأخرى التي سوف يستخدمها ويكلو.

وكنا بذلك نرغب بلعب لعبة جريئة. واستناداً لما توصلنا إليه في نهاية النقاش. كنا قد ارتأينا الاحتفاظ بالجواسيس بوضع يُشعرهم قدر الإمكان بأنهم ليسوا تحت المراقبة. وبذلك أعطينا الأوامر إلى ستيرن بالعودة فوراً إلى الإصطبل. وطلبنا منه إخفاء رسالة ويكلو في المكان الذي كان قد وضعها فيه سابقاً، هذا فيما إذا وجد الطريق سالكاً، وذلك لكي يقوم المتمردون بأخذها.

مرّت تلك الليلة دون أية أحداث أخرى. كانت ليلة باردة، مظلمة وممطرة تهب فيها رياح عاتية., ومع ذلك كنت في تلك الليلة قد خرجت عدة مرات من سريري للقيام بجولات ليلية، أتأكد بموجبها من أن جميع الأمور في الحصن كانت على ما يرام، وبأن كل حارس كان يقف في مكانه بوضعية الاستعداد. كنت أجدهم دوماً مستيقظين تماماً ومتيقّظين تماماً. كان من الجليّ أن التهامس قد بدأ ينتشر بينهم حول وجود بعض المخاطر الغامضة، كما أن مضاعفتنا للحراسة كانت بمثابة التأكيد لتلك الشائعات. وكنت ذات مرة قد صادفت ويب قرب الصباح الذي كان يشقّ طريقه في تلك الريح القاسية، وبذلك أدركت بأنه كان أيضاً يقوم بجولاته عدة مرات لكي يتأكد من أن جميع الأمور تسير بالشكل المطلوب.

وأما في اليوم التالي فكانت الأمور تصاعدت بطريقة وبأخرى، فقد علمنا بأن ويكلو كتب رسالة أخرى. وبذلك سبقه ستيرن إلى الإصطبل. وكان بعد أن شاهده يضع الرسالة هناك قد استولى عليها بعد مغادرة ويكلو الإصطبل، ثم تسلل ورائه وتبتع خطوات ذلك الجاسوس الصغير عن بعد، مع تحرٍّ آخر بملابس عادية. فقد ارتأينا بأن من الحكمة أن يكون بإمكاننا اللجوء إلى مؤازرة القانون عند الحاجة. ثم كان ويكلو قد ذهب بعد ذلك إلى محطة القطار, حيث انتظر وصول القطار القادم من نيويورك، ثم وقف يتفحّص وجوه الحشود وهم يستقلّون السيارات. وكان قد نزل في المحطة حينذاك رجل عجوز أعرج يرتدي نظارات خضراء اللون ويحمل عصاً. توقف ويكلو بجانبه وبدأ يتأمله., ثم كان وخلال لحظة واحدة قد تحرك بسرعة بأن دسّ في يده مغلفاً ثم انسل إلى الأمام واختفى بين الحشود. وكان ستيرن خلال اللحظة التالية قد اختطف الرسالة من الرجل ومرّ بالتحرّي وأسرع بالهرب بعد أن قال له:

– عليك تتبع ذلك الرجل العجوز، لا تدعه يفلت عن ناظريك.

ثم توارى ستيرن بين الحشود وجاء مباشرة إلى الحصن. أقفلنا الأبواب وأمرنا الحارس في الخارج بعدم السماح بأية مقاطعة وجلسنا. كانت تلك الورقة تحتوي على ما يلي:

" الحلف المقدس. وجدنا في المدفع المتفق عليه تعليمات الرئيس التي كانت قد وضعت هناك الليلة الماضية. تم بموجب ذلك صرف النظر عن التعليمات التي كنا قد تلقيناها حتى الآن من النقطة التابعة. تركنا في المدفع الإشارة المعتادة بأن التعليمات وصلت إلى الشخص المناسب.

قاطعنا ويب بالقول :

– ألا يزال الفتى تحت المراقبة المستمرة في الوقت الحاضر؟

أجبته:

– نعم، هو تحت المراقبة الدقيقة منذ الإمساك برسالته الأخيرة.

– فإذن، كيف كان بإمكانه أن يضع أي شيء داخل المدفع، أوأن يُخرج أي شيء منه دون أن يتم القبض عليه؟

قلت: – حسناً، وأنا أيضاً أجد في ذلك ما يريب، لابد أن هناك بعض المتآمرين الآخرين بين

الحراس بالذات، لأن هذا الأمر لايمكن أن يتم بدون تسترهم عليه بشكل أو بآخر.

أرسلت في طلب رايبورن وأمرته بتفحص بطاريات المدفع وإعلامي بما سيراه., وبما أننا لم نكن قد انتهينا بعد من قراءة الرسالة الأخيرة فقد تابعنا القراءة:

" التعليمات الجديدة نهائية وتتطلب أن يكون بدلاً عن م. م. م. م – هو ف. ف. ف. ف وفي الساعة الثالثة من صباح الغد. سوف تصل من جهات مختلفة ,مجموعات صغيرة من مائتين إما بواسطة القطار أو بوسيلة أخرى وسوف يكونون في المكان المحدد في الوقت المناسب. سوف أقوم اليوم بتوزيع الإشارة. يبدو النجاح مضموناً، رغم أنني أعتقد بأن هناك ما تم الكشف عنه، فقد تمت مضاعفة الحراسة، كما قام الرؤساء ليلة الأمس بجولات ليلية. سوف يأتي و. و. اليوم من الجهة الجنوبية، سوف تتلقى التعليمات السرّية بواسطة الطريقة الأخرى. عليك أن تتواجد أنت و الستة في 166 بحدود الساعة الثانية بعد الظهر. سوف تجدون ب. ب هناك وسوف نزودكم بالتعليمات التفصيلية. كلمة السرّ هي كالمرّة السابقة لكنها معكوسة. ضعوا الفقرة الأولى في الأخير والفقرة الأولى في البداية. تذكروا ك. ك. ك. ك، لا تنسوا، كونوا شجعاناً, سوف تصبحون من الأبطال قبل أن تُشرق شمس الغد من جديد، وسوف تحصلون على الشهرة الدائمة، وسوف تضيفون بذلك صفحة خالدة على التاريخ. آمين".

قال ويب: – اللعنة !.. فكما بإمكاني أن أتبيّن من هذه الرسالة، يبدو أننا سوف نواجه نقطة ساخنة.

قلت: – لا مجال لذلك لكن الأمور على ما يبدو قد بدأت تأخذ مأخذ الجدّ., سوف تكون مغامرة متهورة عن طريق البر والوقت المحدد لها هو الليلة، وذا واضح بما فيه الكفاية. والطريقة الحقيقية , أقصد في أسلوب التنفيذ، تختبئ تحت تلك الأسماء المُزيفة "م" "و" "ف" ولكن النهاية والهدف،على ما أعتقد، يكمنا في المباغتة وفي الاستيلاء على الحصن. علينا الآن أن نتحرك بسرعة وعزم. أعتقد بأننا لن نكسب شيئاً بالاستمرار في سياستنا السرّية تجاه ويكلو. وعلينا أن نعرف وبأسرع ما يمكن أيضاً أين يقع الرقم (166) لكي نتمكن من الإعداد لإنزال على عصابة المتآمرين في الساعة الثانية بعد الظهر. والوسيلة الأسرع للحصول على تلك المعلومات هي دون شك في الحصول عليها بالقوّة من ذلك الفتى، ولكن كان عليّ أولاً وقبل قيامي بأية تحركات ذات

أهمية، أن أعرض تلك الوقائع على هيئة أركان الحرب، وأن أطلب منهم التفويض المُطلق بالصلاحيات.

قمنا بإعداد نصّ برقية بالشيفرة (الكتابة السرية) وبعد أن قرأت الرسالة ووافقت على ما ورد فيها تم إرسالها عبر الأسلاك.

وبعد أن انتهينا من مناقشة موضوع الرسالة التي كانت قيّد الدراسة، كنا قد فتحنا الرسالة الأخرى التي تم الاستيلاء عليها من ذلك الرجل الأعرج. لم تكن الرسالة تحتوي سوى على عدد من أوراق الكتابة البيضاء... لابد أنها كانت عبارة عن اختبار بارد لما كنا نتوقعه ولما كنا نتلهف للوصول إليه!. شحبت وجوهنا بحيث أصبحت بلون تلك الأوراق البيضاء. وقفنا للحظة أو لحظتين كالبُلهاء، لكنها كانت لحظات فقط, وكان قد توارد إلى أذهاننا بالطبع موضوع "الحبر السري". قرّبنا الرسالة من النار وأمعنا النظر في الحروف لكي نرى كيف ستظهر تحت تأثير الحرارة. ولكن لم يظهر فيها أي شيء سوى بعض الرسوم الباهتة التي لم نتمكن من تفسيرها. طلبنا حينئذ قدوم الرقيب وطلبنا منه القيام بكل ما يعرفه وما سيكون بإمكانه إجراءه من الاختبارات إلى أن يتوصل إلى الطريقة الصحيحة، وبأن عليه أن يوافينا بتقرير عن محتويات الرسالة فور ظهورها على سطح الورقة. كان ذلك الاختبار مصدراً للمزيد من الإزعاج والارتباك بالنسبة إلينا، لأننا كنا بالطبع نتحرّق بسبب التأخير، وكنا نتوقع أن نحصل من تلك الرسالة على الأسرار الأكثر أهمية حول تلك المؤامرة.

ثم جاء الرقيب رايبورن بعد ذلك، وأخرج من جيبه قطعة سلك مفتول بطول القدم تقريباً، عليه ثلاث عقد، رفعه إلى الأعلى وقال:

– أخرجت هذا السلك من المدفع المُوّضع بجانب الجبهة الأمامية. وبذلك كنت قد قمت بعد ذلك بانتزاع سِطام جميع المدافع وتفحّصتها عن قرب ولم أجد في أي مدفع مثل هذا السلك.

وكانت قطعة السلك بذلك بمثابة العلامة من ويكلو إلى أن أوامر الرئيس قد أجهضت. أعطيت تعليماتي بأن يتم وعلى الفور احتجاز جميع الحراس الذين تواجدوا بجانب المدفع خلال الأربع وعشرين ساعة الماضية، وبأ لا تُترك لهم أية فرصة للاتصال بأي شخص بدون موافقتي وبموجب أوامري السرية.

ثم وصلتنا برقية من وزير الحربية كانت تتضمن ما يلي:

"أصدروا الأوامر باعتقال المشتبه بهم. أعلنوا الأحكام العرفية في البلدة، قوموا بالاعتقالات

اللازمة. تصرفوا بحزم وبسرعة. أبقوا الإدارة على اطلاع على التطورات".

وكنا بذلك قد أصبحنا في الوضع الذي يسمح لنا بالتصرف. أرسلت من يلزم لاعتقال الرجل الأعرج، حيث تم إحضاره إلى الحصن دون جلبة . وضعته تحت الحراسة ومنعت التحدث معه أو التحدث لأجله., كان الرجل قد حاول في البداية أن يُحدث جلبة لكنه أقلع عن ذلك بسرعة.

ثم وصلنا ما يُشير إلى أن ويكلو شوهد وهو يُعطي شيئاً لبعض مجندينا الجُدد، وبذلك تم القبض على أولائك المجندين فور ابتعاده عنهم وتم احتجازهم أيضاً., وكنا قد وجدنا مع كل منهم قطعة صغيرة من الورق تحمل الكلمات والرموز التالية المكتوبة بقلم الرصاص:

"سرب النسر الثالث
تذكروا إكس، إكس، إكس، إكس
166"

وكنت ,استناداً للتعليمات التي وردتنا سابقاً, قد أبرقت إلى الإدارة بالشيفرة عما قمنا به من إجراءات وعن آخر التطورات، وبيّنت لهم أيضاً ما كُتب في البطاقة المذكورة أعلاه. وبذلك كنا قد أصبحنا بموقف القوّة بما يكفي لأن نُجازف بنزع القناع عن ويكلو. ثم أرسلت في طلبه كما أرسلت لجلب الرسالة التي كان ويكلو قد كتبها بحبر سرّي. لكن الرقيب الذي جلبها قال بأنها استعصت على جميع الاختبارات التي أجراها، إلا أن هناك وسائل أخرى بإمكانه أن يستخدمها فيما إذا تم تخويله بذلك (أي الحصول على المعلومات بالقوّة).

عندما دخل ويكلو إلى الغرفة، كانت تبدو عليه بعض الشيء علامات التعب والقلق، لكنه كان مع ذلك متماسكاً ولم يرتبك، وحتى لو كانت لديه أية فكرة عن الأمر، فلم يكن ذلك قد ظهر على ملامح وجهه أو في طريقة تصرفه. سمحت له بالوقوف للحظة أو لحظتين ثم قلت له بلطف:

– بُني، لِم تذهب كثيراً إلى ذلك الإصطبل القديم ؟

أجابني دون مبالاة أو ارتباك:

– الحقيقة أنني لست أدري تماماً لِم أفعل ذلك., ليس لدي سبب معين لذلك، سوى لكي أكون بمفردي ولكي أتسلى هناك.

– أنت تتسلى هناك، أليس كذلك ؟.

أجاب بذات الأسلوب البريء البسيط :

– نعم سيدي.

– أهذا كل ما تفعله هناك؟

أجاب وهو ينظر إلي بعينيه الواسعتين الصافيتين بتساؤل طفولي:

– نعم سيدي.

– أأنت متأكد من ذلك؟

– نعم أنا متأكد.

ثم قلت بعد فترة توقف قصيرة:

– ويكلو، لماذا تكتب كثيراً

– أنا، سيدي؟ أنا لا أكتب كثيراً. ً

– ألست تفعل ذلك؟

– لا سيدي، إلا إذا كنت تقصد تلك الخربشة. فأنا أخربش لكي أتسلى.

– وما الذي تفعله بتلك الخربشة؟

– لاشيء سيدي، أرميها.

– ألا ترسلها لأي شخص على الإطلاق؟

– لا، سيدي.

ثم عرضت عليه فجأة الرسالة الموجهة إلى الكولونيل. جفل ويكلو قليلاً لكنه تمالك نفسه على الفور وانتشرت حمرة خفيفة على خديه.

– فكيف حدث إذن أن قمت بإرسال هذه القطعة من الورق؟

– لماذا؟ لا، أبداً ــ لم أكن أقصد أبداً أية إساءة سيدي.

– لم تكن تقصد أبداً الإساءة! أنت تخون الجيش وأن تستغل موقعك، وأنت لاتقصد بذلك الإساءة ؟

أحنى رأسه وظل صامتاً.

– والآن، عليك أن تتكلم ولتتوقف عن الكذب.لمن كنت تنوي إرسالها ؟

بدت عليه مظاهر الأسى لكنه تمالك نفسه وأجاب بلهجة جدّية:

– سوف أقول الحقيقة، سيدي، كل الحقيقة، لم أكن أنوي إرسال تلك الرسالة لأحد على

الإطلاق. وإنما كتبتها لكي أتسلى فقط. أنا أدرك الآن ما تسببت به من أخطاء بحماقتي. كانت تلك عبارة عن مخالفة غير مقصودة، وهذه كلمة شرف سيدي.

– أنا سعيد بذلك. فمن الخطر أن تكتب مثل تلك الرسائل. أرجو أن تكون متأكداً من أنها الرسالة الوحيدة التي كتبتها.

– نعم سيدي، أنا متأكد تماماً.

كانت شجاعته مُذهلة. فقد نطق بتلك الكذبة بكل صدق وبسيماء وجه لم أكن قد شاهدت مثلها من قبل.

انتظرت فترة إلى تهدأ ثورة غضبي ثم قلت:

– ويكلو، نبّه ذاكرتك الآن، ولنرى فيما إذا كان بإمكانك أن تساعدني بأمرين أو بثلاثة أمور صغيرة أود الاستفسار منك عنها.

– سوف أبذل كل ما بإمكاني سيدي.

– فلنبدأ إذاً، من هو الأستاذ ؟

كان لذلك أثره في الكشف عن مشاعره، بحيث ألقى على وجوهنا نظرة تنم عن الفزع. لكن ذلك كان كل شيء. وكان خلال لحظة قد عاد إلى صفائه وأجاب بهدوء:

– لا أعرف سيدي.

– ألا تعرف ؟

– لا أعرف.

– أأنت متأكد من أنك لا تعرف؟

حاول بصعوبة أن يُثبّت نظره في عينيّ، لكن الضغط كان عليه كبيراً. وبذلك كان قد أحنى ذقنه ببطء نحو صدره. ولاذ بالصمت ووقف هناك يتحسّس أزراره بعصبية. كان في ذلك ما يُثير الشفقة عليه رغم تصرفاته الدنيئة. ثم قمت بخرق الصمت بسؤال:

– ومن هو الحلف المقدس ؟

ارتجف جسمه بوضوح، وحرّك يديه حركة خفيفة عشوائية لاإرادية. وكانت تلك النظرة بالنسبة إلي أشبه بنداء من مخلوق يائس بحاجة إلى الرأفة. لم يصدر عنه أي صوت. وإنما ظلّ واقفاً مُحنياً رأسه نحو الأرض. وبينما كنا جالسين نحدق به بانتظار أن يتكلم، رأينا بأن دموع

غزيرة بدأت تسيل على خدّيه، لكنه ظلّ صامتاً. ثم قلت بعد برهة:
– بُني، يجب أن تجيبني، عليك أن تُعلمني بالحقيقة من هو الحلف المقدس؟

بدأ يبكي بصمت ثم قلت بشيء من العنف:
– أجب على السؤال!

حاول السيطرة على صوته ثم نظر إلينا بتوسل، ثم بدأت الكلمات تخرج من فمه يرافقها نشيجه:
– سيدي، أرجو أن ترأف بحالي، ليس بإمكاني أن أجيب لأنني لا أعلم.
– ألا تعلم من هو؟
– أنا بالفعل، سيدي، أنا بالفعل أقول الحقيقة. لم أكن قد سمعت قط وحتى هذه اللحظة باسم الحلف المقدس. أقسم بشرفي سيدي هذا هو الأمر.
– يا ربّ الكون ! انظر إلى الرسالة الثانية التي كتبتها، ألا ترى هذه الكلمات " الحلف المقدس" ما الذي تقوله الآن؟

رفع رأسه ونظر إلي نظرة الشخص الذي جُرحت مشاعره نتيجة خطأ كبير تم إيقاعه به ثم قال بيأس:

– هذه مزحة قاسية سيدي! كيف بإمكانهم أن يلعبوها معي؟ وأنا الذي بذلت كل ما بوسعي لكي أتصرف باستقامة وبأن لا أتسبب لأحد بالأذى؟ لابد أن أحدهم قام بتزوير خطيّ، فأنا لم أكتب على الإطلاق، ولو حتى سطر واحد من كل هذا، كما لم يسبق لي أن شاهدت هذه الرسالة من قبل!
– أووه.. أنت أيها الكاذب الذي لا نظير له! ما الذي تقوله في هذا؟

ثم انتزعت من جيبي الرسالة المكتوبة بالحبرالسرّي ودفعتها أمام عينيه. شحب وجهه بحيث أصبح أشبه بوجه شخص ميت. ترنح قليلاً في مكانه، ووضع يده على الجدار لكي يتمالك نفسه. ثم سألني بعد لحظة بصوت ضعيف إلى درجة جعلتني أجد صعوبة في سماعه:
– هل، هل, قرأتها ؟

لابد أن وجهينا كانا قد أجاباه بالحقيقة قبل أن تنطق شفاهنا بكلمة نعم الكاذبة، فقد لمحت بوضوح الشجاعة التي بدت في عيني الفتى. انتظرت أن يقول شيئاً لكنه ظل صامتاً وبذلك قلت له أخيراً:

– حسناً، هل لديك ما تقوله حول ما تم الإفشاء به في هذه الرسالة ؟

أجابني بكل رباطة جأش:

– لا شيء، ما عدا أنها رسالة غير مسيئة وبأنها رسالة بريئة لا يمكن أن تتسبب لأحد بالأذى.

شعرت بأنني قد أصبحت في ذلك الوقت محصوراً في زاوية لأنه لم يكن بإمكاني أن أناقض ما قام بجزمه كما لم يكن بإمكاني أيضاً أن أصّرعليه.

لم أكن أعلم كيف سأستمر. ومع ذلك جاءني الفرج بأن خطرت ببالي فكرة وقلت:

– أأنت متأكد بأنك لا تعلم شيئاً عن الرئيس ولاعن الحلف المقدس وبأنك لم تكتب تلك الرسالة التي قلت بأنها ليست سوى شيء مزوّر؟.

– نعم سيدي، أنا متأكد.

سحبت من جيبي ببطء ذلك السلك المفتول دون أن أتكلم. حدّق ويكلو به دون مبالاة ونظر إلي بتساؤل. وكان صبري هنا قد نفذ إلى حدّ كبير إلا أنني كنت مع ذلك قد كبحت انفعالاتي وقلت بلهجة عادية:

– ويكلو هل ترى هذه؟

– نعم سيدي.

– ماهي؟

– يبدو وكأنها قطعة سلك.

– هل تبدو كأنها قطعة سلك؟ ألا تعرفها؟

أجاب بكل هدوء وكأنه يهمس بالكلمات: – لا، سيدي.

كان بروده بالفعل رائعاً! توقفت لعدة ثوان ٍ لكي يكون صمتي مُؤثراً، ثم نهضت ووضعت

يدي على كتفه وقلت بجديّة:

– لن يفيدك هذا أيها الفتى البائس. ولن يُفيدك أي شيء في هذا العالم. فهذه هي الإشارة المتفق عليها مع الرئيس الأستاذ، أليس كذلك؟ وهذا هو السلك المفتول الذي تم العثور عليه في مدفع في الجبهة المائية.

– هل تم العثور عليه في المدفع؟ ! لا، لا، لا، لا تقل في المدفع، وإنما في شِق في سطام البندقية، يجب أن يكون كذلك. ثم ركع على ركبتيه وأطبق يديه ورفع إلي وجهاً يدعو للرأفة.. وكان هائجاً وشديد الشحوب لشدة الرعب.

– لا، لا، لا أكان في المدفع ؟

– يا إلهي، لقد ضعت، ضعت للأبد، لابد أن هناك خطأ ما. ثم قفز من مكانه وشقّ طريقه بين الأيادي التي كانت تحاول الإمساك به محاولاً الهرب من المكان، لكن هربه كان بالطبع مستحيلاً. وبذلك ارتمى من جديد على ركبتيه وهو يبكي بكل جوارحه وأحاط بركبتي والتصق بها. وبدأ يستعطفني ويتوسل إلي قائلاً:

– ارحمني، كن رؤوفاً بي ! لا تُفشي سرّي، لا تشي بي. لن يتركوني حياً ولو للحظة ! ارحمني ! أنقذني! سوف أعترف بكل شيء!.

كنا قد احتجنا لبعض الوقت لكي نجعله يهدأ ولكي نُخفف من خوفه، ولكي نُعيده إلى بعض العقلانية، ثم بدأت باستجوابه. كان يُجيب بتذلل وبعينين مُطرقتين إلى الأرض، وكان من وقت لآخر يمسح الدموع التي كانت تسيل من عينيه دون توقف:

– فإذن أنت في قلبك من المتمردين؟

– نعم سيدي.

– وأنت جاسوس؟

– نعم سيدي.

– وأنت تُمثّل هذا الدور بموجب أوامر من الخارج ؟

– نعم سيدي.

– وبمحض إرادتك؟

– نعم سيدي.

– وربما بكل سرور؟

– نعم سيدي.، لن يفيدني الإنكار. الجنوب وطني. قلبي مع الجنوب، وهذا كلّه لأجل قضية الجنوب !.

– كانت القصة التي رويتها لي عما عانيته من ظلم ومن اضطهاد لعائلتك قصة مُلفقة لهذا الغرض ؟

– سيدي، قالوا لي أن علي أن أروي ذلك.

– وسوف تخون وتحطم من أشفقوا عليك ومن قدموا إليك الحماية. أتدرك كم أنت حقير؟ أنت أيها الشيء البائس المُضللّ.

أجاب بمجرد المزيد من البكاء الشديد.

– حسناً، دعنا نتغاضى عن كل ذلك، وبالنسبة للموضوع من هو القائد الكولونيل وأين هو؟

بدأ يبكي وحاول أن يرجوني أن أعفيه من الإجابة. وقال بأنه سوف يُقتل لو قال لي. هدّدته بوضعه في الزنزانة المظلمة وبحبسه إن لم يكشف لي عن تلك المعلومات. كما وعدته بذات الوقت بحمايته من أي أذى لو صرّح بوضوح بما لديه. وكان كل ما أجاب به هو أن أقفل فمه بحزم، واتخذ موقفاً عنيداً لم أتمكن من إثنائه عنه. وكنت في آخر الأمر قد اصطحبته إلى الزنزانة المظلمة، وكان بمجرد النظر إليها قد اهتاج وانفجر بعاصفة من البكاء ومن التوسل وقال بأنه سوف يروي لي كل شيء.

وبذلك، كنت قد أعدّته معي. ثم قام بإعلامي باسم الشخص الذي يُلقب بالكولونيل، ووصفه لي بالتفصيل وبشكل مُحدّد. وقال بأن بالإمكان العثور عليه في الفندق الرئيسي في البلدة وهو يرتدي ثياباً مدنية. وكان علي أن أهدّه من جديد لكي يُدلي باسم وبأوصاف ذلك الأستاذ. قال لي بأن بالإمكان العثور عليه في نيويورك وفي الشارع رقم (15) تحت اسم مستعار هو ر. ف. غاليورد. اتصلت على الفور برئيس شرطة العاصمة وأعلمته باسم وبأوصاف ذلك الرجل وطلبت منه توقيفه واحتجازه إلى أن أتمكن من إحضاره.

ثم قلت له:

– والآن ويكلو، يبدو لي أن هناك العديد من المتآمرين الآخرين في الخارج، ومن المتحمل أن يكون ذلك في نيو لندن، وعليك أن تُسميهم وتُدلي لي بأوصافهم.

قام بتسميتهم حيث أدلى بأوصاف ثلاثة رجال وسيدتين، يقيم جميعهم في الفندق الرئيسي في البلدة. وبذلك قمت بتوقيفهم وبتوقيف الكولونيل وبحبسهم في الحصن.

ثم سألته: أريد أن أعرف كل شيء عن المتآمرين الثلاثة المحتجزين حالياً في الحصن.

وكان كما أعتقد على وشك المراوغة لكي يتفادى ذلك بأسلوب من النفاق. إلا أنني كنت قد أخرجت قطع الورق الصغيرة الغامضة التي تم العثور عليها معهم, وكان لذلك أثره المفيد عليه. ثم قلت له بأننا قبضنا على الرجلين، وبأن عليه أن يُشير إلى مكان الرجل الثالث وهذا ما جعله يشعر بفزع شديد حيث صاح:

– أرجوك، لا ترغمني على ذلك. سوف يقتلني على الفور!

قلت له: بأن كل ذلك هراء. وأعلمته بأنني سوف أكلف من سيبقى بجانبه لكي يتولى حمايته، وبأننا سنقوم، بالإضافة إلى ذلك، بمواجهته بجميع الرجال بعد تجريدهم من السلاح وأمرت جميع المجندين الجُدد بالتجمع.

خرج ذلك البائس التعيس بين صفوف الجنود وهو يرتجف. كان يحاول قدر الإمكان أن يُظهر عدم مبالاته بالأمر. ثم كان أخيراً قد تكلم كلمة واحدة مع أحد الرجال. وهذا ما جعلنا نعتقل ذلك الرجل قبل أن يكون قد ابتعد عنه خمس خطوات.

وكنت على الفور من إعادة ويكلو إلى الغرفة ثانية، قد أمرت بإحضار الرجال الثلاثة معاً. أوقفت أحدهم أمامي وقلت:
– والآن ويكلو عليك ألا تخفي عني أية تفاصيل صغيرة عن الحقيقة. من هو هذا الرجل ؟ وما الذي تعرفه عنه ؟

وبما أنه بذلك كان قد أصبح في صِلب الموضوع فقد تغاضى عن النتائج ثم ثبّت نظره على وجه الرجل وبدأ يتكلم في الحال دون أي تردد بما فحواه:

– اسمه الحقيقي جورج بريستو وهو من نيو أورلينز.،كان قبل سنتين يشغل وظيفة وكيل ربان في سفينة صغيرة تدعى" الكابيتول". يتصف هذا الرجل بالتهور، وكان قد تم حبسه مرتين بجريمة القتل غير العَمد ــ إحداهما لأنه قتل أحد مساعديه الذي يدعى هايد بواسطة قضيب حديدي. و الأخرى لأنه قتل أحد الرجال لرفضه رفع صفيحة من الرصاص رغم أن ذلك كان من مهامه. هو جاسوس تم إرساله إلى هنا من قبل الكولونيل لكي يقوم بهذه المهمة. كان يشغل وظيفة الربان الثالث في "سانت نيكولاس" عندما انفجرت بجوار "ممفيس" عام 1885، كما أنه كاد يُعدم بدون محاكمة لقيامه بسرقة الموتى والجرحى عندما تم نقلهم إلى الشاطئ على ظهر مركب خشبي فارغ، وهلم جراً. ثم أعطانا سرداً كاملاً للمراجع الكاملة عن ذلك الرجل.

وعندما أنهى حديثه قلت للرجل:

– ما الذي تقوله حول هذا ؟

أجاب: – مع احترامي لك سيدي، إن كل ما قاله عبارة عن كذبة شيطانية لم يتم تلفيق مثلها في أي وقت مضى.

أرسلته إلى الحجز، واستدعيت الآخرين على التوالي. ذات النتيجة. كان الفتى قد أعطاني تاريخ حياتهما بالتفصيل، دون أن يتردد بأية كلمة أو واقعة، إلا أن كل ما استطعت أن أحصل عليه من كل من الوغدين كان تأكيدهما بكل ثورة غضب بأن كل ما قاله الفتى كان كذباً ولم يعترفوا بأي شيء. لذا أعدتهم إلى الحجز ثم قمت بإحضار باقي السجناء الواحد تلو الآخر. وكان ويكلو قد أعلمني كذلك بكل شيء حولهم، ومن أية مدن هم في الجنوب. وبجميع التفاصيل حول علاقتهم بالمؤامرة الخ.

لكن الجميع أنكروا الوقائع التي رواها لي، ولم يعترف أي منهم بشيء. نظرت إلى تلك العصابة باشمئزاز والتفتت إلى اعترافات ويكلو مرة أخرى وسألته:

– أين هو الرقم (166) ومن هو(ب. ب) ؟

لكنه كان قد قرّر عدم التلفظ بحرف واحد.، ولم يؤثر فيه لا التهديد ولا الوعيد ولا الترغيب. كان الوقت يمرّ بسرعة وكان من الضروري اتخاذ إجراءات سريعة. لذا كنت قد أوثقته من قدميه على دولاب. وعندما تزايد الألم، بدأت تصدرعنه تلك الصرخات التي كانت أكثر مما كان بإمكاني احتماله. إلا أنني كنت قد ظللت مُتماسكاً، ثم صرخ بعد فترة قصيرة:

– أرجوك أنزلني وسوف أعترف!.

– لا، سوف تعترف قبل أن أنزلك.

والحقيقة أن كل لحظة من ذلك الوقت كانت بالنسبة إليّ ما يُشبه الاحتضار. ثم بدأ يتكلم:

– الرقم (166) هو فندق "إيغل".

ثم قام بذكر اسم حانة حقيرة بجانب ضفة النهر هي عبارة عن مسكن للعمال العادين الذين يعملون على طول الشاطئ ولغيرهم من الأشخاص الرديئي السمعة. وبذلك اعتقلته وأمرته أن يُطلعني على هدف المؤامرة.

قال وهو ينشج ويبكي:

– الهدف منها الاستيلاء على الحصن الليلة !

– هل تم القبض على جميع المشاركين في المؤامرة؟

– لا، لقد قبضتم على الجميع ما عدا من سوف يجتمعون في الرقم (166).

– وما معنى " تذكّروا إكس، إكس، إكس" ؟

لكنه لم يجب.

– ما هي كلمة السرّ للرقم 166 ؟

لم يجب.

– ما معنى تلك المجموعة من الحروف: ف، ف، ف، ف و حروف: م، م، م، م أجبني ! وإلا فسوف يتم وضعك على الدولاب من جديد.

– لن أجيب ! سوف أموت قبل أن أجيب. ولتفعل الآن ما تريد.

– فكّر بما تقوله ويكلو. هل هذا هو جوابك النهائي؟

أجاب بتصميم دون أية رعشة في صوته:

– نعم هذا هو جوابي النهائي. وأنا متأكد من ذلك كما أنني متأكد بأنني أحب موطني وأكره الشمس التي تسطع على الشمال. سوف أموت قبل أن اكشف عن كل هذه الأمور.

ربطته مجدداً على الدولاب، وكنت أشعر، وأنا أستمع إلى صرخات ذلك الصغير البائس، بأن قلبي ينفطر. لكنّا لم نكن قد حصلنا منه مع ذلك على أية معلومات. وكان على كل سؤال يُوجّه إليه يصرخ بذات الإجابة :

– أستطيع أن أموت، وسوف أموت، لكنني لن أكشف عن ذلك أبداً.

حسناً. كان علينا أن نَدع الأمور كذلك. لأننا كنا على يقين بأنه سوف يموت دون أن يعترف، وبذلك كنا قد أنزلناه من على الدولاب، وقمنا بحبسه تحت الحراسة المشددة.

ثم انشغلنا لبضع ساعات بإرسال البرقيات إلى هيئة أركان الحرب وباتخاذ التحضيرات اللازمة لأجل الإنزال في الرقم(166).

وكانت تلك الليلة المظلمة القاسية من أكثر الأوقات العصيبة التي مررنا بها فقد تسرّب الموضوع وبذلك أصبح الحصن بكامله في حالة هياج. تمت مضاعفة الحراسة، بحيث لم يكن بإمكان أحد أن يتحرك من الداخل أومن الخارج دون أن يتم توقيفه وعلى رأسه عقب بندقية. ومع ذلك كنت ,وهذا ما كان عليه ويب أيضاَ ,أقل قلقاً مما كنا عليه من قبل لأن المؤامرة لابد أن تكون قد أصبحت في الوقت الحاضر بوضع الشلل، بما أن ذلك العدد الكبير من المسؤولين الرئيسيين عنها كان قد أصبح في قبضتنا.

قررت أن أتواجد في الرقم (166) في الوقت المناسب وأن أقبض على (ب، ب) وأن أكمّ فمه وأن أكون على استعداد عندما سيصل الآخرون. تسللت إلى خارج الحصن حوالي الواحدة والنصف صباحاً، وبرفقتي مجموعة من الجنود النظاميين الأقوياء البنية ومن المقاتلين الشجعان، كما كان الفتى ويكلو خلفنا وهو موثق اليدين. قلت له بأننا ذاهبون إلى الرقم (166) وبأنه لو تبيّن لنا بأنه كان قد كذب علينا مرة أخرى وبأنه يخدعنا، فسوف يكون عليه أن يتحمل النتائج.

اقتربنا خلسة من ذلك الفندق لكي نستطلع الأمر. كان هناك ضوء واحد في الحانة بينما كان باقي الفندق مظلماً. حاولت اقتحام الباب الأمامي وتمكنت من ذلك. ثم دخلنا بهدوء وأقفلنا الباب وراءنا. خلعنا أحذيتنا وتقدمنا نحو باب الحانة حيث كان المالك الألماني نائماً على كرسيه. أيقظته بهدوء وطلبت منه أن يخلع حذائه وأن يتقدمنا. وحذرته بذات الوقت من أن يصدر أي صوت. أطاعني دون أن يهمس بكلمة واحدة، وكان من الجلّي أنه كان خائفاً جداً. طلبت منه أن يرشدني إلى الرقم (166)., ثم صعدنا ثلاثة أو أربعة طوابق بهدوء، هدوء أشبه برتل من القطط، وعندما وصلنا إلى أبعد نقطة في ذلك البهو الطويل كنا قد وصلنا إلى باب كانت وراء عارضة زجاجية، بحيث كان بإمكاننا أن نتبيّن بداخله توهجاً لضوء خفيف. تحسّس المالك يدي وهمس لي بأن تلك هي الغرفة الرقم (166). حاولت فتح الباب، لكنه كان مقفلاً من الداخل. همست لأحد أضخم الجنود، وكنا قد وضعنا أكتافنا العريضة على الباب، وبذلك استطعنا بدفعة واحدة أن نخلعه من مفصليه بدفعة واحدة.

وكنت بنظرة سريعة على السرير قد لمحت شكلاً لشخص ما، وشاهدت رأسه يتحرك بسرعة نحو المصباح ثم انطفأ الضوء، وبذلك كنا قد أصبحنا في ظلام دامس. ثم كنت بوثبة كبيرة قد أصبحت على حافة السرير., ضربت الشخص الذي كان فيه بركبتي., قاوم السجين بضراوة لكنني كنت قد قبضت على صدره بيدي اليسرى، وكانت تلك مساعدة لركبتّي في الإمساك به ثم سحبت مسدسي على الفور، لقمته وألصقت ماسورته الباردة بخده تحذيراً له. قلت:

"والآن فليشعل أحدكم المصباح، ها قد قبضت عليه حيّاً."

تم المطلوب.

ولكن عندما لمع لهب المصباح ونظرت إلى وجه الأسير أدركت بأنه كان امرأة شابة!

وبذلك كنت قد تركتها على الفور تفلت من قبضتي ونهضت من على السرير وأنا أشعر بالجبن والخجل والارتباك. حدّق الجميع بدهشة في الشخص الذي كان بجانبي، وكانوا قد فقدوا تقريباً كل إبخنوع:دراك...وكانت تلك مفاجأة مدهشة وساحقة!.. كانت المرأة الشابة قد غطّت وجهها بالملاءات وبدأت تبكي، ثم قال لي المالك بخنوع:

– هل كانت ابنتي تتصرف بأسلوب غيرسويّ ؟
– ابنتك ؟ أهي ابنتك ؟
– نعم، هي ابنتي! عادت اليوم فقط من سيسيناتا، كانت مريضة قليلاً.
– ادحض ذلك!... كان ذلك الفتى قد كذب علينا مرة أخرى فلم تكن تلك هي الغرفة ذات الرقم الحقيقي (166) وليس هذا (ب، ب)!
قلت :
– ويكلو. سوف تعثر على الرقم (166) الصحيح أو... ولكن أين الفتى؟؟

كان ويكلو قد خرج بسرعة المدفع ! والأكثر من ذلك هو أننا كنا قد فقدنا كل أثر له. كانت تلك بالطبع ورطة لعينة. لعنتُ بلاهتي لأنني لم أكن قد قيّدته بيد أحد رجالي، ولكن لم تكن هناك أية فائدة من الاهتمام بذلك الأمر في ذلك الوقت. لكن السؤال كان لايزال مع ذلك:
لابد وأن تلك الفتاة هي (ب، ب) فما الذي كان علي أن أقوم به في مثل هذه الظروف؟ لم أصدق ذلك! ولكن وبالتأكيد لم يكن هناك من بإمكانه أن يُجيبني على ذلك التساؤل. وبذلك وضعت رجالي في غرفة فارغة أمام بهو الغرفة (166) وطلبت منهم إلقاء القبض على أي شخص وعلى كل شخص قد يقترب من غرفة الفتاة، كما طلبت منهم أيضاً أن يحتجزوا المالك معهم تحت المراقبة الشديدة إلى أن تصدر عني أوامر أخرى. ثم أسرعت بالعودة إلى الحصن لكي أتأكّد من أن الأمور هناك لاتزال تسير بشكل جيّد.

نعم، كان كل شيء على ما يرام، كما ظلّ كل شيء على ما يرام. مكثت هناك طوال الليل لكي أتأكد من ذلك ولم يحدث شيء... كنت أشعر بسرور لا يوصف وأنا أنتظر بزوغ الفجر، لكي يكون بإمكاني أن أرسل برقية إلى هيئة الأركان بأن النجوم والبيارق لا تزال تلمع فوق حصن ترومبل.

كان قد انقشع عن قلبي ضغط كبير، ولم أكن مع ذلك أشعر بالراحة تماماً، فقد كان علينا التزام الحذر وبذل كل جهد لأن القضية كانت أكبر من ذلك. ثم قمت باستدعاء سجنائي الواحد تلو الآخر وأنهكتهم بالاستجواب محاولاً جعلهم يعترفون لي إلا أنني كنت قد أخفقت في ذلك. كان كل ما فعلونه هو أنهم كانوا يَصرّون بأسنانهم ويَشدّون شعورهم دون أن يكشفوا لي عن أي أمر.

وكانت الأنباء عن ذلك الفتى المفقود قد وردتني قرب الظهيرة. فقد شوهد على بعد ثمانية أميال متوجّهاً نحو الشرق وسيراً على الأقدام. وبذلك كنت في الساعة السادسة صباحاً قد أرسلت أحد الفرسان مع رجل تحرّي لكي يتتبع أثر ويكلو على الفور. وكانوا قد شاهدوه على بعد عشرين ميلاً...كان يسحب نفسه بصعوبة عبر حقل موحل ثم تسلق سياجاً ودخل عبره إلى شقة قديمة واسعة على طرف القرية. امتطى الفرسان ركوبتهم وتوجهوا عبر الغابات., انعطفوا عن الطريق واقتربوا من المنزل من الجهة المعاكسة، ثم ترجّلوا وانطلقوا بسرعة نحو المطبخ.

لم يكن هناك أحد. تسللوا إلى الغرفة المجاورة التي لم يكن يشغلها أحد. كان باب تلك الغرفة الذي يؤدي إلى الغرفة المواجهة أو إلى غرفة الجلوس مفتوحاً. وعندما كانوا على وشك الولوج إلى داخلها سمعوا صوتاً خافتاً. كان هناك من يُصلي! وبذلك توقفوا احتراماً للموقف. ثم مدّ الملازم رأسه إلى الداخل، وبذلك شاهد رجلاً وامرأة مُسنين راكعين في زاوية من الغرفة. كان الرجل العجوز يُصلي, وعندما كان على وشك الانتهاء من صلاته، فتح ويكلو الباب الأمامي وولج إلى الداخل، حينئذ وثب الاثنان وغمراه بقبلاتهما وهما يهتفان:

– ولدنا! حبيبنا! شكراً لله! ها قد عثرنا على الولد الضائع! عاد الولد الذي كان ميتاً إلى الحياة من جديد !...

– حسنا!.. سيدي، والآن ما الذي سيتوارد إلى ذهنك بعد كل ما سمعته؟ كان ذلك العفريت الصغير ولدهم بالفعل وكان قد نشأ في ذلك المكان، ولم يكن طوال حياته قبل الخمسة عشر يوماً التي تسكع خلالها في المنطقة , قد ابتعد عن ذلك المكان حتى لمسافة الخمسة أميال، وكان ما فعله هو أنه خدعني بتلك الرواية العاطفية التي تُثير الشفقة...

– هذا صحيح وهذه القصّة حقيقية كحقيقة الكتب المقدسة. نعم كان ذلك الرجل والده وكانت تلك المرأة العجوز والدته.

دعني الآن أدلي بكلمة أو كلمتين أشرح بها الموضوع المتعلق بذلك الفتى وبتلك المسرحية التي ابتدعها.

تبيّن لنا بأن ويكلو كان من النوع المُحب والتوّاق جداً إلى قراءة الروايات الغامضة وإلى قراءة قصص الإثارة. وبأنه كان يهتم بالروايات البوليسية الغامضة وبالبطولات المُنمقة. ثم كان أن قرأ الأنباء التي كانت قد نشرتها الصحف عن التحركات التي يقوم بها الجواسيس والمتمردون خِلسة، وعن أهدافهم الرهيبة المفزعة، وعن اثنين أو ثلاثة من انجازاتهم المروعة إلى أن اهتاجت مُخيلته حول كل ذلك.

وكان من أحد الأصدقاء الملازمين له منذ عدة شهور شاب من أبناء شمال الولايات المتحدة. كان لذلك الشاب مُخيلة مثيرة كما أنه يتمتع بلسان طليق، وكان قد عمل لعدة سنوات ككاتب وكضابط حسابات في بعض السفن التي تُبحر باستمرار بين نيوأورليانز وبعض المناطق التي تبعد مسافة مائتين أو ثلاثمائة ألف ميل عن الميسيسيبي، وبذلك كانت لديه إمكانية وسهولة في الحصول على تلك الأسماء وعلى جميع تلك التفاصيل الأخرى عن المنطقة، لأنه كان قد أمضى شهرين أو ثلاثة أشهر فيها قبل الحرب. وأنا أعلم تماماً بأنه كان من السهل أن يحصل منه ذلك الفتى الذي كان قد ولد في لوازيانا على كل تلك المعلومات التي أعلمني بها ، ولابد وأنه كان قد حصل عليها منه بسرعة وخلال خمس عشرة دقيقة فقط.

أتعلم ما هو السبب الذي جعله يُفضل أن يموت على أن يشرح بعض ما كان في تلك الأحجية المتعلقة بخيانته؟ كان هذا ببساطة لأنه لم يكن بإمكانه أن يشرحها لعدم وجود أي معنى محدّد لها، ولأنها كانت قد انطلقت من مخيلته بشكل عفوي مفاجئ دون تدبّر أو توقّع، لذا لم يكن بإمكانه أن يُلفق تفسيراً لها. فعلى سبيل المثال: لم يكن بإمكانه أن يُفسّر ما كان قد أخفاه في تلك الرسالة المكتوبة بالحبر السرّي لسبب حقيقي هو عدم وجود ما هو مكتوب في تلك الرسالة. ولأنها كانت عبارة عن ورقة بيضاء فقط . كما لم يكن قد وضع أي شيء في البندقية، ولم يكن ينوي ذلك لأن جميع رسائله كانت قد كُتبت لأشخاص خياليين!.

وعندما كان يقوم بإخفاء إحدى الرسائل في الإصطبل، كان في اليوم التالي يزيل دوماً ما كان قد وضعه فيه في اليوم السابق. كما لم يكن لديه أي علم بذلك السلك المعقود، الذي كان قد رآه ربما لأول مرّة عندما كنت قد عرضته عليه. إلا أنني عندما أعلمته من أين أتى، قام على الفور، بموجب خياله الأدبي قد تظاهر بأنه الشخص الذي كان قد قام بذلك. وكان بما قام به قد حقق ما كان يرغب به من التأثير علينا. كما أنه كان قد لفّق اسم "غاليورلد".، كما لم يكن هناك أي شارع

باسم "بوند" لأن ذلك الشارع كان قد ألغي منذ ثلاثة أشهر. كما كان قد لفّق اسم الكولونيل وجميع تلك القصص المتعلقة بهؤلاء البؤساء الذين قمت بالقبض عليهم والذين كنت قد قابلتهم به. ولفق(ب، ب) والرقم (166)الخ..

وبإمكاننا أيضاً أن نقول بأنه لم يكن يعلم بأن هناك مثل ذلك الرقم في فندق "إيغل" إلى أن أصبح هناك . كان ذلك الفتى على استعداد لأن يلفق أي شيء، وكلما رغب بذلك، وحتى لو أنك كنت قد أشرت إلى جواسيس من الخارج، لكان سيقوم بسرعة بوصفهم على شاكلة أولائك الغرباء الذين شاهدهم في الفندق والذين كان قد علم بأسمائهم بالصدفة.

كان ويكلو أثناء تلك الأيام العصيبة يعيش في عالم كبير غامض، وأعتقد بأن ما حدث كان بمثابة العالم الحقيقي بالنسبة إليه.

كان بالطبع قد تسبب لنا بما يكفي من الاضطراب وبإذلال لا حدود له. فكما ترى، كنا بسببه قد أوقفنا وقمنا باحتجاز خمسة عشر إلى عشرين رجلاً في الحصن تحت حراسة الجنود. وبما أن العديد ممن تم القبض عليهم كانوا من المجندين، فلم يكن عليّ أن أعتذر إليهم. لكن الباقون كانوا من مواطني الدرجة الأولى من مختلف مناطق الدولة. وبذلك لم يكن هناك ما يكفي مما قد يُرضيهم من الاعتذارات وكانوا قد ثاروا وغضبوا وخلقوا لنا إشكالات لا تنتهي! أما بالنسبة للسيدتين فكانت إحداهما زوجة لأحد أعضاء مجلس النواب في أوهايو، وكانت الثانية شقيقة أحد أساقفة المنطقة الشرقية. وبذلك كان الازدراء والغضب والدموع التي زرفتاها أمامي تذكاراً كان عليّ على الأرجح أن أظل أذكره لفترة لا بأس بها وسوف أفعل ذلك. وأما بالنسبة لذلك الرجل العجوز الأعرج الذي كان يرتدي النظارات، فهو مدير مدرسة في فيلادلفيا كان قد جاء لكي يشارك في تشييع ابن شقيقه، ولم يكن قد سبق له بالطبع معرفة ويكلو. لكن ويكلو كان قد وقف أمامي ووصفه بالشخص المزوّر، وبتاجر الزنوج، وبسارق الخيول، وبعامل مطافئ في جماعة من أكثر الجماعات وَضاعة ورداءة سمعة في "غالفيستون ". وكان ذلك بالذات هو الأمر الذي لم يكن بإمكان ذلك الرجل النبيل أن يتقبّله على الإطلاق.

أما بالنسبة إلى هيئة الأركان وإلى وزارة الحربية!.. يا إلهي! دعنا نُسدل الستار على هذا الجزء من الموضوع!..

ملاحظة: كنت قد عرضت تلك الرسالة على الرائد وكان ما قاله لي هو التالي:

– كان السبب في التغرير بك وفي وقوعك بتلك الأخطاء البسيطة عدم معرفتك بالشؤون العسكرية. ومع ذلك فهذه من الأخطاء الرائعة. دعها تمرّ. فسوف يضحك رجال الجيش لدى سماعها، ولن يكتشفوا الباقي فلديك العناصر الأساسية للقصة الحقيقية.

وها قد رويت لك هذه القصة كما حدثت تماماً.

غراميات ألونزو كليرنس وروزانا إثلتون

1

كان ذلك قبل ظهيرة أحد أيام الشتاء القارصة البرودة. وفي مدينة "إيست بورت " بولاية "ماين" التي دفنت تحت طبقة كثيفة من الثلوج التي سقطت حديثاً. كان الصخب الاعتيادي في الشوارع مفقوداً بحيث بإمكان المرء أن ينظر إلى مسافات بعيدة دون أن يشاهد سوى فراغ أبيض خامد يواكبه صمت مُطبق ــ ولست أقصد بالطبع بأن بإمكان المرء أن يشاهد الصمت ــ لا. وإنما بإمكانه أن يسمعه. أرصفة طويلة وخنادق عميقة وجدران شاهقة من الثلوج من كل جانب.

ومع ذلك , بإمكانك أن تسمع هنا وهناك صوت خفيض لمجرفة خشبية، ولو كنت سريع الملاحظة بما فيه الكفاية، فسوف تلمح أيضاً عن بعيد في أحد تلك الخنادق، ما هو أشبه بشكل أسود اللون، شكل ينحني ويظهر من جديد في اللحظة التالية ، بحركة قد تعرف بأنها لرفع مجرفة مليئة بالثلوج. ولكن عليك أيضاً أن تكون سريع الملاحظة لأن ذلك الشكل الأسود لن يبقى طويلاً، وإنما سوف يُسارع برمي المجرفة لكي يسرع في الذهاب إلى المنزل، وهو يُدلّك نفسه بيديه لكي يشعر بالدفء. نعم، كان الطقس قارصاً، وبذلك كان من العسير على أي شخص حتى على من يقوم بتجريف الثلوج أن يحتمل البقاء في الخارج لفترة طويلة.

, هبتت السماء الآن , هبتت الريح وبدأت تعصف بشكل مُتقطع بهبّات نَشطة كانت تسوق معها. إلى الأعلى والأسفل، إلى الأمام وإلى كل مكان، سُحباً من رذاذ الثلوج. ومع اندفاع كل هبة

من تلك الرياح، كانت الكتل الثلجية البيضاء الضخمة تتراكم أشبه بالأضرحة. وكانت ريح أخرى قد عصفت بعد لحظة وحوّلت الثلوج إلى الطرف الآخر، وهي تحمل معها, من قمم الجبال, رذاذ الثلوج الجميل الذي كان أشبه بالأمواج الهوجاء التي تقود الزَبد إلى البحر. ثم هبت ريح ثالثة على المكان وجعلته نظيفاً أشبه بوجه اليدّ ــ هذا لو كان ذلك التشبيه ينطبق عليها ــ كان كل ذلك مثيراً للجنون وأشبه بلعبة. فجميع تلك الرياح كانت تطرح الثلوج في خنادق بجانب الأرصفة، نعم، فقد كانت تلك مهمتها.

في ذلك الوقت كان ألونزو فيتس كليرنس جالساً في الردهة الصغيرة الأنيقة، بردائه الحريري الأزرق الجميل الذي تُزيّنه أطراف وحواشٍ من قماش الساتان القرمزي المتقن الحياكة. كانت النيران القرمزية تلتهب في الموقد., وكانت لاتزال أمامه بقايا إفطاره على مائدة تنتشر عليها أدوات المائدة المرتفعة الثمن التي تُضيف ما يشبه السحر الذي يتناغم مع أناقة وجمال وغنى أثاث الغرفة.

ثم هزّت ريح هوجاء من جديد النوافذ وانهالت عليها بموجة كبيرة من الثلوج.

تمتم الشاب الوسيم العازب:

"هذا يعني بأنه لا مجال للخروج اليوم من المنزل. حسناً، أنا قانع بذلك. ولكن ماالذي علي أن أفعله بشأن الرفقة؟ أمي تكفي تماماً، وكذلك خالتي سوزان تكفي تماماً، لكنهما مثل هذا البائس فهما معي على الدوام، وما يحتاجه المرء في مثل هذا اليوم الكالح هو بعض الاهتمامات الجديدة، ويحتاج إلى عنصر جديد يُثير رتابة مثل هذا الاحتجاز الإلزامي".

كان ذلك ما قاله ألونزو بوضوح، إلا أنه لم يكن يعني به شيئاً. فكما تعلمون, لا يرغب المرء عادة بالاحتجاز، بل على العكس...

ثم نظر إلى الساعة الفرنسية الجميلة التي كانت على رفّ الموقد وقال:

"ها هي الساعة على خطأ للمرّة الثانية. لا تُشير هذه الساعة أبداً إلى الوقت الصحيح.، ولو أشارت إلى ذلك، فسوف يكون ذلك بالخطأ مما له ذات النتيجة ".

ثم نادى " ألفرد !"

لم يكن هناك أي ردّ.

حدّث نفسه " ألفرد، خادم جيّد لكنه مُتقلب الطباع مثل هذه الساعة".

ثم ضغط على جرس كهربائي مُوضّع على الجدار. انتظر لحظة، ثم ضغط عليه ثانية وانتظر بضع لحظات أخرى وقال:

"لابد أن البطارية مُللتخاطب كانتا أنني بدأت، فسوف أكتشف كم هي الساعة.، ثم تقدم إلى قناة للتخاطب كانت على الجدار (جهاز يُستخدم بدلاً من جهاز الهاتف). نفخ في الصفارة ونادى:

– أمي! ثم كرّر ذلك مرتين.

حسناً، لا فائدة من ذلك، لابد أن البطارية التي لدى والدتي مُعطلة أيضاً، ولن يكون بإمكاني أن أستدعي أحدهم للنزول من الأعلى، هذا واضح".

جلس على مكتب من خشب الورد، ومال بذقنه على يده اليسرى وقال وكأنه يتحدث إلى الأرضية: – خالتي سوزان !..

أجابه صوت لطيف: – أهذا أنت ألونزو؟

– نعم، أنا أشعر بكسل كبير وبارتخاء يمنعني من الصعود إلى الأعلى، أنا متعب للغاية، ويبدو أنني لن أحصل من الأعلى على أية مساعدة.

– يا إلهي ! ما الأمر ؟

– أستطيع أن أقول بأن هناك ما يتسبب لي بالضيق! .

– ألونزو، لا تتركني في هذه الحالة من التوجّس، ما الأمر؟

– أريد أن أعرف ما هو الوقت.

– أنت أيها الصبي البغيض، ما هذا الدور الذي تلعبه معي، أهذا كل شيء؟

– هذا كل شيء بشرفي، اهدئي خالتي. أعلميني فقط كم هي الساعة الآن، وسوف تحصلين على بركتي.

– الساعة هنا هي التاسعة وخمس دقائق فقط ، ولست في حاجة إلى أجر، احتفظ ببركتك لنفسك.

– شكراً خالتي! لم يكن ذلك سيجعلني فقيراً، كما لم يكن سيجعلك ثرية ، فبإمكانك العيش بدون أية موارد إضافية.

نهض وهو يتمتم " التاسعة وخمس دقائق"، ثم وقف بمواجهة الساعة وقال " أنت تعملين الآن بشكل أفضل من ذي قبل، كل ما في الأمر أن الخطأ هو أربع وثلاثين دقيقة لنرى... لنرى...

ثلاث وثلاثين وواحد وعشرين يساوي أربع وخمسين دقيقة، أربع مرات أربع وخمسين يساوي مائتين وست وثلاثين، وإذا حذفنا منها واحداً يبقى لدينا مائتان وخمس وثلاثين، هذا صحيح. ثم أدار عقارب الساعة إلى الأمام إلى أن أصبحت تشير إلى الواحدة إلا خمس وعشرين دقيقة وقال: " سوف أرى الآن إن كان بإمكانك أن تبقي على صواب ولو لفترة قصيرة... وإلا فسوف أبيعك بالمزاد العلني".

ثم جلس من جديد على المكتب وهتف:

- خالتي سوزان!
- نعم عزيزي
- هل تناولت إفطارك؟
- نعم، منذ ساعة.
- أأنت منشغلة؟
- لا، ما عدا في الحياكة. لماذا؟"
- هل برفقتك أحد؟
- لا، لكنني بانتظار بعض الرفقة - في الساعة التاسعة والنصف.
- أتمنى لو كنت أنا أيضاً بانتظار أحدهم. أشعر بالوحدة وأرغب في التحدث مع شخص ما.
- حسن جداً، تكلم معي.
- لكن الموضوع خاص جداً.
- لا تخف، تكلم على الفور لا يوجد هنا أحد سواي.
- لست أدري فيما إذا كان علي أن أجازف بذلك أم لا، ولكن...
- ولكن ما الأمر ؟ لا تتوقف هنا ! فأنت تعلم بأنك تستطيع أن تثق بي ألونزو، أنت تعلم ذلك.
- أنا أشعر بذلك خالتي، لكن الأمر جدّي جداً. وهو يؤثر بي بعمق. أنا وجميع أفراد العائلة، وحتى أن من شأنه أن يُؤثر على كامل المجتمع.
- ألونزو، أعلمني بالأمر! ولن أبوح بكلمة واحدة مما سوف تقوله، ما هو الموضوع؟
- خالتي، لو تجرأت..
- أرجوك، استمر ألونزو! أنا أحبك وسوف أشاطرك مشاعرك، أعلمني بكل شيء ولتثق بي

ما الأمر؟

– إنه الطقس!..

– فليمحق الله الطقس، لست أفهم كيف بإمكانك أن تتعامل معي هكذا لو..

– خالتي العزيزة، هوّني عليك، هوّني عليك، أنا آسف، أقسم لك بشرفي بأنني آسف لذلك، وبأنني لن أكرّره، ألن تسامحينني ؟

– نعم أنا أثق بك، بما أنك تبدو لي صادقاً تماماً، رغم أنني أعلم بأن علي ألا أفعل ذلك، لأنك سوف تخدعني مرة أخرى فور نسياني ما فعلته.

– لا، لن أفعل ذلك، ولكن في مثل هذا الطقس، يا إلهي! على المرء في مثل هذا الطقس أن يحاول رفع معنوياته ولو كان ذلك بأسلوب مُخادع. الثلج يسقط، والريح تهب وتعصف، والبرد قارص !... كيف هو الطقس لديك ؟

– دافئ, ممطر وكئيب. هنا يتجول الناس الآن في الشوارع وهم يحملون واقيات المطر التي تسيل المياه من جميع أطرافها. هناك رصيف مضاعف من واقيات المطر التي تنتشر على جوانب الأرصفة إلى أبعد مكان يصل إليه نظري. وقد أشعلت النار لكي تضفي البهجة على المكان ولكن نوافذي مفتوحة بذات الوقت لكي أحصل على بعض الانتعاش، ولكن دون جدوى، ودون أية فائدة.لاشيء يدخل من النوافذ سوى تلك النسمة المعتدلة لشهر كانون الأول (ديسمبر) التي تحمل معها من الخارج عبير الزهور الذي يفوح من الحقول التي تُبهج برونقها وروعتها نفس المرء عندما تكون روحه مكسوّة بالخيش وبالرماد (تعبير مجازي يعني عندما يشعر بالاكتئاب)، وعندما يكون قلبه مُحطماً.

فتح ألونزو شفتيه لكي يقول لها " عليك أن تطبعي ما قلتيه وتضعيه ضمن إطار" لكنه ضبط نفسه, لأنه سمع صوت خالته وهي كانت تتحدث مع شخص آخر.

توجه إلى النافذة, وقف أمامها وبدأ يتأمل ذلك المشهد الشتوي الكئيب. كانت العاصفة تقود الثلوج أمامها بعنف لم يسبق له نظير، وكانت مصاريع النوافذ تقصف وتقرع بعنف. وكان كلب وحيد بائس برأس مطأطأ وذيل مرفوع، قد التجأ بجسده المرتجف من الرياح العنيفة، إلى أحد الجدران بحثاً عن الحماية. كانت هناك فتاة شابة تشقّ طريقها من خلال تيارات السيول التي أغرقتها حتى ركبتيها، وقد استدارت بوجهها عن تيار الهواء، بينما كانت قبعة رداءها الواقي من المطر تتحرك فوق رأسها إلى الأمام وإلى الوراء مع هبوب الرياح

ارتعد ألونزو وقال وهو يتنهد "من الأفضل لي أن أنظر إلى الوحل، وإلى المطر الشديد الرطوبة، وحتى إلى تلك الزهور الذابلة من أن أهتم بهذا!"

وعاد من أمام النافذة، إلا أنه بعد أن مشى خطوة واحدة كان قد توقف على الفور بوضع الاستماع. كانت قد وصلت إلى مسامعه نغمات رقيقة وخافتة لأغنية كان يعرفها تماماً. ظلّ واقفاً هناك مُحنياً رأسه إلى الأمام دون أن يشعر بذلك وهو يتجرع كآبة اللحن وهولا يكاد يتنفس، وحتى دون أن يُحرّك يده أو قدمه. كانت هناك بعض الأخطاء في أداء الأغنية. إلا أن ذلك كان بالنسبة إلى ألونزو، ما من شأنه أن يُضيف إلى اللحن المزيد من السحر، ومما لا يجعل ذلك اللحن مشوباً بأية عيوب... كان الخطأ في اللحن عبارة عن بعض الالتواء في الترانيم الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة من المذهب الموسيقي أو من غناء الجوقة المرافق لتلك القطعة الموسيقية. وعندما توقف صوت الموسيقى سحب ألونزو نفساً عميقاً وقال:" لم أسمع قطّ بمثل هذا الغناء الرقيق!".

ثم توجه بسرعة إلى المكتب. أصغى للحظة ثم قال بصوت حميمي حذر:

– خالتي، من تلك المغنية ذات الصوت السماوي الرائع ؟

– إنها الرفيقة التي كنت بانتظارها، وسوف تمكث معي لمدة شهر أو شهرين، سوف أقدمها إليك الآن آنسة...

– خالتي سوزان، بحق الله، انتظري لحظة، أنت لا تتريثين ولو لحظة للتفكير بما تقومين به!

ثم ركض إلى غرفة نومه، وعاد بعد لحظة وقد تغيّر مظهره الخارجي بشكل واضح وقال بنزق: " كانت ستقدمني إلى تلك الملاك وأنا في رداء النوم الأزرق ذي الأطراف الحمراء! لا تُفكّر النساء مطلقاً قبل التصرّف".

ثم أسرع بالوقوف بجانب المكتب وقال بحماس :

– أنا الآن على استعداد، ثم بدأ يبتسم وينحني بكل ما لديه من كياسة ومن قدرة على الإقناع.

– حسن جداً، الآنسة روزانا إيتلتون، دعيني أقدم إليك ابن شقيقتي، والمُفضّل لدي السيد

ألونزو فيتز كليرنس!..هوذا! كلاكما من الأشخاص الجيدين، وأنا أحبكما. سأترككما معاً لكي أنجز بعض الأمور المنزلية. اجلسي روزانا. إلى اللقاء ألونزو لن أتأخر.

كان ألونزو أثناء ذلك ينحني ويبتسم، وكأنه يُشير إلى عدد من السيدات الشابات اللواتي يجلسن أمامه في مقاعد وهمية. لكنه جلس بعد ذلك لكي يحدث نفسه:
" كان هذا من حسن الحظ ! فلتهب الرياح الآن، ولتندفع الثلوج، ولتُظلم السماء، فلن أهتم كثيراً بذلك ".

والآن, وبينما يتبادل الشابان الحديث و يتعارفان، دعونا نسمح لأنفسنا بالبحث عن الأكثر لطفاً وعن الأفضل بينهما.

كانت روزانا جالسة بمفردها بأسلوبها الرشيق غير المُتكلّف في صالة استقبال شقّة ذات مفروشات فخمة هي على ما يبدو غرفة الاستقبال الخاصة بسيدة تمتع بذوق رفيع وبالإحساس، هذا لو كانت مثل تلك العلامات والرموز تفيد في شيء. فعلى سبيل المثال كانت هناك بجانب مقعد منخفض مريح , طاولة عمل متينة وأنيقة عليها سلّة قليلة العمق مليئة بمختلف أنواع خيوط التطريز ومن غيرها من أنواع الخيوط ومن بعض النثريات. كان بعض تلك النثريات ما يتدلى بوفرة وإهمال من تلك السلّة، وكانت تنتشر على الأرضية قطع من أقمشة تركية حمراء زاهية الألوان، ومن أقمشة فارسية زرقاء، ومن أقمشة الأطفال، ومن بعض الأشرطة، وزوج من المقصات، واثنتان من بكرات الخيوط ومن بكرات الأنسجة الحريرية. وعلى أريكة مترفة مُنجدة بنوع من الخيوط الهندية السوداء والذهبية التي تتداخل فيما بينها ,كانت هناك مجموعة أخرى من الخيوط التي لايمكن تحديد ألوانها., وقطعة كبيرة من قماش أبيض متين رُسم على سطحه شكل لباقة من الزهور كانت قيد الإنجاز بواسطة إبرة معقوفة.، وكانت قطة المنزل نائمة على هذا القطعة الفنية. وفي إحدى المشربيات، كان هناك مسند خشبي عليه لوحة لم تُستكمل بعد وبجانبها , على كرسي , لوحة بالألوان ومجموعة من فراشي الرسم. كما تنتشر الكتب في كل مكان من تلك القاعة: "مواعظ روبرستون"، "ابن تيني"، "مودي وسانكي"، "عرش هاور"، "راب وأصدقائه"، كتب طبخ، كتب أدعية، كتب تحتوي على نماذج للرسومات، وكذلك وبالطبع كتب عن جميع أنواع الفخاريات. وهناك أيضاً بيانو عليه مجموعة من النوط الموسيقية الجميلة. وكانت على الجدران وعلى الرفوف وعلى رفّ الموقد، وفي كل المكان بشكل عام, تماثيل صغيرة وأشياء طريفة،

ونماذج صينية ثمينة لأشخاص شيطانية.

تُطلّ حافة النافذة على حديقة بهيجة تحتوي على جميع أنواع الزهور منها من المحلية ومنها من المستورد من الخارج, وعلى شجيرات الورود.

إلا أن تلك الفتاة الشابة الجميلة كانت أكثر لأشياء أناقة في ذلك المنزل، سواء مع تلك الأشياء أو بدونها، وكان بإمكان المرء أن يتأمل فقط تلك التقاطيع الرقيقة التي تُشبه نحت لشخصية إغريقية. بشرة بيضاء صافية أشبه بثمرة سفرجل أغناها انعكاس قرمزي خفيف من الحديقة. وعينان زرقاوان واسعتان رقيقتان بأهداب طويلة مُقوّسة توحيان بصدق طفلة وبرقّة ظبية، ورأس جميل يُتوجه شعر ذهبي غزير، ووجه مستدير لَدن توحي كل حركة ولفتة فيه بكياسة فطرية.

أما ثوبها وزينتها فكانا يتّسمان بتناسق وإتقان لا يأتي إلا من شخص يتصف بذوق رفيع تُكملّه الثقافة. فهو من قماش حريري بسيط أرجواني اللون، مقصوص بالورب، تتخلله ثلاثة خطوط من حواشي ذات لون أزرق باهت بجوانب من نسيج حريري بلون رمادي. وكان ترتدي فوق الثوب طرحة (شال) بلون كستناوي داكن بأطراف من الساتان القرمزي، وصديري بلون الذرة ثُبّت بأزرار من اللؤلؤ، وبسلسلة من الفضة مسحوبة إلى الخلف بربطة من المخمل الزاهي. كان ثوبها بياقة مفتوحة وأكمام قصيرة. كما ترتدي ربطة عنق من المخمل البني اللون بأطراف من الحرير القرنفلي الباهت.، وتحمل منديلاً من قماش متشرب بلون زعفراني، وأساور من المرجان، وقلادة معدنية ثمينة. وكان شعرها معقوصاً إلى الخلف بربطة من زهور البنفسج والزنبق.

هذا كل شيء. كانت الفتاة جميلة بشكل رائع حتى بدون تلك الملابس الفاخرة. تُرى كيف كانت ستبدو لو كانت ستتزين للذهاب إلى حفل راقص أو إلى مهرجان؟.

كانت طوال ذلك الوقت منشغلة بالحديث مع ألونزو، ولم تكن تشعر بتفحّصنا لها. مرّت الدقائق بسرعة، وهي لا تزال تتحدث معه، إلا أنها من وقت لآخر كانت تنظر إلى الأعلى، وعندما شاهدت الساعة اصطبغ خداها بحمرة قانية وقالت:

- سيد فيتز كليرنس، عليّ أن أذهب الآن!

ثم وثبت بسرعة من على المقعد لدرجة لم تُمكّنها من سماع الشاب وهو يجيبها:
– وداعاً!

توقفت مشرقة، أنيقة، جميلة., نظرت إلى الساعة المُتهمة بتعجب وتساؤل ثم فتحت شفتيها وقالت:

– أهي الآن الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق! أي ما يقارب الساعتين. مرّ الوقت وكأنه ليس أكثر من عشرين دقيقة... يا إلهي ما الذي سيظنه بي؟.

وكان ألونزو في ذات اللحظة أيضاً قد نظر إلى ساعته وقال:

– الثالثة إلا خمس وعشرين دقيقة. ساعتان تقريباً! لست أصدق ذلك، مرّ الوقت وكأنه ليس أكثر من دقيقتين. هل يمكن أن تكون هذه الساعة على خطأ من جديد؟ " ثم هتف:

– آنسة إثلتون، من فضلك ألازلت هنا؟
– نعم، لكنني سأغادر في الحال.
– لطفاً، هل بإمكانك إعلامي عن الساعة؟
– اصطبغ وجه الفتاة بالحمرة من جديد، وتمتمت لنفسها " من القسوة بالفعل أن يسألني عن الساعة " ثم تكلمت لكي تُجيب بعدم مبالاة زائفة رائعة:
– الحادية عشرة وخمس دقائق.
شكراً، ولكن هل عليك المغادرة الآن ؟ هل يتوجب عليك ذلك ؟
– نعم.
– أنا آسف لذلك.
لم تجبه.
– آنسة إثلتون!
– ماذا؟
– أنت لا تزالين هنا، أليس كذلك؟

– نعم، ولكن علي أن أغادر بسرعة، ما الذي ترغب بقوله؟

– حسناً, لاشيء بالتحديد. أنا أشعر هنا بالوحدة. أعلم بأنني أطلب منك الكثير، ولكن هل تمانعين في التحدث إلي ثانية من فترة لأخرى. هذا كل شيء، لو كان ذلك لن يزعجك كثيراً ؟

– لست أدري ــ سوف أفكّر بالأمر. سوف أحاول.

– شكراً لك آنسة إثلتون !.

"آه... غادرت.وها هي الغيوم السوداء والعاصفة الثلجية والرياح العاتية تأتي من جديد. لكنها قالت "وداعاً " ولم تقل "عِمت صباحاً" ، قالت "وداعاً"!.. كانت تلك الساعة تشير إلى الوقت الصحيح، ما أسرع ما مرّت الساعتان!"

ثم جلس ألونزو لفترة حالماً محدّقاً بالموقد .. أطلق تنهيدة عميقة وقال: "كم هذا من الرائع ! كنت منذ ساعتين رجلاً حراً وها قد أصبح قلبي الآن في سان فرانسيسكو!".

كما كانت روزانا إثلتون أيضاً وفي ذات الوقت مستندة إلى نافذة غرفة نومها، تحمل بيدها كتاباً وهي تُحدق بوجه خالٍ من التعبير بسيول الأمطار التي كانت تغسل السياج الذهبي، ثم همست لنفسها: " كم هو مختلف عن بورلي البائس برأسه الفارغ وبموهبته الوحيدة المضحكة التي هي المحاكاة!.

2

بعد مرور أربعة أسابيع كان السيد سيدني ألغرنون بورلي أثناء حفل غداء بهيج أقيم في غرفة الاستقبال الواسعة في " تلغراف هيل"، يُمتع الحضور بمحاكاة أصوات وإيماءات بعض الممثلين المشهورين وبعض الأدباء و كبار الأثرياء في سان فرانسيسكو.

وكان السيد بورلي وهو رجل وسيم المظهر يُخفي في عينيه نظرة عابثة، يبدو في غاية المرح، إلا أنه كان مع ذلك يُلقي من حين لآخر نظرة ترقب وانتظار إلى الباب.

بعد فترة قصيرة دخل أحد الخدم من الباب ، وسلّم السيدة رسالة جعلها تومئ للسيد بورلي برأسها بتفهّم، وكان ذلك على ما يبدو بمثابة التسوية لأمر ما بالنسبة للسيد بورلي، مما جعل حيويته تتناقص شيئاً فشيئاً وبحيث ظهرت في إحدى عينيه نظرة كآبة كما ظهرت في العين الأخرى نظرة شريرة. وبعد أن غادر باقي الحضور المكان في الوقت المحدد وتركوه مع السيدة قال لها بورلي:

– لم يعد هناك أي شكّ بعد الآن. هي تتجنبني وتعتذر باستمرار... لو كان بإمكاني على الأقل أن أجتمع بها وأن أتحدث إليها ولو للحظة واحدة فقط، لكن هذا الوضع من الترقّب والحيرة...

قالت السيدة:

– سيد بورلي، ربما كان ما يبدو لك تجنباً ليس مجرد صدفة. فلتذهب الآن إلى غرفة الجلوس الصغيرة في الطابق العلوي ولتشغل نفسك لبعض الوقت. سوف أعطي بعض الأوامر التي تخصّ الشؤون المنزلية، وسأذهب بعد ذلك إلى غرفتها , وسوف تقتنع دون شك بالاجتماع بك.

صعد السيد بورلي إلى الطابق العلوي وهو ينوي الذهاب إلى غرفة الجلوس الصغيرة، لكنه كان أثناء مروره بجانب غرفة الاستقبال الخاصة بالخالة سوزان، التي كان بابها مواراباً بعض الشيء، كان قد سمع صوت ضحكة مرحة يعرفها جيّداً.، وهكذا كان ,حتى دون أن يطرق الباب أوأن يُعلن عن قدومه , قد دخل دون تردد إلى الغرفة. ولكن، وقبل أن يتمكن من الإعلان عن وجوده، كان قد سمع بعض الكلمات التي حطمت قلبه والتي جعلت دم الشباب يتجمد فيه. كان قد سمع ذلك الصوت يقول:

– وصلتني الصورة حبيبتي.

ثم سمع صوت روزانا التي كان ظهرها إليه تقول:

– ووصلتني صورتك أيضاً حبيبي!

تملكه غضب شديد.، واستمرت المحادثة التي حطمت قلبه:

– روزانا كنت أعلم بأنك ولابد جميلة، ولكن هذا مُبهر، هذا يُفقد البصر، هذا يَفتن.

– ألونزو، سعادتي لا توصف بسماع ما تقوله. أنا أعلم بأنها ليست الحقيقة، إلا أنني سعيدة للغاية لأنك تعتقد ذلك!. وكنت أعلم أيضاً بأن لك ولابد وجهاً يدلّ على النبالة، لكن الحقيقة كانت أسمى وأكثر مما كانت قد تصوّرته مُخيلتي.

– شكراً لك روزانا! الصورة تجعلني أبدو أفضل مما أنا عليه، ولكن لا داعي لأن تسمحي لنفسك بالتفكير بذلك.

– نعم ألونزو.

– أنا سعيد جداً روزانا.

– ألونزو، لست أعتقد بأن مخلوق على الأرض كان قد عرف قبلي مثل هذا الحب، كما لن يعرف أي مخلوق بعدي أبداً ما هي السعادة التي أشعر بها. أنا أسبح في سماء رائعة لا متناهية من السحر ومن النشوة المُذهلة ذلك لأنك لي روزانا، ألست لي؟

– أنا كليّ لك، كليّ لك ألونزو، الآن وإلى الأبد. طوال اليوم وفي أحلامي الليلية، وهناك في قلبي أغنية رقيقة واحدة مَقولتها " ألونزو فيتز كليرنس، ألونزو فيتز كليرنس، إست بورت، ماين !"

حينئذ صرخ بورلي داخلياً " فليلعنه الله، ولكن وعلى كافة الأحوال ها قد حصلت على عنوانه " ثم خرج من المكان.

في ذلك الوقت كانت والدة ألونزو، الذي لم يكن في وعيه، تقف خلفه تماماً مثالاً للدهشة، كانت مُلتفة من رأسها إلى قدميها بالفراء، بحيث لم يكن يظهر منها سوى عينيها وأنفها. كانت رمزاً جيّداً للشتاء، لأنها كانت مُغطاة بشكل كامل بالثلج.

بينما كانت الخالة سوزان التي تقف خلف روزانا مثالاً آخراً للدهشة، ورمزاً للصيف لأنها كانت ترتدي الملابس الخفيفة، وتُحاول بجهد كبير إنعاش جبينها المُتعرّق بالمروحة.

امتلأت عيون الاثنتين بدموع الفرح.

قالت السيدة فيتزكليرنس: " ألونزو،هذا ما يُفسر سبب إخفاق أي شخص في جعلك تخرج من غرفتك لمدة ستة أسابيع"!

وقالت الخالة سوزان:

– روزانا، هذا ما يفسر سبب كونك مُتوحّدة خلال الأسابيع الست الماضية!..
وكان الشابان قد وقفا على قدميهما خلال لحظة، وهما في غاية الارتباك، أشبه بتاجرين ضُبطا مُتلبسين بسرقة بضائع وهما الآن بانتظار حكم القاضي...

– ألونزو، فليباركك الله بُني! أنا سعيدة لسعادتك. تعال إلى ذراعي والدتك!.
– فليباركك الله روزانا لما جلبته من سعادة لابن شقيقتي! تعالي إلى ذراعيّ!.

ثم كان هناك امتزاج بين قلوب وبين دموع فرح كل من الطرفين في كل من مدينة تلغراف هيل ومدينة إيست بورت سكوي., حيث قامت كل من السيدتين المُسنتين في المكانين باستدعاء الخدم، حيث تم إعطاء الأمر التالي إلى خادمة الأولى:
– املئي المدفأة بخشب الجوز وأحضري لي بعض عصير الليمون الدافئ المُحلّى.
وتم إعطاء الأمر التالي إلى خادمة الثانية :
– أطفئي هذه النار وأحضري لي إبريقاً من الماء المُثلج، ومروحتين من ورق النخيل.

بعد أن انصرف الشابان, جلست السيدتان الأكبر سناً للتباحث حول تلك المفاجأة اللطيفة وحول إعداد تحضيرات الزواج.

كان السيد بورلي قبل ذلك بدقائق قد أسرع بالخروج من شقة " تلغراف هيل" دون أن يستأذن بالمغادرة ودون أن يقابل أحداً. صَرّ على أسنانه وقال بمحاكاة لاإرادية للدراما الشعبية المفضلة لديه:

– لن يتزوجها أبداً!.. أقسم على ذلك!.. وسوف تقوم الطبيعة بالتخلص من حيوان القاقم الشتوي هذا قبل أن يرتدي الحلي الزمردية للربيع، وسوف تكون روزانا لي!.

3

وبعد أسبوعين، كان يزور ألونزو يومياً ولمدة استمرت ثلاثة أو أربعة أيام، كاهن يرتدي

نظارة أنفية يبدو عليه مظهر التُقى والورع., وكان اسمه بموجب البطاقة الشخصية " المُبجّل ميلتون هارغريف" من منطقة سين سيناتي.

كان ذلك الكاهن قد قال لألونزو بأنه استقال من الكهنوت مراعاة لصحته – ولو كان قد أعلم ألونزو بأنه استقال بسبب سوء حالته الصحيّة لكان قد أخطأ بالتأكيد في الحكم عليه، نظراً لما كان عليه مظهره من صحّة ومن قوة بُنية – كما كان قد أعلمه بأنه كان قد اخترع جهازاً متورطاً من أجهزة الهواتف، وبأنه يأمل في كسب عيشه ببيع امتياز استخدام ذلك الاختراع. كما أضاف بأن بإمكان أي شخص في الوقت الحاضر، أن يضع فرعاً لسلك برقي يستطيع بواسطته نقل الأغنيات من مكان لآخر، كما بإمكان أي شخص في الوقت الحاضر أن يربط هاتفه الخاص بهاتف شخص آخر، لكي يسترق السمع إلى الموسيقى التي قد تمرّ عبر الأسلاك، إلا أن الاختراع الذي لديه من شأنه الحيلولة دون ذلك...

وكان ألونزو قد أجابه:

– حسناً، لو كان من يمتلك الموسيقى لن يفوته الاستماع إلى ما يتم استراق السمع إليه، فلِم سيكون عليه أن يهتم بذلك؟

ولكن الكاهن المُبجل قال:

– ما الذي تقوله؟ أتعتقد بأنه أليس عليه أن يهتم بذلك؟

قال ألونزو بتساؤل: حسناً لِم سيكون عليه أن يهتم؟

لكن المُبجل أجابه: لنفترض، لنفترض بأن ما يتم استراق السمع إليه عبر الأسلاك لم يكن الموسيقى فقط، وإنما كلمات الحب الأكثر خصوصية وقدسية ؟.

ارتجف ألونزو حينئذ من رأسه إلى قدميه وقال:

– سيدي، هذا اختراع لا يُقدر بثمن ويجب أن أحصل عليه بأي ثمن...

لكن ما لم يكن في الحسبان أن ذلك الاختراع كان قد تأخر في الوصول من سين سيناتي. وبذلك كان صبر ألونزو قد بدأ ينفذ لمجرد التفكير باحتمال مشاركة أحد السفهاء في الاستماع إلى كلمات الغزل الرقيقة التي كانت تُحدثه بها روزانا. وكان المُبجّل في ذلك الوقت يكُرر زياراته له، لكي يشكو من التأخير ولكي يتحدث عن الإجراءات التي تم اتخاذها لاستعجال الأمور. وهو ما كان

يُطمئن ألونزو بعض الشيء.

وفي ظهيرة أحد الأيام صعد الكاهن السلالم وطرق باب ألونزو، وعندما لم يسمع أي ردّ دخل إلى الغرفة. نظر حوله بلهفة ثم أغلق الباب بهدوء وأسرع إلى جهاز الهاتف الذي كان ينبعث منه لحن رقيق جداً لأغنية "عما قريب يا حبيبي، عما قريب..." كان الشخص الذي يغني يَلحَن كالعادة في المقاطع الخمسة التي تلت الجزء الأول والجزء الثاني الأوليين من مقطوعة الكورس (مجموعة المغنين). حينئذ أوقفه بورلي بهذه الكلمات التي كان قد تفوّه بها بصوت يُحاكي تماماً صوت ألونزو بعد أن أضفى عليه نبرة السأم:

– حبيبتي !
– ماذا ألونزو ؟
–رجاءً, لا تُغني هذا اللحن هذا الأسبوع، ولتحاولي تجربة ما هو أكثر عصرية.

ثم سمع بورلي من السلالم صوت وقع القدم الخفيفة التي تتناسب مع صاحب ذلك القلب السعيد، وبذلك التجأ إلى خلف ثنيات الستائر المخملية وهو يبتسم ابتسامة شيطانية...
كان ألونزو قد دخل بسرعة وأسرع إلى الهاتف وقال:

– حبيبتي روزانا ألن نغني معاً الآن؟
سألته روزانا بمرارة وسخرية:
– شيئاً عصرياً ؟
– نعم، هذا لو كنت تُفضلين ذلك.
– فلتغنه بنفسك، إن كنت ترغب في ذلك!
كانت تلك الطريقة الفظّة في الحديث قد جرحت مشاعر الشاب وقال:
– روزانا، هذا الكلام لا يُشبهك.
أجابت روزانا:
– أعتقد بأنها أصبحت الآن طريقتي في الحديث، كما كانت طريقتك المهذبة جداً في التحدث إلي سيد فيتز كليرنس.
– روزانا، السيد فيتز كليرنس؟ لم يكن في كلامي معك أية قلّة تهذيب!.

– حقاً؟ بالطبع، لابد أنني أنا التي أساءت فهمك، وأن علي الآن أن أطلب السماح... ها ــ ها ــ ها!.. لا شك في ذلك، كنت قد قلت لي لا تغنيها أكثر من ذلك اليوم!

– ما هو اللحن الذي طلبت منك ألا تغنيه أكثر اليوم..؟

– الأغنية التي ذكرتها لك بالطبع. لست أدري كيف أصبحنا فجأة بهذا البعد عن بعضنا!.

– لم أذكر أية أغنية.

– بلى، ذكرت لي ذلك.

– لا، لم أذكرها.

– أنا مُجبرة على القول بأنك فعلت ذلك.

– وأنا مُجبر على أن أكرّر لك بأنني لم أفعل ذلك.

– هذا تصرف فظ آخر منك. هذا يكفي سيدي، لن أغفر لك هذا أبداً، انتهى كل ما بيننا!.

ثم وصل إلى مسامعه صوت بكاء مكتوم. أسرع ألونزو بالقول :

– روزانا، لا تتفوهي بمثل هذه الكلمات! لابد من أن لغزاً مخيفاً يكمن وراء ذلك، لابد من أن خطأ شنيعاً قد حدث، كنت جادّاً وصادقاً تماماً عندما قلت لك بأنني لم أقل شيئاً حول أية أغنية. لم أكن لأجرح مشاعرك لأي سبب في هذا العالم... روزانا حبيبتي... أرجوكي تحدثي إلي... ألن تتحدثي إلي؟

كانت هناك فترة توقف قصيرة، سمع ألونزو بعدها صوت نشيج متكرر وبذلك علم بأنها تركت جهاز الهاتف...

نهض وهو يتنهد بثِقل، وخرج من الغرفة وهو يحدث نفسه :

– سوف أقوم بالبحث عن أمي في جميع البعثات التبشيرية الخيرية، وفي جميع مآوى الفقراء التي تذهب إليها.وسوف تتولى أمي إقناعها بأنني لم أقصد أبداً جرح مشاعرها...

كان المبجل في ذلك الوقت جاثماً أمام جهاز الهاتف أشبه بالقطّ الذي يعرف طريقه إلى الفريسة. ولم يكن عليه الانتظار لوقت طويل، لأنه كان قد سمع بعد لحظات صوتاً رقيقاً نادماً يرتجف بين الدموع ويقول:

– ألونزو حبيبي! كنت مخطئة ! لايمكن أن تكون قد قلت لي أي شيء قد يجرح مشاعري،

لابد أن هناك من قام بمُحاكاة صوتك بخبث أو أن هناك من فعل ذلك على سبيل المزاح.

أجاب بورلي بصوت يُحاكي صون ألونزو:
– كنت قد قلت لي بأن كل شيء قد انتهى بيننا. فليكن ذلك.. وأنا الآن أرفض عرضك هذا الذي يدلّ على الندم وأزدريه.

ثم غادر الغرفة، وهوفي غاية السرور بانتصاره الشيطاني، ولكي لا يعود مُجدداً وإلى الأبد بذلك الاختراع الهاتفي الكاذب.

بعد أربع ساعات، كان ألونزو قد عاد بوالدته من جولاتها المُفضلة على مأوى الفقراء والمعوّقين. اتصلا بمنزل سان فرانسيسكو، ولكن لم يصلهما أي رد. انتظرا، واستمرا بالانتظار بجانب ذلك الهاتف الصامت. وأخيراً، وبعد غياب الشمس في سان فرانسيسكو، وبعد ثلاث ساعات من حلول الظلام في إست بورت، جاءهما الردّ على تلك الاتصالات المتكررة بروزانا. لكن ذلك لم يكن مع الأسف سوى صوت الخالة سوزانا التي تحدثت لكي تقول :
– كنت طوال اليوم خارج المنزل . دخلت لتوي إلى المنزل، سوف أذهب للبحث عن روزانا.
انتظرا دقيقتين، خمس دقائق،عشر دقائق، ثم جاءت تلك الكلمات المشؤومة بصوت الخالة الذي يملأه الخوف:

– روزانا غادرت المنزل ومعها جميع أمتعتها. قالت للخدم بأنها سوف تذهب لزيارة إحدى الصديقات.. وإنما وجدت في غرفتها حاشية صغيرة اسمعا ما كُتب فيها:

–"غادرت المنزل. لا تبحثوا عن أي أثر لي...تحطم قلبي، ولن تروني بعد الآن... قولوا له بأنني سوف أذكره دوماً وكلما غنيت أغنيتي البائسة: "عما قريب يا حبيبي، عما قريب" لكنني لن أتذكّر الكلمات الجارحة التي قالها حول ذلك! "
– هذا ما كتبته ألونزو, ألونزو! ما الذي يعنيه هذا؟ وما الذي حدث؟

لكن ألونزو كان قد جلس. شحب وجهه وسَرت في جسده برودة الموت. أسرعت والدته حينئذ بسحب الستائر المخملية وبفتح النافذة، وبذلك كان الهواء البارد قد أنعش ذلك المعذب، ثم بدأ يروي

لخالته قصته الحزينة., وكانت في ذلك الوقت كانت والدته تتفحص بطاقة صغيرة كانت قد سقطت على الأرض عندما تم سحب الستائر، كُتب فيها " السيد سيدني ألكورون بورلي – سان فرانسيسكو". وبذلك كانت تلك البطاقة قد فسرّت كل شيء:

كان كل من العاشقين قد حدّث الآخر أثناء تبادلهما الأحاديث عمن كانوا قد أحبوهما، كما كانا قد أشارا إلى عيوبهم وإلى نقاط ضعفهم، وهذا ما يفعله المحبون دوماً لأنهم يجدون في ذلك شيئاً من البهجة التي تأتي في المرتبة بعد أحاديث المحبة وبعد الغناء.

4

وكانت أمور كثيرة قد حدثت خلال الشهرين التاليين حيث أصبح من المعروف بسرعة بأن روزانا اليتيمة البائسة لم تكن قد ذهبت إلى جدتها في بورتلاند – أوريغون، كما أنها لم تكن قد أرسلت إليها ولا حتى كلمة واحدة، ما عدا نسخة طبق الأصل عن تلك الحاشية المُفجعة التي كانت قد تركتها في المنزل في تلغراف هيل. وبأن من تعيش عنده، هذا لو كانت لا تزال على قيد الحياة، كان ولابد قد اقتنع دون شك بعدم إفشاء سرها، ذلك لأن جميع الجهود التي بُذلت للعثور عليها كانت قد أخفقت. فهل تخلى ألونزو عنها؟ لا!.. ليس هو!.. وإنما كان قد حدث نفسه:

– لابد أنها ستغني تلك الأغنية الرقيقة عندما تكون حزينة وبذلك سوف أعثر عليها...

وكان بذلك قد حمل حقيبته وهاتفه النقال ونفض عنه ثلوج المنطقة القطبية التي كانت موطن ولادته، وسار قُدماً لكي يتجوّل هنا وهناك وفي دول عديدة من هذا العالم بحثاً عن روزانا. كان الغرباء يستغربون شكل ذلك الرجل الضائع الشاحب المرهَق المُبتلى، الذي كان يقصد بعزم جميع مكاتب البرق في الأماكن المنعزلة وأثناء العواصف، لكي يجثم هناك ساعات بكل حزن, أذنه على تلك العلبة الصغيرة.، ثم يهيم من جديد على وجهه وهو يتنهد بكآبة. وكانوا أحياناً يطردونه كما يفعل الفلاحون مع الطيور التي يُخيّل إليهم بأنها خطرة وهائجة، ذلك لأن ملابسه كانت قد أصبحت رثّة، كما كانت نفسيته مُحطّمة لشدة الحزن، لكنه كان مع ذلك يحتمل كل ما يتعرض إليه بكل صبر.

كان في بداية رحلته قد اعتاد أن يقول:
" آه... لو كان بإمكاني فقط أن أسمع أغنية " عما قريب يا حبيبي، عما قريب " إلا أنه في نهاية الأمر كان قد اعتاد على أن يزرف الدموع فقط وعلى أن يتألم ويقول :

– ليت كان بإمكاني أن أسمع ولو أي شيء آخر عنها !

مرّت فترة شهر وثلاثة أسابيع وهو على هذا المنوال، إلى أن قام بعض الأشخاص الذين يتصفون بالإنسانية بالإمساك به وبإيداعه في مصحّة عقلية في نيويورك. لكنه لم يكن مع ذلك قد اشتكى. كانت قدرته قد تلاشت تماماً كما كانت كلّ الآمال قد تلاشت في قلبه...

كان مدير المصّحة على سبيل الشفقة, قد أسكنه في غرفة النوم المريحة الخاصة به، وكان يرعاه بكل محبة وتفانٍ. وبذلك كان المريض قد تمكن في نهاية الأسبوع من مغادرة فراشه المرّة الأولى. تمدّد بوضع مريح على الأريكة، تحت رأسه الوسائد وأخذ يُصغي إلى صوت عصف رياح شهر آذار (مارس) وإلى الصوت المكتوم لوقع الأقدام في الشارع.

كانت الساعة حوالي السادسة مساءً، وبذلك كانت فترة العمل في مدينة نيويورك قد انتهت. كانت تلك الغرفة مُشرقة ومُضيئة في الداخل على الرغم من الظلام الموحش الذي كان في الخارج.، كما كانت مُجهّزة بمدفأة وببعض المصابيح التي من شأنها أن تزيد من بهجتها. وبذلك كان ألونزو ينعم بالدفء، ولم يعد مُعرضاً للرياح العاتية.

ابتسم ألونزو بوهن وهو يفكر بأوهامه العاطفية التي جعلته منه مهووساً أمام العالم، وبينما كان على وشك متابعة سلسلة أفكاره تلك ، خُيل إليه بأنه سمع ,من مكان بعيد جداً, لحناً خفيفاً ورقيقاً أشبه بشبح صوت. ظلت حواسه ساكنة وهو يُصغي إليه بشفتين منفرجتين وبأنفاس مكتومة. وفي الوقت الذي كان فيه ألونزو ينتظر ويستمع كانت ألحان الأغنية لا تزال تنساب.ثم نهض ألونزو فجأة ببطء من مضجعه دون إدراك وهتف:
– أخيراً !... هذا هو لحنها ! هذا هو لحنها! آه.. ما أجمل هذه النغمات السماوية.

ثم جرجر نفسه ببطء ولهفة إلى الزاوية التي كانت تنبعث منها الألحان وسحب إحدى الستائر، وبذلك اكتشف بأن هناك جهاز هاتف. وانحنى عليه في الوقت الذي كان فيه الجزء الأخير من الأغنية قد اختتم. اندفع بسرعة إلى الأمام وهو يهتف :

– شكراً لله، عثرت عليها أخيراً! تحدثي معي روزانا يا أحب الناس إلي! تم اكتشاف ذلك اللغز الرهيب., فذلك الوغد بورلي هو الذي قام بمحاكاة صوتي، وهو الذي تسبب في جرح مشاعرك بذلك الكلام الصفيق.

تلا ذلك فترة انتظار تكاد تكتم الأنفاس كانت قد مرّت بالنسبة إلى ألونزو أشبه بقرن من الترقب , ثم وصل إلى مسامعه في قالب من الكلام صوت ضعيف يقول:

– أهذا أنت ألونزو، كرّر هذه الكلمات الغالية من جديد!

قال ألونزو:

– هذه الكلمات هي الحقيقة، الحقيقة المَحضة، روزانا الحبيبة ! سوف تحصلين على جميع الإثباتات، الإثباتات الوفيرة والعديدة.

– ألونزو، ابق بجانبي، لا تتركني ولو للحظة واحدة ! دعني أشعر بأنك بقربي ! قل لي بأننا لن نفترق أبداً بعد الآن ! هذه ساعة سعيدة، هذه ساعة مباركة، ساعة لا تُنسى!.

– روزانا، سوف ندوّن هذا في سجل، وسوف نحتفل بهذا التاريخ كل عام كلما دقت أجراس الساعة وسوف نشكر الله على ذلك طوال سنوات حياتنا.

– سوف نفعل ذلك، سوف نفعل ذلك ألونزو.

– روزانا، وسوف يكون هذا من الآن فصاعداً في الساعة السادسة وأربع دقائق من كل مساء.

– أي أنها الثانية عشرة والثلاثة والثلاثين دقيقة بعد الظهر.

– لماذا روزانا الحبيبة أين أنت؟

– أنا في هنولولو، في جزر الساندويتش، وأين أنت ؟ ابق معي! لا تتركني ولو للحظة واحدة– لم يعد بإمكاني احتمال ذلك، أأنت في المنزل ؟"

– لا، حبيبتي، أنا في نيويورك وأنا مريض وبين أيدي الأطباء.

حينئذ كانت قد وصلت إلى مسامع ألونزو صرخة ألم حادة أشبه بأنين شخص جريح، لكنها كانت قد فقدت بعض قوتها بالطبع أثناء انتقالها عبر مسافة خمسة آلاف ميلٍ مما جعل ألونزو يُسارع بالقول :

– روزانا، اهدئي طفلتي، هذا لاشيء، فأنا الآن أشعر بالتحسن بوجودك الشافي.
– نعم، ألونزو، كنت قد أخفتني كثيراً! استمر في الكلام.
– تكلمي معي روزانا. حدّدي اليوم السعيد!.

كانت هناك فترة توقف قصيرة، ثم أجابت بصوت لطيف خجول:
– أشعر بالخجل، ولكن هذا من دواعي سروري، هذا من دواعي سعادتي، أتريد أن يكون ذلك عما قريب؟
– ليكن هذه الليلة بالذات روزانا، لا حاجة لأن نخاطر ثانية بالتأجيل ولو لثانية واحدة، ليكن ذلك الآن، هذه الليلة بالذات، هذه اللحظة بالذات !
– أيها المخلوق النافذ الصبر، القليل الاحتمال، ليس لدي هنا سوى عمي العجوز الذي يعمل مُبشراً منذ وقت طويل، والذي ترك مهمته في الوقت الحاضر. لا يوجد هنا سوى هو وزوجته. كنت أتمنى كثيراً لو كانت والدتك وخالتك سوزان هنا.
– روزانا، والدتنا وخالتنا.
– والدتنا وخالتنا سوزان، أنا سعيدة بأن أقول ذلك لو كان يسرك، كنت أودّ حضورهما معنا.
– وأنا كذلك. لو رغبت في إرسال برقية إلى خالتي سوزان، فكم من الوقت سوف تستغرق تلك الرحلة؟ – تستغرق هذه الرحلة عادة ثماني ساعات. سوف تكون هنا في 31 من شهر آذار (مارس).
– روزانا الحبيبة فلتحددي إذن تاريخ الأول من شهر نيسان (إبريل).
– الرحمة ألونزو، سوف يجعلنا شهر نيسان (إبريل) كالمجانين...
– وسوف نكون بذلك أسعد من على الكرة الأرضية، ولكن علينا أن نأخذ حذرنا. حدّدي الأول من شهر نيسان (إبريل).
– فليكن الموعد إذاً هو الأول من شهر نيسان (إبريل)) وهذا من كل قلبي، يا لسعادتي! حدّدي الساعة أيضاً روزانا.
– أنا أحب الصباح، الصباح بهيج، هل تُناسبك الساعة الثامنة ألونزو؟

– سوف تكون تلك الساعة هي الساعة الأجمل من ذلك اليوم لأنها سوف تجعلك تُصبحين لي.

ثم سُمع لبعض الوقت صوت منخفض لكنه كان بذات الوقت صوت شديد الاهتياج، كما لو أن هناك بعض الأرواح التي كانت تتبادل القبل، ثم قالت روزانا:

– عزيزي, اعذرني لدقيقة واحدة، فلدي موعد, وقد استدعيت إليه.

توجهت الفتاة الشابة بعد ذلك إلى البهو العريض الذي بإمكان المرء أن يطلّ منه في الجهة اليسرى على سهل" نويانا " الجميل الذي تفوح منه رائحة الزهور الاستوائية وأزهار الكاكاو اليانعة الجميلة، ذلك السهل بسفوحه المَكسوة بأشجار الكبّاد والليمون والبرتقال. والذي تعود أسطورته إلى الوقت الذي قاد فيه أول "كاميهاميها" خصومه المهزومين إلى الهلاك. كانت تلك المنطقة قد نسيت تاريخها المُروّع دون شك، لأنها في هذه الأيام كانت في غالبية الوقت تبتسم تحت أقواس قزح المتوهّجة. كما كان بإمكان المرء أن يشاهد أمام النافذة مدينة طريفة، تنعم فيها هنا وهناك بالطقس الجميل جماعات من المواطنين الداكني البشرة. وإلى اليمين وفي منطقة أبعد, يمتد المحيط الذي يقذف باستمرار زبده الأبيض في الشمس.

وقفت روزانا هناك بملابسها البيضاء، تنتظر وتذَرّي بالمروحة على وجهها المُتورّد المتوهج إلى أن جاء صبي "كاناكا" يرتدي قبعة حريرية وربطة عنق رثة، وأطلّ برأسه من الباب وقال: – "فريسكوهاولو".

قالت الفتاة وهي تشدّ قامتها وتتخذ وضعاً مهيباً:– دعوه يدخل.

وفي تلك اللحظة دخل السيد سيدني ألغرنون بورلي يكسوه الثلج من رأسه إلى قدميه. وكما يقال, كان في ثيابه القطنية أكثر تألقاً وبياضاً من الثلج. تقدم بلهفة إلى الأمام، لكن الفتاة أشارت إليه بطريقة جعلته يتراجع فجأة وقالت ببرود:

– أنا هنا كما وعدتك، وأنا أصدق مزاعمك، وها قد أذعنت بناء على إلحاحك، وها أنا أعلمك بأنني حدّدت الموعد، حدّدت الساعة الثامنة من صباح الأول من شهر نيسان (ابريل) والآن فلتذهب

من هنا.

– آه، يا غاليتي، لو كان امتناني لك طوال الحياة...

– لا أريد سماع كلمة واحدة. فلتجنبني حتى رؤية وجهك, وجميع الاتصالات معك حتى تلك الساعة. لا، لا توسلات، سوف يكون الأمر هكذا.

ثم كانت روزانا عندما غادرت المكان قد انهارت على كرسي ذلك لأن الحصار الطويل الذي عانته كان قد أوهن قواها وقالت:

– كم كانت النجاة عسيرة ! يا ليت الموعد المحدد كان أقرب. ياللهول! كم كان التخطيط للنجاة صعباً! عندما يخطر ببالي بأنه كان قد خُيّل إلي بأنني أحببت ذلك المخادع المحتال، ذلك الوحش الغادر! سوف يندم على هذه النذالة !..

والآن دعونا نصل إلى نهاية القصة، لم يعد هناك الكثير مما سيقال. ففي الثاني من شهر نيسان (إبريل) كانت صحيفة هونولولو تحتوي على الإعلان التالي :

تم في هذه المدينة، بواسطة الهاتف وفي الساعة الثامنة صباحاً من يوم أمس، وبوجود كل من المُبجل ناثان هايس برفقة المُبجل ناثانيلدافيز في نيويورك، زواج السيد ألونزو فيتز كليرنس – من إست بورت– ماين– الولايات المتحدة الأمريكية، بالآنسة روزانا إثلتون من بورتلاند – أوريغون – الولايات المتحدة الأمريكية. وذلك بحضور السيدة سوزان هاولد من سان فرانسيسكو صديقة العروس التي كانت ضيفة المُبجل السيد هانس وزوجته اللذين هما عم وعمة العروس. وحضر مراسم الزواج أيضاً السيد سيدني ألغرين بورلي من سان فرانسيسكو، إلا أنه لم يمكث إلى نهاية مراسم الزواج. وكان اليخت الجميل للقبطان هاوثورن، الذي تم تزيينيه بذوق رفيع بانتظار العروسين، حيث أبحرت العروس السعيدة وأصدقائها على الفور في رحلة الزفاف إلى لاهينا وهالياكولا.

كما كانت صحيفة نيويورك تايمز أيضاً تحتوي على الإعلان التالي:

تزوج في هذه المدينة يوم أمس، وفي الساعة الثانية والنصف صباحاً ، وبحضور المُبجل ناثانيلديفس ومعاونه المُبجل ناسان هايس من هونولولو، السيد ألونزوفيتزكليرانس من إست بورت–

ماين من الآنسة روزانا إثلتون من بورتلاند – أوريغون. بحضور والدي العروس والعديد من أصدقاء العروس، وقد استمتع الجميع بعد ذلك بكثير من البهجة بحفل إفطار فخم استمر حتى شروق الشمس. وقد غادر اليخت في رحلة زفاف انطلقت إلى حديقة الأسماك لأن صحة العريس لا تحتمل سفره في الوقت الحاضر إلى أبعد من ذلك المكان.

وكانت السيدة والسيد ألونزو فيتز كليرنس في ذلك اليوم التاريخي قد استغرقا في حديث عن مباهج رحلتيهما.، حيث قالت الزوجة الشابة فجأة:

– أووه، لوني، نسيت أن أعلمك بأنني فعلت ما كنت قد أعلمتك بأنني سوف أفعله.
– هل قمت بذلك حبيبتي؟
– نعم، قمت بالفعل بذلك, كما أنني قلت له ذلك أيضاً.

كانت مفاجأة ساحرة ! كان يقف وهو يتصبّب عرقاً في لباسه الرسمي الأسود، ينتظر تزويجه، والزئبق يرشح من أعلى مقياس الحرارة (تعبير مجازي عن ارتفاع درجة حرارته إلى حدّ كبير). كان عليك أن ترى نظرته عندما همست ذلك في أذنه. كلفتني شروره الكثير من الأحزان والكثير من الدموع، لكن تلك الخطة انقلبت عليه، وبذلك كانت تلك الرغبة في الانتقام قد خرجت من قلبي على الفور، حتى أنني كنت بعد ذلك قد رجوته أن يبقى، وقلت له بأنني غفرت له كل شيء لكنه أجابني بأنه سوف يجعل حياتنا لعنة علينا. لكنه لن يتمكن من ذلك، هل سيكون بإمكانه أن يفعل ذلك عزيزي؟

– لا لن يكون بإمكانه ذلك على الإطلاق روزانا.

وهكذا عاشت الخالة سوزان والجدّة الأوريكانية والزوجان السعيدان ووالديهما بكل سعادة. وسوف يبقون هكذا على ما يبدو. وكان للخالة سوزان سعادة اصطحاب العروس من الجزر ومرافقتها عبر القارة، وسعادة حضور ذلك اللقاء الجذل بين الزوج المحب وزوجته اللذين لم يكونا قد اجتمعا حتى تلك اللحظة.

ويكفي أن نقول كلمة واحدة حول ذلك البائس الحقير بورلي الذي كانت أساليبه الشريرة على

وشك إلحاق الأذى بصديقينا الشابين البائسين. كان بورلي أثناء محاولته الإمساك بعامل أعرج من المعوّقين, اعتقد بأنه أساء إليه إساءة صغيرة، قد سقط في مرجل لغلي الزيت، وبذلك كان قد لفظ أنفاسه قبل أن يتم إطفائه أي إنقاذه...

هل كان ذلك الجنة أم الجحيم ؟

1

– أ كذبت؟
– وأنت تعترفين بذلك ــ أنت الآن تعترفين بذلك ــ كنت قد كذبت!.

2

كانت تلك العائلة مؤلفة من أربعة أشخاص: مارغريت ليستر، وهي أرملة في السادسة والثلاثين، وابنتها هيلين وهي في السادسة عشر، ومن خالتيّ هيلين التوأم غير المتزوجتين حنا وإستر غراي، وهما في سن السابعة والستين.

كانت النسوة الثلاث تُمضين أوقاتهن طوال الليل والنهار، هنّ نائمات وهنّ مستيقظات، بالتغزل بتلك الفتاة الشابة. وبالنظر إلى ما تعكسه روحها الطيبة على مرآة وجهها، وبإنعاش قلوبهن برؤية تفتح نضارتها وجمالها، والاستماع إلى موسيقى صوتها. وكنّ تعترفن بكل امتنان بقدر غنى وجمال العالم بوجودها فيه، وترتعدن خوفاً من مجرد التفكير بمقدار ما قد يكون العالم مقفراً لو غادره ذلك

الضياء الذي تغمر به منزلهن.

الخالتان بفطرتهما وفي أعماقهما من النوع المُحب والطيب جداً، لكن تصرفهما بما يتعلق بموضوع الأخلاق كان متزمّتاً ومتشدّداً، مما جعل مظهرهما الخارجي يبدو صارماً أيضاً، هذا إن لم نقل بأنه كان يبدو قاسياً. كان تأثيرهما شديد الفعالية في المنزل., وإلى الحدّ الذي جعل كل من الأم والابنة تتكيفان بمتطلباتهما الأخلاقية والدينية، بكل سرور وسعادة ورضى ودون نقاش، وبحيث أصبح التزامهما بذلك طبيعة ثانية فيهما. لذا لم تكن في تلك الجنة الهادئة أية تصادمات أو توترات أو انتقادات أو مآسي.

لم يكن في حياتهن أي مكان للأكاذيب، كما لم يكن هناك حتى من قد يفكر بالكذب، كان الكلام في ذلك المنزل يقتصر على الحقيقة المُطلقة، الحقيقة ذات الحدّ الحديدي، الحقيقة التي لا يوجد فيه أي تسامح، الحقيقة التي لايوجد فيه أي تساهل، الحقيقة التي لا يوجد فيه أي حلّ وسط مهما كانت النتائج التي قد تنجم عن ذلك.

لكن حبيبة المنزل كانت في آخر الأمر، وتحت ضغط الظروف، قد لطخت شفتيها ذات يوم بكذبة ــ ثم اعترفت بذلك، اعترفت بذلك وهي تزرف الدموع وتلوم نفسها بكل قسوة.

وليس هناك من كلمات قد تُصوّر ما كانت فيه الخالتان من هلع. كان الأمر بالنسبة إليهما كما لو أن السماء قد تكوّمت وانهارت وكما لو أن ارتطام قوي قد حطم الأرض وحوّلها إلى خراب. جلستا جنباً إلى جنب شاحبتين صارمتين تُحدقان بصمت بتلك المذنبة التي كانت راكعة أمامهما، تدفن وجهها في حجر الواحدة ثم في حجر الأخرى، وهي تتأوه وتتشنج وتطلب التعاطف والغفران., ولكن دون أن تلقى منهما أي تجاوب، ثم تُقبل يدّ الواحدة وتُقبّل يدّ الأخرى بكل تذلّل، لكي تجدها تسحبها من بين شفتيها وكأنها قد تتلوث بتلك الشفتين المُلطختين.

وكانت الخالة استر خلال ذلك قد قالت لها مرتين على التوالي بكل برود وبالكثير من الاستغراب:

- أكذبت ؟

ثم أتبعت الخالة حنا ذلك مرّة بعد مرّة همهمة بكلام يُعبّر عن الدهشة:
– وأنت تعترفين بذلك، أنت تعترفين الآن بذلك، لقد كذبت!

كان ذلك كل ما بإمكانها أن تقولانه ذلك لأن الموقف كان جديداً عليهما.، لم يسبق أن سمعتا به، وهو أم غير قابل للتصديق , أمر لم يكن بإمكانهما أن تتفهمانه، ولم يكن بإمكانهما أيضاً أن تجدا الأسلوب المناسب لمعالجته، مما جعل الحديث بينهما شبه مشلول.

ثم قررتا أخيراً بأن عليهما اصطحاب الطفلة الآثمة إلى والدتها المريضة التي يجب أن تأخذ علماً بما جرى.

توسلت إليهما هيلين وتضرّعت ورجتهما تجنيبها ذلك الخزي الإضافي، وتجنيب والدتها ما سوف يتسبب به ذلك من الأسى والحزن، ولكن دون جدوى. الواجب يتطلّب هذه التضحية.، وللواجب أولويته على جميع الأمور الأخرى.، وليس هناك ما يمكن أن يُحلّ من أداء الواجب.، ومن المستحيل المساومة على الواجب.

ظلت هيلين تتوسل، والت بأن الذنب كان ذنبها، وبأنه لا يدّ لوالدتها في ذلك ــ ولِم سيكون على والدتها أن تُعاني بسبب ما ارتكبته هي؟

لكن الخالتين كانتا قاسيتين في استقامتهما، وقالتا بأن القانون يقول بأن الأخطاء تنتقل من الأهل إلى الأولاد وبالعكس، وبناء على ذلك فمن العدل أن تكون للأم حصتها العادلة من الحزن والألم والخزي التي هي من عواقب الإثم. وبذلك توجهت الثلاث نحو غرفة المريضة.

وفي ذلك الوقت كان الطبيب قد بدأ يقترب من المنزل، لكنه على أية حال، كان لا زال على مسافة بعيدة نسبياً عنه. هو طبيب جيّد ورجل صالح طيب القلب، إلا أن المرء قد يحتاج لمدة عام كامل للتغلب على كراهيته له، وإلى عامين لكي يتمكن من احتماله، ولأربعة أو خمسة أعوام لكي يتعلّم كيف يحبه. وتلك هي دون شك عملية شاقّة لكنها تستحق المحاولة.

كان ذلك الطبيب من ذوي القامات الضخمة, له رأس أسد ووجه أسد، وله صوت خشن

ونظرة تتغير وفق المزاج الذي يكون فيه، فهي تارة قد تشبه نظرة قرصان وتارة أخرى قد تشبه نظرة امرأة. لم يكن يعرف شيئاً عن آداب التعامل، ولم يكن يأبه لذلك على الإطلاق، سواء أكان ذلك في أسلوب حديثه أو في سلوكه أوفي مِشيته أوفي تصرفه الذي يُناقض تماماً السلوك التقليدي المُتعارف عليه. كان صريحاً إلى أبعد الحدود، وله آراءه الخاصة حول جميع الأمور.، وهو على استعداد دائم لأن يُصرّح بتلك الآراء دون أن يأبه على الإطلاق فيما إذا كان من يستمعون إليه سيتقبّلون تلك الآراء أم لا.

كان يُحب من يُحبهم ويُعبّر عن ذلك، أما من لا يحبهم فهو يكرههم ويصرّح بذلك على رؤوس الأشهاد. كان ذلك الطبيب أيام شبابه بحاراً عصفت به جميع رياح البحار المالحة، وكان قوي الإيمان، يعتقد بأنه الشخص الأفضل على الأرض، وبأنه الشخص الوحيد الذي كانت مسيحيته صادقة، صائبة، ومنطقية تماماً، لا يوجد فيها ماهو بالٍ., لذا كان الأشخاص الذين لديهم بعض المصالح معه، وكذلك الأشخاص الذين لديهم أية أسباب قد تجعلهم يرغبون بأن يكونوا معه في الجانب الجيّد، يُلقّبونه " بالمسيحي" وهي عبارة المديح اللطيفة التي كان لها وقع الموسيقى على أذنيه، والتي كانت تسميته بها من الأمور الفاتنة والحيوية بالنسبة إليه مما يجعله قد يشاهدها عندما تخرج من فم الشخص حتى لو كان ذلك في الظلام...

كان الكثيرون ممن يحبونه يخالفون ضمائرهم ويُلقبونه عادة وبكل جرأة بذلك اللقب الكبير، وكان من دواعي سرورهم أن يفعلوا كل ما من شأنه أن يُرضيه في هذا العالم.، بينما قامت الجماعة الكبيرة من أعدائه ومن حسّاده قد موّهت تلك العبارة بخبث ووسعتها إلى عبارة "المسيحي الأوحد". وكان اللقب الأخير من بين هذين اللقبين، هو اللقب الأكثر تداولاً وانتشاراً ذلك لأن غالبية من حوله كانوا من الأعداء...

كان ذلك الطبيب صادقاً بكل بما يؤمن به، وكان على استعداد لأن يكافح لأجله كلما سنحت له الفرصة لذلك.، ولو تباعدت الفترات الزمنية بين تلك الفرص.، لكان ذلك الطبيب سيختلق تلك الفرص بنفسه.. كان حيّ الضمير ولكن بشكل مُتعنّت بحيث يتوقف ذلك على آرائه الشخصية المُستقلة فقط .. وبذلك كان يقوم بكل ما يعتقد بأن من واجبه القيام به، سواء أكان ذلك متوافقاً مع أحكام علماء الأخلاق، أو حتى لو كان في ذلك ما قد يناقض آراءهم.

كان عندما عمل في الملاحة في فترة شبابه ، يتحدث بلغة البحارة، لكنه بعد أن اهتدى كان قد التزم بقاعدة واحدة وتقيّد بها وهي بألا يستخدم إطلاقا تلك اللغة. كما كان يشرب بإفراط، لكنه بعد أن اهتدى أصبح الشخص الذي يمتنع بكل ثبات عن جميع المُسكّرات لكي يصبح مثالاً يُقتدى به

لجميع الشبان. لذا فمن الطبيعي أن يكون مثل ذلك الرجل من النوع الانفعالي، المندفع والعاطفي، وهذا ما كان عليه.....

لم تكن لديه موهبة إخفاء مشاعره. أو أنه لم يكن بالأحرى يبذل أي جهد لإخفاء مشاعره أو للتعبير عنها حتى لو كانت لديه بعض المشاعر، وإنما كان كل ما يشعر به يظهر بوضوح على سِمات وجهه. لذا فلو دخل ذلك الطبيب إلى إحدى الغرف، فإما أن ترتفع فيها المظلات الواقية من المطر، أوأن ترتفع فيها المظلات الواقية من الشمس وذلك بما يتوافق مع انعكاس مشاعره في تلك اللحظة. ولو أشرق ذلك الضوء المريح في عينيه فسوف يعني ذلك الرضى والتأييد , وسوف يوحي بمنح البركة، وأما عندما كانت تعلو جبينه تقطيبه فهذا ما سوف يجعل الحرارة تنخفض على الفور وبمعدل العشر درجات. كان محبوباً جداً في عائلته وبين أصدقائه، لكنه مع ذلك قد يكون في بعض الأحيان من الأشخاص المُفزعين.

كان ذلك الطبيب يُكن عاطفة عميقة لعائلة ليستر, كما كان العديد من أفراد تلك العائلة يُبادلونه ذات الشعور، رغم أنهم كانوا يأسفون لأسلوب تفكيره بالنسبة للأمور الدينية.,وكان من جهته يهزأ وبكل صراحة من أسلوب تفكيرهم، ولكن لم يكن كل ذلك من شأنه التأثير على ما يتبادله الطرفان من ذات مشاعر المحبة.

كان الطبيب قد أصبح بالقرب المنزل في الوقت الذي كانت فيه الخالتان والمذنبة تتوجهان إلى غرفة المريضة.

3

وقفت الثلاث اللاتي ورد ذكرهن بجانب سرير المريضة. كانت الآثمة تبكي برفق، بينما كانت علامات الصرامة تبدو على الخالتين. وعندما استدارت الأم البائسة برأسها على الوسادة وشاهدت طفلتها, اتقدت عيناها المتعبتان بتعاطف ومحبة الأمومة وفتحت لها على الفور حِمى ومَلاذ ذراعيها.

لكن حنا مدت يدها وانتزعت الفتاة من بين ذراعي والدتها وقالت: – انتظري.
ثم قالت الخالة الأخرى على نحو مؤثر:
– هيلين، اروي لوالدتك كل شيء. طهري روحك. اعترفي بكل شيء ولا تُغفلي أي أمر.

وقفت الفتاة البائسة مشدوهة أمام قُضاتها وسردت لوالدتها قصتها الحزينة إلى نهايتها ثم بدأت تناشدها بحرارة :
– آه ! أمي أليس بإمكانك أن تسامحيني؟ ألن تسامحينني؟ ــ أنا بائسة للغاية !
قالت الأم: – حبيبتي، أتسألين فيما إذا كنت أسامحك؟ تعالي إلى ذراعي! ضعي رأسك هنا على صدري واهدئي حتى ولو كنت قد رويت آلاف الأكاذيب !.

وفي تلك اللحظة، سُمع صوت من مدخل الغرفة ــ صوت تحذيري ــ صوت تنظيف حنجرة. رفعت الخالتان نظريهما وعندما شاهدتا ذلك الطبيب ارتجفتا داخل ملابسهما (تعبير مجازي) ــ كان الطبيب واقفاً هناك تكسو وجهه غيمة غضب، بينما ظلّت الأم والابنة اللتان لم تشعرا بعد بوجود الطبيب، متعانقتين قلباً تجاه قلب، مستغرقتين باطمئنان لا حدود له وغافلتين عن جميع الأشياء الأخرى.

وقف الطبيب للحظات مُحملقاً بكآبة بالمشهد الذي كان يراه أمامه, وكأنه يدرس الموقف ويحلّله ويفتش عن أسباب حدوثه. ثم رفع يده وأشار إلى الخالتين. أتت إليه الخالتان وهما ترتجفان ووقفتا أمامه بكل استكانة, تنتظران. انحنى الطبيب نحوهما وهمس:

– ألم أكن قد أعلمتكما بأنه يجب تجنيب هذه المريضة جميع الانفعالات ؟ ما الذي قمتما به الآن بحق الجحيم ؟ أخليا المكان على الفور!.

أطاعتاه. وعندما ظهر الطبيب في البهو بعد نصف ساعة، كان هادئاً مبتهجاً ويبدو عليه الحبور. كان يقود هيلين وقد أحاط خصرها بذراعه وهو يُربت عليها ويتحدث معها بلطف ويُمازحها., كما كانت هيلين أيضاً قد عادت من جديد إلى إشراقها وسعادتها ثم قال:

– وداعاً الآن حبيبتي، اذهبي إلى غرفتك، ابتعدي عن والدتك وتصرّفي بشكل لائق. ولكن

انتظري ــ أخرجي لسانك. هوذا، سوف تسير الأمور جيّداً فأنت سليمة كالبندقة.
ثم رَبت على خدها وأضاف:

– اذهبي الآن وبسرعة، أريد التحدث مع هاتين الخالتين.

بعد أن اختفت هيلين عن ناظريه.، اكفهّر وجه الطبيب من جديد وعلى الفور ثم جلس وقال:

– لقد تسببتما بتصرفكما الجنوني ذاك بضرر كبير. ولكن قد تكونا قد تسببتما أيضاً بما هو جيّد. نعم، ربما تسببتما بشيء جيّد ومفيد . هذا هو الأمر: تلك المرأة مريضة بالحمى التيفية (التيفوس)، على ما أعتقد وقد تسببتما بتصرفكما في الكشف الآن عن ذلك، يُعتبر هذا الأمر بحدّ ذاته من المساعدة، فلم يكن بإمكاني في السابق أن أحدّد ماهية المرض.

وثبت السيدتان معاً بردّة فعل عفوية وهما ترتجفان لشدة الخوف.
– اجلسا، ما الذي تنويان القيام به؟
– أتسألنا عما سنقوم به ؟ علينا أن نَسرع إليها، وعلينا أن...أن...
– لن تقوما بشيء من هذا القبيل، فقد تسببتما خلال يوم واحد بما يكفي من ضرر. هل تريدان تبديد كل ما لديكما من رأسمال الجرائم والجنون دفعة واحدة ؟ اجلسا. اعلما بأنني عملت الآن على أن تنام فهي تحتاج إلى ذلك. ولو تسببتما بإزعاجها دون توجيهات مني، فسوف أسحق جمجمتيكما (تعبير مجازي) هذا لو كان لديكما فيها بعض العناصر.

كانت الخالتان أمام ذلك القسر قد جلستا بإذعان وهما في حالة من اليأس والسخط، لكنهما أطاعتاه. تابع الطبيب كلامه: – والآن، أريد منكما أن توضحا لي كِنهَ القضية. كانت هيلين ووالدتها قد رغبتا بشرحها لي، كما لو أن ليس لديهما ما يكفيهما من توتر وانفعال . سبق وأعطيتكما تعليماتي، فكيف تجرأتما على الذهاب إلى هناك وعلى إحداث ذلك الشَغب؟

نظرت إستر إلى حنا لكي تستشهد بها، وقابلتها حنا بنظرة تضرّع، فلم تكن إحداهما ترغب في الرقص على أنغام الفرقة الموسيقية لمزاجه غير الملائم (تعبير مجازي)، ثم بادر الطبيب إلى مساعدتهما بالقول: – ابدئي إستر !

قالت إستر بحياء وهي تلعب بأصابعها بشرا شيب شالها :

– لم نكن لنخالف التعليمات لسبب عادي، لكن الأمر كان حيوياً. وكان ما قمنا به من الواجب. لا خيار للمرء أمام الواجب. على المرء أن يضع جميع الاعتبارات الأقلّ أهمية جانباً وأن يؤدي الواجب.لذا كنا قد اضطررنا إلى استدعاء هيلين واستجوابها أمام والدتها لأنها كذبت.

حَملق الطبيب بتلك المرأة للحظة. كان يبدو كما لو أنه يحاول استيعاب المعنى الكامل لتلك العبارة غير المفهومة، ثم انفجر بالقول:

– أكذبت؟ هل فعلت ذلك؟ فليسامحني الله! فأنا أقول مليون كذبة في اليوم الواحد! وهذا ما يفعله كل طبيب. وهذا ما يفعله الجميع ــ بما فيهم أنتما ــ أكان تصرفكما لمثل ذلك الأمر؟ أهذا هو الموضوع الذي سمحتما لنفسيكما لأجله بالمجازفة بعصيان أوامري وبتعريض حياة تلك المرأة للخطر؟... إسترغراي! انظري إلي، هذه هي الحماقة بعينها، لايمكن أن تكون تلك الفتاة قد كذبت بقصد الإساءة لأحد. هذا أمر مستحيل، مستحيل تماماً، وأنتما تعرفان ذلك ، كل منكما تعرف ذلك جيداً.

بادرت حنا إلى نجدة شقيقتها:

– لم تقصد إستر بأنها تلك الكذبة كانت من ذلك النوع من الكذب، وهي لم تكن كذلك بالفعل. لكنها كانت كذبة.

– جيّد، أقسم بشرفي، بأنه لم يسبق لي أن سمعت بمثل هذا الهراء! أليس لديكما ما يكفي من منطق للتمييز بين الكذبة التي تُساعد والكذبة التي تؤذي؟

قالت حنا وكانت قد زمّت شفتيها بأسلوب المرأة الحكيمة:

– جميع الأكاذيب خطيئة. جميع الأكاذيب محظورة.

تململ ذلك "المسيحي الأوحد" في كرسيه بضجر. كان يرغب بالتحامل على تلك العبارة، لكنه لم يتمكن من معرفة لا كيف ولا من أين عليه أن يبدأ بذلك على وجه التحديد، ثم جازف أخيراً بالقول:

– إستر، ألن تكذبي لأجل حماية شخص سوف يتعرض للأذى أو للعار؟
– لا
– ولا حتى لأجل أحد الأصدقاء؟
– لا
– ولا حتى لأجل أعز الأصدقاء؟
– لا، لا، لن أقوم بذلك.

حاول الطبيب بصمت ولفترة قصيرة أن يتأقلم مع الموقف ثم سأل:
– ولا حتى لإنقاذه من ألم مرير ومن شقاء وحزن؟
– لا، ولا حتى لإنقاذ حياته؟

ثم تلا ذلك فترة توفق قصيرة أخرى قال الطبيب بعدها:
– ولا حتى لإنقاذ روحه؟
كانت هناك فترة صمت دام لفترة قياسية. أجابت بعدها إستر بصوت خافت ولكن بتصميم:
– ولا حتى لإنقاذ روحه.
لم يتكلم أحد لفترة. ثم قال الطبيب :
– وهل الأمر كذلك بالنسبة إليك حنا ؟
أجابت:
– نعم
– أريد أن أسأ لكما معاً لماذا؟
– لأن التفوّه بمثل تلك الكذبة، ولأن أية كذبة خطيئة بإمكانها أن تتسبب خسارتنا لأنفسنا، وسوف يكون الأمر كذلك بالفعل لو متنا قبل أن يكون لدينا ما يكفي من وقت للتوبة.
– غريب... غريب... هذه معتقدات بالية.

قال الطبيب بفظاظة:
– ألا تستحق مثل تلك الروح الإنقاذ؟ ثم نهض ثم توجّه نحو الباب وهو يتعثر ويُتمتم، إلا أنه كان قد استدار أمام عتبة الباب, وتفوّه بكل اندفاع بهذا التحذير:
– أصلحا نفسيكما!.. تخلّيا عن هذا التكريس الدنيء الأناني والوضيع في إنقاذ روحيكما

الوضيعتين، وابحثا عن أمر آخر تقومان به قد يكون له بعض الرِفعة ! جازفا بروحيكما، عرّضاهما للخطر لأجل القضايا الإنسانية، ولِم سيكون عليكما أن تهتما لو حدث وخسرتما نفسيكما لأجل ذلك! أصلحا نفسيكما!..

جلست السيدتان المُسنتان الطيبتان بعد خروجه مشلولتي الحركة، مسحوقتين، مُهانتين، تُطيلان التفكير بمرارة وسخط بذلك الكلام الذي تسبب بجرح في قلبيهما، والذي يعتبر بمثابة الكفر بالله. ثم قالتا بأنه لن يكون بإمكانهما أبداً أن تغفرا لذلك الطبيب تلك الإهانات.

"أن تُصلحا نفسيهما!..."

واستمرتا في ترديد تلك الكلمة بامتعاض " أن يكون عليهما أن تُصلحا نفسيهما بأن تتعلما الكذب!..."

إلا أن التغيير كان قد حدث في نفسيهما مع ذلك وفي الوقت المناسب., وذلك بعد أن أنجزتا الواجب الإنساني الأول للمرء, وهو الواجب الذي يَكمن في تفكير المرء في نفسه إلى أن يكون قد استنفذ الموضوع، بحيث يصبح بالوضع الذي يُتيح له التفكير بالمصالح الثانوية الأخرى، وبالتفكير بالآخرين.

وكان هذا ما أدى إلى تغيير تام وشامل في أسلوب تفكيرهما. وبذلك وجّهتا تفكيرهما من جديد إلى ابنة شقيقتهما، وإلى ذلك المرض المُفزع الذي ابتليت به. نسَيتا على الفور ما كان قد جرح كرامتهما، وتصاعدت في قلبيهما الرغبة الملحّة في مساعدة تلك المتألمة، وفي محاولة تعزيتها بمحبتهما، وفي مد يدّ العون إليها وفي القيام بكل ما بإمكان أن تُقدمه أيديهما الضعيفة. كانتا على استعداد لأن تُنهكا جسميهما الهرمِين في خدمتها بكل سرور وبكل محبة، فيما لو تم منحهما ذلك الامتياز.

حيث قالت إستر والدموع تسيل على خديها :

– سوف يكون بإمكاننا القيام بذلك، فليس هناك من بين الممرضات من يمكن أن تُقارن بنا. ليس هناك من لديهن الاستعداد للوقوف بجانب سرير المريضة ولرعايتها بمحبتهّن حتى لو كنّ ستسقطن من شدة التعب وتموتن، ويعلم الله بأننا سوف نفعل ذلك.

قالت حنا وهي تبتسم من خلال الغشاوة التي غطت نظارتها، إشعاراً بالموافقة وبالمصادقة على كلام شقيقتها:

– آمين، هذا الطبيب يعرفنا وهو يعلم بأننا لن نخالفه مرة أخرى، وبذلك لن يستدعي أشخاصاً آخرين، لن يجرؤ على ذلك.

قالت إستر بانفعال وهي تمسح دموعها بسرعة :

– ألن يجرؤ على ذلك ؟ بلى، ذلك الشيطان سيجرؤ على فعل أي شيء! وهناك القوانين!اولة لن تفيده هذه المرّة. وهناك القوانين!

قالت حنا:

– على الرغم من كل ما قاله وكل ما فعله هو طبيب موهوب وحكيم وطيّب القلب، ولن يخطر بباله مثل ذلك الأمر. لابد بأن الوقت قد حان لأن تذهب إحدانا إلى الغرفة. ما الذي يستبقيه هناك؟ ولِم لا يأت إلينا ويقول لنا ذلك؟

ثم وصل إلى مسامعهما فجأة صوت اقتراب وقع أقدامه. دخل وجلس وبدأ يتحدث:

– مارغريت امرأة مريضة وهي لاتزال نائمة، لكنها سوف تستيقظ الآن. لذا يجب أن تذهب إحداكما إليها. سوف تسوء حالتها قبل أن تتحسن وسوف يكون ذلك عن قريب جداً مما سيستوجب اتخاذ الترتيبات للمناوبة في السهر عليها ليلاً ونهاراً. ما هو مقدار ما سيكون بإمكان كل منكما أن تأخذه على عاتقها؟

انفجرتا معاً وعلى الفور بكلمة " كل شيء !"

لمعت عينا الطبيب وقال بحماس:

– يبدو عليكما الصدق والإقدام. وبأنكما ستقدمان لها كل ما سيكون بإمكانكما تقديمه من رعاية طبية. وأنا أعلم بأن بإمكانكما القيام بذلك، وبعدم وجود من بإمكانه أن يجاريكما في هذا الأمر في ذلك المكتب الرائع في البلدة (سخرية مُبطنة). ولكن لن يكون بإمكانكما القيام بكل شيء، لذا سوف يكون من الإجرام أن نترككما تقومان بمفردكما بكل شيء.

كان ذلك بالنسبة إليهما, بما أنه جاء من ذلك المصدر، مديحاً رفيعاً, مديحاً رائعاً من شأنه أن يمسح تقريباً كل ما كان في قلب التوأمين العجوزين من استياء. ثم استطرد الطبيب قائلاً:

– سوف تقوم خادمتكم تيلي ونانسي العجوز التي تعمل لدي بباقي الأمور. ــ كمارضات الجيّدات، قلوب بيضاء في بشرة سوداء،هنّ يقظات مُحبات وعطوفات ــ ممرضات مثاليات تماماً! ــ كما أنهن كاذبات مؤهلات منذ المهد! أما أنتما فسوف يكون عليكما الاستمرار برعاية هيلين قليلاً.، هي مريضة وسوف تكون كذلك.

بَدت بعض الدهشة على السيدتين، لكن السذاجة لا تعني سرعة التصديق. لذا قالت له إستر:

– كيف حدث ذلك ؟ لم تمر بعد ساعة واحدة على ما قلته لنا بأنها تبدو سليمة الجسم كالبندقة.

أجاب الطبيب بهدوء:

– كانت تلك كذبة!...

استدارت السيدتان إليه بسخط. ثم قالت حنا:

– كيف بإمكانك أن تُدلي بمثل هذا الاعتراف، بهذه الطريقة، وبهذه اللهجة غير المُبالية، وأنت تعلم كيف نشعر حول جميع أشكال ال "....."

– اصمتا! لستما سوى قطتين جاهلتين. أنتما لا تُدركان عما تتحدثان عنه. أنتما مثل باقي حيوانات الخُلد الأخلاقية. أنتما تكذبان من الصباح إلى المساء، ولكن لأنكما لا تفعلا ذلك بأفواهكما وإنما بعينيكما الكاذبتين, فأنتما بأكاذيبكما الملتوية وتشكيكما المُضلّل وإيماءتكما الخدّاعة التي هي في غير محلها، تُديران أنفيكما برضى، وتتظاهران بالورع والعفّة أمام الله وأمام العالم وبأنكما "المتحدثتان بالحقيقة" وبأن قلبيكما قد يتجمدا إلى درجة الموت لو دخلتهما كذبة واحدة! لِم عليكما أن تخدعا نفسيكما بمثل ذلك المفهوم الجنوني؟ بأن الكذبة لن تكون كذبة إن لم يتم التلفّظ بها؟ وما هو الفارق بين الكذب بالعينين والكذب بالفم؟ لايوجد أي فارق بينهما...

لو فكرتما للحظة واحدة لوجدتما بأن الأمر يتم هكذا. فليس هناك من بين البشر من لم يتحدث أثناء حياته بعدد هائل من الأكاذيب. وأنتما ــ في الحقيقة– تقولان فيما بينكما ثلاثين ألف كذبة، ومع ذلك فأنتما تنفجران هنا برعب زائف منافق لأنني كذبت على تلك الطفلة كذبة غير آثمة بقصد فعل الخير، لكي أحميها من الهواجس ومن مخيلتها التي قد تبدأ بالعمل مما سوف يُلهب

دماغها خلال ساعة واحدة إلى درجة الحمّى. فلو كنت قد خنت واجبي بما يكفي لأن أفعل ذلك.. فهذا ما سوف أفعله دون شك لو كنت أهتم بإنقاذ روح بمثل تلك الأساليب التي تعتبرانها سيئة.

– تعاليا، دعونا نفكر معاً بعقلانية، دعونا نتمعن في التفاصيل. ما الذي كنتما ستفعلانه لو علمتما بأنني قادم في الوقت الذي كنتما فيه تُثيران ذلك الشغب في غرفة المريضة؟

– حسناً، ماذا؟

– كنتما ستتسللان وتصطحبان معكما هيلين. ألن تفعلا ذلك؟

صمتت السيدتان وتابع الطبيب: – وما الذي سيكون هدفكما ونيّتكما من القيام بذلك؟

– حسناً، ماذا؟

– كنتما ستهدفان إلى منعي من الاطلاع على ذنبيكما، كنتما تريدان تضليلي لكي أعتقد بأن سبب توتر مارغريت قد نتج عن سبب آخر لا علم لكما به. وبكلمة واحدة كنتما قد كذبتما ــ كذبة صامتة.– ولكنها قد تكون مع ذلك كذبة مؤذية.

تلوّن وجه التوأمين لكنهما لم تتكلما.

أنتما لا تتفوّهان فقط بعدد ضخم من الأكاذيب الصامتة، وإنما تكذبان أيضاً بأفواهكما.

– ليس الأمر كذلك.

– الأمر كذلك، ولكن ما تقولانه في مثل تلك الأكاذيب هو من الأكاذيب غير المؤذية وإنما هي من الأكاذيب التي قد تكون أحياناً بهدف فعل الخير أو لإنقاذ روح فأنتما لا تنويان بالطبع وعلى الإطلاق التفوّه بأية كذبة مؤذية. أتعلمان بأن كل ذلك عبارة عن تنازل وبأنه شيء مُسلّم به وبأنه بمثابة الاعتراف؟

– ما الذي تقصده؟

– هذا يدلّ على تنازل غير مقصود منكما دون وعي، بأن الكذب غير المؤذي ليس بجريمة, وهو اعتراف دائم تقومان به وباستمرار بوجوب التمييز بين نوعي الكذب.

فعلى سبيل المثال، كنتما في الأسبوع الماضي قد رفضتما دعوة العجوز السيدة فورستر لكي تستقبلا تلك الصديقات البغيضات "هيجبنز" على العشاء. فعلتما ذلك بموجب ملاحظة صغيرة عبرّتما بموجبها عن أسفكما لعدم إمكانية مجيئكما. تلك كانت أشبه بكذبة كاملة حتى لو لم يتم التلفظ بها، فلتتكري ذلك الآن إستر بكذبة أخرى!..

أجابت إستر بهزّة من رأسها.
– هذا غير مقبول، أجيبي، هل كانت كذبة أم لم تكن كذبة؟

هرب اللون من خدي المرأتين، لكنهما بعد جهد جهيد اعترفتا بذلك بأن قالتا:
– نعم , كانت تلك كذبة ! "
– جيّد، جيّد، ها قد بدأ التحوّل أو لنقل ها قد بدأ الإصلاح، هناك أمل بالنسبة لكليكما. فأنتما لن تكذبان لإنقاذ نفس أعز أصدقائكما لكنكما ستكذبان دون تردد لإنقاذ نفسيكما من مشقة قولكما أية حقيقة بغيضة " ثم نهض.

قالت إستر ببرود وهي تتكلم عن الاثنتين:
– نعم, كنا قد كذبنا ونحن ندرك ذلك، لكن هذا الأمر لن يحدث ثانية. الكذب خطيئة.، ولن نكذب كذبة أخرى ومن أي نوع كانت من الأكاذيب ومهما كان، حتى لو كانت تلك كذبة مجاملة، أو كذبة بسبب النزعة إلى الخير، أو كذبة لإنقاذ شخص من الألم أومن حزن قد يبتليه به الله.
– أووه..، كم ستقعان في الخطأ بسرعة ؟ ها أنتما قد وقعتما الآن بالفعل في الخطأ ذلك لأن ما تفوهتما به الآن بالذات عبارة عن كذبة أيضاً. وداعاً، أصلحا نفسيكما ! ولتذهب إحداكما الآن إلى غرفة المريضة.

بعد اثنا عشر يوماً.

كانت الأم والابنة تعيشان في قبضة ذلك المرض الشنيع. ولم يعد هناك بالنسبة لكليتهما سوى القليل جداً من الأمل . كما كانت علامات الإرهاق والشحوب تبدو على الشقيقتين المُسنتين، لكنهما لم تتخليا عن مهامهما. كان قلبيهما ينفطران لكنهما كانتا تعملان بعزيمة وإخلاص ودون توانٍ.

كانت الأم طوال تلك الفترة تتوق إلى رؤية الطفلة، كما كانت الطفلة تتوق إلى رؤية الأم. لكن كل منهما كانت قد أُعلمت بأن ليس لتلك الرغبات المُلحّة أن تتحقق. كما أن الأم كانت منذ اليوم الأول الذي أعلمت فيه بأن مرضها هو الحمى التيفية (التيفوس)، قد سألت فيما إذا كانت هناك خطورة من أن تكون العدوى قد انتقلت إلى هيلين في اليوم السابق عندما كانت في غرفتها أثناء زيارة الاعتراف. وكانت إستر قد قالت لها بأن الطبيب قد نفى الفكرة . كان ذلك ما جعلها تشعر حينذاك ببعض الاضطراب لما أقدمت على قوله، رغم أنها كانت الحقيقة، ذلك لأنها لم تكن في الواقع قد صدّقت ذلك الطبيب.إلا أن ما شعرت به من عذاب الضمير كان قد تضاءل عندما شاهدت فرحة الأم بتلك الأنباء ــ وكانت تلك النتيجة قد جعلتها تخجل من الكذبة التي لفقتها، لكنها لم تكن دون ريب تشعر بما يكفي من خجل قد يجعلها تمتنع عن تكرار ذلك.

كانت المرأة المريضة منذ اللحظة التي علمت بها بأن على ابنتها أن تبقى بعيدة عنها، قد قالت بأنها سوف تعُزّي نفسها قدر الإمكان، فهي تفضّل أن تموت على أن يُهدد الموت حياة ابنتها.
إلا أن الحقيقة كانت أن هيلين كان عليها بعد ظهر ذلك اليوم أن تأوي إلى فراشها مريضة، كما أن حالتها كانت قد ساءت أكثر أثناء الليل.

كانت الأم في صباح اليوم التالي قد سألت عن ابنتها:
– أهي بخير؟

حينئذ سَرت برودة في إستر وفتحت شفتيها، لكن الكلمات لم تكن لتخرج منها... وظلت الأم التي كانت مستلقية على فراشها، واهنة، مُستغرقة في أفكارها، تنتظر الإجابة.، ثم شحب وجهها فجأة واستدارت نحو خالتها وقالت وهي تلهث:
– يا إلهي، ما الأمر أهي مريضة ؟

تصاعد العصيان في القلب المعذب للخالة المسكينة، ثم جاءت الكلمات التالية:
– ل.. لا ــ فلتشعري بالراحة، هي بوضع جيّد.

حينئذ قالت الأم المريضة بكل ما كان في قلبها السعيد من امتنان:
– شكراً لله على هذه الكلمات الغالية! قبليني خالتي. كم أقدّرك لك ما قلت لي.

وعندما روت إستر تلك الواقعة إلى شقيقتها حنا كانت قد استقبلتها بنظرة لوم وقالت لها ببرود:
– أختي, هذه كذبة!.

ارتجفت شفتا إستر لشدة الإشفاق وكتمت نشيجها وهي تقول:
– آه ! حنا أنا أعلم بأنها خطيئة، لكنني لم أتمكن من منع نفسي من ذلك., فلم يكن بإمكاني أن أحتمل نظرة الخوف والشقاء التي كانت على وجهه تلك المريضة البائسة.
– هذا لا يهم.، كانت كذبة وسوف يحاسبك الله على ذلك.

صاحت إستر وهي تعتصر يديها:
– نعم، نعم, أنا أعلم ذلك، أعلم ذلك، ولكن حتى لو كانت كذلك فلم يكن بإمكاني أن أمتنع عنها، كما أنني أعلم بأنني سوف أعيد الكرّة.
– إذن, فلتأخذي مكاني في الصباح بجانب هيلين ، وسوف أقدم إلى والدتها التقرير بنفسي، سوف أقول لها الحقيقة.

أمسكت إستر بيدّ بشقيقتها وأخذت تُناشدها وتتوسل إليها قائلة:
– لا تفعلي هذا حنا، أرجوكِ، لا تفعلي هذا ــ سوف تقتلينها إن فعلت ذلك.

قالت حنا:
– سوف أكون على الأقل قد قلت الحقيقة.

كان على حنا في الصباح أن تُقدم تقريراً قاسياً لتلك الأم، وكانت تستعد لتلك المحنة. إلا أنها

عندما عادت من مهمتها كانت إستر التي كانت تنتظرها في الردهة شاحبة مرتجفة قد همست لها:
– ياإلهي، كيف تقبّلت تلك الأم البائسة الأمر؟

لكن عينا حنا كانتا تسبحان بالدموع وقالت:
– فليسامحني الله، قلت لها أن الطفلة بخير!

حينئذ ضمتها إستر إلى صدرها بامتنان وقالت " فليباركك الله حنا !" ثم أخذت تُغدق عليها عبارات الشكر وتُغرقها بعبارات المديح.

وهكذا كانت كل منهما قد أدركت حدود مقدرتها وتقبّلت قَدَرها. استسلمتا بتواضع، وسلّمتا نفسيهما للمتطلبات القاسية لذلك الوضع الإنساني.
كانتا تُكرّران يومياً كذبة الصباح تلك للأم البائسة، ثم تعترفان بذنبيهما أثناء الصلاة، ولكن دون أن تجرؤا على طلب المغفرة لأنهما لا تستحقانها. وإنما كانتا ترجوان الله فقط أن يُحتسب لهما ما كانتا فيه من إدراك واعتراف بذنبيهما، كما لم تعد لديهما أية رغبة في إخفاء ذلك أوفي تبريره.

وفي الوقت الذي كانت فيه صحّة محبوبة المنزل تتراجع بشكل يومي، كانت الخالتان الحزينتان، تحت تأثير ما تمنحانه لتلك الأم البائسة من نشوة السرور والامتنان، ترسمان لها كل صباح صورة متألقة عن نضارة وجمال الشابة.

كانت الطفلة في الأيام الأولى من مرضها لاتزال قادرة على الإمساك بالقلم، وبذلك كانت تكتب لوالدتها بعض الحواشي الصغيرة التي تعبّر بها لها عن حبها والتي تُخفي فيها عنها كل ما يتعلق بمرضها. وكانت والدتها تقرأ تلك الرسائل الصغيرة وتعيد قراءتها مرات ومرات بعينيها اللتين تملآنهما دموع العرفان والسعادة، وكانت بعد أن تقبّلها تحتفظ بها بحرص تحت وسادتها كما يتم الاحتفاظ بالأشياء الثمينة.

ثم جاء اليوم الذي ضعفت فيه مقدرة هيلين على الكتابة، والذي بدأ فيه ذهنها يتشتت، اليوم الذي أخذ فيه لسانها ينطق بكلام مُتناقض ومحزن... وكانت تلك هي المُعضلة المؤلمة الأكبر بالنسبة للخالتين، فلم تعد هناك أية رسائل محبة تحملها إستر إلى الأم. ومع ذلك كان عليهما إيجاد

المخرج لهذا الأمر., ولكن لم يكن بإمكانهما معرفة كيفية القيام بذلك. كانت إستر في البداية تُقدّم يومياً للأم المريضة تفسيراً مدروساً بكل عناية وجديراً بالتصديق، إلا أنها ذات يوم كانت قد ارتبكت وبدأت تفقد مسار الحديث. وبذلك كانت الشكوك قد بدأت تبدو على وجه الأم كما بدأ يظهر عليها ما ينذر بالخطر. لاحظت إستر ذلك وأدركت بأن الخطر أصبح وشيكاً، وكان عليها أن تتحوّل إلى وضع الطوارئ. ثم استجمعت شجاعتها بعزم واستطاعت أن تخرج من فكّ الهزيمة بالنصر حيث قالت لها بصوت مُقنع وبرباطة جأش:

– كنت أعتقد بأنه قد يُحزنك معرفة ذلك، الحقيقة أن هيلين أمضت ليلة الأمس في سولا نيس.، كانت هناك حفلة صغيرة. لم تكن هيلين في الحقيقة ترغب في الذهاب إلى تلك الحفلة وأنت مريضة، لكنّا أقنعناها بذلك.، فهي شابة وبحاجة إلى أن تمضي بعض الوقت بتسلية برئيه أسوة بغيرها من الفتيات الشابات. اعتقدنا بأنك سوف توافقين على ذلك لذا كنا قد أقنعناها بالذهاب، تأكّدي بأنها سوف تكتب إليك فور عودتها.

قالت الأم " كم أنت طيبة خالتي، وكم أنت مُحبة لنا، وكم تراعين مشاعرنا نحن الاثنتين!..أنا بالطبع أوافق على ذلك؟ لِم لا؟ أشكركما من كل قلبي! صغيرتي الغالية المنفية ! فلتقولا لها بأنني أريدها أن تحصل على كل ما بإمكانها أن تحصل عليه من المتع ! لن أحرمها من أي شيء، عليها فقط أن تراعي صحتها، وهذا كل ما أطلبه منها. لا تتركوها تتعذب فليس بإمكاني أن أحتمل ذلك. كم أنا سعيدة لأنها نجت من خطر العدوى! كم كانت قد تعرضت إلى خطر قريب.خالتي إستر! تخيّلي لو أن ذلك الوجه الجميل أصبح باهتاً وملتهباً بالحمى، لست أحتمل حتى التفكير بذلك! أرجوكما أن تُحافظا لها على صحتها وأن تحافظا لها على إشراقها! بإمكاني أن أراها وكأنها أمامي الآن تلك المخلوقة الوسيمة بعينيها الزرقاوين الجادتين، وبرقتها. آه!.. كم هي رقيقة، لطيفة وفاتنة ! عزيزتي إستر، هل لازالت جميلة كما كانت دوماً؟

أجابتها إستر:

– بل هي أكثر جمالاً وإشراقاً وسحراً مما كانت عليه في أي وقت مضى، هذا لو كان ذلك ممكناً.

ثم استدارت وتظاهرت بالبحث عن زجاجات الدواء لكي تُخفي عنها حزنها وخجلها...

5

بعد فترة قصيرة، كانت الخالتان في غرفة هيلين تحاولان بأصابعهما المتشنّجة، وبكل ما لديهما من مقدرة وأناة وصبر، القيام بعمل مُجهد وذلك بمُحاكاة ما كانت تكتبه هيلين لوالدتها من حواشٍ صغيرة. أخفقتا مرّة بعد أخرى، لكن, ومع التكرار, كان التحسن قد بدأ يظهر فشيئاً فشيئاً. لكن ما يثير الشفقة في كل ذلك، وما كان من الدعابة المحزنة، وما لم تدركانه بالذات هو أنه لم يعد هناك ما يمكن مشاهدته.,ذلك لأن دموعهما كانت في كثير من الأحيان، تسقط على تلك الرسائل وتتلفها. كان أي خطأ في صياغة أية كلمة ، كلمة واحدة قد يُعرّض الرسالة لأن تكون محفوفة بالخطر.ثم استطاعت حنا آخر الأمر محاكاة أحد الخطوط التي تشبه خطّ ما تكتبه هيلين، وبالشكل الذي يؤدي إلى أن تفلت من نظر أي عين قد تنزع إلى الشك فيها. وكانت قد أغنت الرسالة بسخاء بجمل الدعابة وبعبارات الحب التي كانت هيلين تقولها عادة لوالدتها منذ طفولتها. ثم حملتها إلى الأم التي استلمتها بحماس ., قبلتها وأخذت تُربت عليها وتقرأ ما ورد فيها من كلمات عزيزة على النفس, مرّة بعد مرّة وهي تتمعّن بكل غبطة بما ورد بشكل خاص في فقرتها الأخيرة:

"حبيبتي موسي! ليت بإمكاني على الأقل أن أراك وأن أجتمع بك، وأن أقبلك وأن أشعر بذراعيك وأنت تضمينني إلى صدرك الحنون! أنا سعيدة لأن غيابي لا يقلقك. تماثلي للشفاء بسرعة. يعاملني الجميع هنا بشكل جيّد، لكنني وحيدة بدونك يا أمي الحبيبة".

قالت الأم " يا للطفلة البائسة!... أنا أعرف جيداً كيف تشعر، فليس بإمكانها أن تكون سعيدة تماماً بدوني، آه... أنا أعيش في نور عينيها ! أعلموها بأن بإمكانها أن تقوم بكل ما ترغب به... خالتي حنا! قولي لها بأنه لم يعد بإمكاني أن أسمع من بعيد عزفها على البيانو وصوتها الحبيب وهي تغني. يعلم الله بأنني أتمنى ذلك. لاأحد يعلم مقدار عذوبة ذلك الصوت بالنسبة إلي – عندما يخطر ببالي أنه قد يصمت في أحد الأيام...! لم تبكين خالتي ؟"

– لأنني...لأنني... هذا فقط...لأنني...بسبب... كان ذلك لمجرد ذكرى خطرت ببالي، ذلك لأنها عندما جئت إليك كانت تنشد "لوش لومون" (أغنية حزينة جداً) لذا بكيت لما في ذلك اللحن من شجن يُحرك العواطف!... فهو يُحرك مشاعري عندما تغنيه.

– وأنا أيضاً أشعر بذلك. خالتي حنا!.. كم هو جميل . ما يتسبب بالأسى ويسحق القلب هو أن يحتضن قلبها الفتي كل ذلك الحزن، فهي تنشده لما قد يجلبه ذلك من شفاء صوفي لروحها؟... أنا مريضة جداً . يخطر ببالي أحيانا بأنني لن أسمع ذلك الصوت مرة أخرى.

– آه ! مارغريت لا تقولي هذا، لا تقولي هذا، فليس بإمكاني احتمال ذلك!

كانت مارغريت مضطربة يائسة وقالت بلطف:

– تعالي إلي، دعيني أطوّقك بذراعي، لا تبكي، تعالي، ضعي خدك على خدي ولتشعري بالعزاء، أريد أن أعيش، سوف أعيش هذا لو كان بإمكاني ذلك. آه!... وما الذي بإمكانها أن تفعله بدوني!.. هل تتحدث عني كثيراً؟ أنا أعلم بأنها تفعل ذلك.

– إنها تحدث عنك طوال الوقت، طوال الوقت !

– طفلتي العزيزة ! هل كتبت إليّ تلك الرسالة فور عودتها إلى المنزل؟.

– نعم، في اللحظة الأولى من وصولها، وحتى أنها لم تنتظر إلى أن تخلع ملابسها.

– كنت أعلم ذلك، هذا هو أسلوبها المندفع العاطفي. كنت أعرف ذلك دون أن أسأل، إلا أنني أردت أن أسمعك تقولين ذلك. فالزوجة المدلّلة تعلم دوماً بأنها محبوبة لكنها ترغب بسماع ذلك يومياً لما يجلبه سماعها ذلك من سرور. كنت سأحزن لو أنها لم تكن كتبت إلي فور عودتها. هل استخدمت الريشة للكتابة هذه المرة، هذا أفضل، لأن آثار قلم الرصاص يمكن أن تَمحى.، هل كنت أنت من اقترح عليها أن تستخدم ريشة الكتابة ؟

– نعم، لا، كانت تلك فكرتها.

بَدت الأم مسرورة وقالت :

– كنت آمل أن تقولي ذلك، لايوجد على الإطلاق مثل تلك الطفلة المحبة التي تراعي المشاعر. خالتي حنا, أليس كذلك ؟

– عزيزتي مارغريت!

– قولي لها بأنني أفكر بها طوال الوقت وبأنني أحبها جداً. لم تبكين من جديد ؟ لا تقلقي علي فليس هناك بعد ما يُقلق.

نقلت المُراسِلة الحزينة رسالة تلك الأم البائسة إلى الفتاة، أوصلتها بورع إلى الأذنين الغافلتين.

لكن الفتاة التي كانت في ذلك الوقت تهذي كانت غافلة عن كل ما حولها., وكانت تنظر إليها بتساؤل وباستغراب بعينين ألهبتهما الحمى. عينان لا يبدو فيهما ما يشير إلى أي ضوء يدلّ على الإدراك:

– هل أنت؟ لا، أنت لست أمي!.. أريد أمي!.. أريد أمي!.. كانت هنا من دقيقة، لم أرها تغادر، هل ستأتي؟ هل ستأتي بسرعة؟ هل ستأتي الآن؟.... هناك الكثير من المنازل...وهي تضغط علي صدري كثيراً... كل شيء يلف يدور ويلف... آه! رأسي... رأسي!

وهكذا كانت تلك الفتاة البائسة تهذي وتهذي لشدة الأم، وتتنقّل من خيال مُضنٍ إلى خيال مُضنٍ آخر، وهي تُقاذف ساعديها باستمرار من جهة لأخرى بضجر وضيق واضطراب...بينما كانت العجوز البائسة حنا في ذلك الوقت تُبلّل لها شفتيها وتمرّر يدها برفق على جبينها الملتهب، وهي تهمس بعبارات العزاء والإشفاق وتشكر الله على أن والدتها سعيدة لأنها لا تعرف شيئاً عن كل ذلك.

6

كانت الطفلة تتردّى يوماً بعد يوم وتنحدر باستمرار نحو النهاية. كانت كل من الحارستين العجوزين الحزينتين تحملان يومياً إلى الأم السعيدة التي كانت في ذات الوقت تدنو أيضاً من نهايتها، تلك الأنباء المَطلية بالذهب حول صحة وتألّق وفتنة ابنتها. كانتا تُزوّران باسم الطفلة تلك الرسائل الصغيرة الحنونة والمُبهجة، وُتواجهان بعد ذلك عذاب الضمير بقلبيهما الداميين، وتبكيان وهما تشاهدان مدى ما كانت تشعر به تلك الأم من الامتنان، ومقدار ما تهيم بتلك الرسائل، ومقدار ما تُثمنها أسوة بأغلى الكنوز التي لايمكن تقديرها بثمن لمصدرها العذب الذي تُقدّسه ولأن يدّ ابنتها كانت قد لمستها.

ثم جاء أخيراً ذلك الصديق الطيب الذي يحمل معه الشفاء والأمان للجميع... كانت الأضواء تضيء المكان بشكل خافت. وكانت الأشكال الغامضة تتنقل بسكون في البهو المعتم في ذلك الصمت المَهيب الجليل الذي يسبق الفجر, وتجتمع بصمت وخوف في غرفة هيلين وحول سريرها،

ذلك لأن الإنذار كان قد سبق. ولأنهما كانتا تعرفان ذلك...

كانت الفتاة المُحتضرة مُستلقية فاقدة الوعي بأجفان مُغلقة، وكانت الملاءات ترتفع وتنخفض فوق صدرها أسوة بحياتها الضائعة التي كانت تنحسر شيئاً فشيئاً. ومن حين لآخر كان يشقّ السكون هنا وهناك صوت تنهيدة ونشيج مكتوم ذلك لأن ذات الفكرة كانت تدور بذات الوقت في أذهان الجميع:

رحمة الموت، الرحيل إلى الظلام الكبير، الأم التي ليست هنا لكي تُساعد وتشدّ العزيمة ولكي تواسي وتُبارك...

ثم اهتاجت هيلين وأخذت يداها تتلمسان ما حولها وكأنها تبحث عن شيء، ذلك لأنها كانت منذ ساعات قد أصيبت بالعمى... لقد حلّت النهاية.، وكان الجميع يعرفون ذلك. ضمتها إستر إلى صدرها وهي تبكي بنشيج مرتفع "آه..! يا طفلتي، يا حبيبتي !"

حينئذ, كان ضوء جذل قد لمع على وجه الفتاة المُحتضرة، وكان من الرحمة الأبدية التي جاءت إليها من الله وهي تحتضر أن الله منّ عليها بأن تعتقد خطأً أن الذراعين الحاميتين هما لشخص آخر وبأنهما لوالدتها. وبذلك ذهبت إلى الراحة الأبدية وهي تمتم:

" آه... أماه!... أنا سعيدة جداً، كنت أتمنى كثيراً رؤيتك، أستطيع الآن أن أموت".

وكانت الأم بعد ساعتين قد سألت إستر عندما قدمت إليها التقرير اليومي:

– كيف تسير الأمور مع الطفلة ؟

– إنها بوضع جيّد.

7

تم تعليق حزمة من القماش الرقيق الأبيض والأسود على باب المنزل, كانت تتمايل هناك وتُصدر حفيفاً يهمس في الهواء بالأنباء. كانت جميع التحضيرات لأجل المتوفاة قد انتهت مساءً.

كان جسم الشابة الجميلة التي كان وجهها العذب الجميل في سلام كبير، ممدداً في ذلك النعش.

وبينما جلست بجانبها المفجعتان حنا والخادمة السوداء تيلي تتلوان الصلوات بأسى، جاءت إليهما إستر وهي ترتجف. ذلك لأنها كانت تواجه مشكلة كبيرة وقالت:

– سألتني عن رسالة.

شحب وجه حنا فلم تكن قد فكرّت في ذلك.، كان قد خيل إليها بأن تلك المهمّة المحزنة قد انتهت، لكنها أدركت الآن بأن هذا لايمكن أن يكون. ظلت المرأتان للحظة تحدقان ببعضهما بعيون خلت من أي تعبير ثم قالت حنا:

– لايمكن تفادي ذلك، يجب أن تحصل على ما تريد وإلا فسوف تشكّ في الأمر.

– نعم، وسوف يسحق ذلك قلبها، ثم نظرت إلى وجه المتوفاة، واغرورقت عيناها بالدموع وقالت:

– سوف أكتبها.

حملت إستر الرسالة إلى الأم البائسة،. تلك الرسالة التي كان السطر الأخير فيها:

" حبيبتي، فأرتي الصغيرة، سوف نكون معاً من جديد عما قريب. أليست هذه من الأنباء الجيّدة؟ يقول الجميع بأنها الحقيقة".

قالت الأم بأسى:

– طفلتي المسكينة كيف سيكون بإمكانها الاحتمال عندما ستعلم بأنني لن أراها ثانية أثناء الحياة ؟... لا، هذا مؤلم، مؤلم جداً، هي لا تشك بشيء؟ سوف تحميانها أليس كذلك؟

– تعتقد هيلين بأنك سوف تتعافين عما قريب.

– خالتي العزيزة إستر! كم أنت طيبة وحريصة عليها! أليس هناك من يمكن أن ينقل إليها العدوى؟

– سوف تكون تلك جريمة.

– ولكنك ترينها؟

– نعم عن مسافة بعيدة.

– هذا جيّد، فليس بالإمكان أن نثق بالآخرين، وإنما أنتما بمثابة الملاكين الحارسين لها ــ فحتى الفولاذ ليس بذات قوّة صدقكما. لا، لا يمكن الثقة بالآخرين، فسوف يخدعها الآخرون ويكذبون عليها.

أطرقت إستر بنظرها وبدأت جفونها ترتجف.

– خالتي إستر ! دعيني أقبلك لأجلها وبعد أن أموت ويكون الخطر قد زال، ضعي هذه القبلة على شفتيها ولتقولي لها بأن أمك كانت قد أرسلتها إليك، وسوف يكون فيها كل ما في قلب الأم المُحطّم!

بعد ساعة من الزمن كانت إستر تزرف الدموع على الوجه الميت بعد أن كانت قد أدّت مهمتها المحزنة.

8

أشرق يوم أخر. استمر وانتشر ضوء الشمس على الأرض... حملت الخالة حنا كعادتها الأنباء المُعزيّة لتلك الأم، التي كانت تتراجع، بواسطة حاشية صغيرة تقول فيها ثانية:

– أمي الحبيبة، لم يعد علينا أن ننتظر سوى القليل من الوقت، وسوف نجتمع معاً بعد ذلك.

في تلك اللحظة وصل إلى مسامعهما لحن حزين لجرس يندب مع هبوب الرياح.

قالت مارغريت – خالتي حنا! الناقوس يقرع. لابد أن إحدى الأرواح البائسة حصلت الآن على الراحة الأبدية كما سوف أفعل أنا عما قريب. لن تنسيني أليس كذلك؟

– بحق الله، يعلم الله بأن هذا لن يحدث أبداً!

– خالتي حنا ! ألا تسمعين بعض الأصوات الغريبة، يبدو الأمر وكأن هناك وقع لأقدام عديدة.

– عزيزتي , كنا نأمل ألا تسمعي ذلك، فهناك تجمّع لبعض الأشخاص...لأجل... لأجل هيلين فتلك السجينة الصغيرة سوف تعزف الموسيقى .. وهي تحب ذلك كثيراً، لذا خطر ببالنا بأنك لن تُمانعي في ذلك.

– أمانع؟ لا، لا، لا أبداً، امنحا حبيبتي كل ما يمكن أن يتمناه قلبها. كم أنت طيبة معها وطيبة معي، ليباركك الله على الدوام!

ثم قالت بعد فترة من الإصغاء:
– كم هذا جميل ؟ إنه صوت الأرغن، هل تعتقدين بأنها هي التي تعزف على الأرغن؟

كانت النغمات الموسيقية تصل إلى أسماعهما من خلال الهواء الساكن ضعيفة، عميقة ومُلهمة.

– نعم، هذه هي اللمسة الفنية لحبيبة قلبي فأنا أعرفها تماماً. إنهم ينشدون. ماذا ؟ إنها ترتيله! الترتيل الأكثر قدسية من جميع التراتيل والأكثر تأثيراً والأكثر مواساة... تبدو وكأنها تفتح لي أبواب الجنان ... بإمكاني الآن أن أموت..."
كانت الكلمات تتصاعد من بعيد من خلال السكون.

أقرب إليك يا إلهي
أقرب إليك
هذه هي الرحلة التي ترفعني إليك

ومع نهاية تلك النغمات، كانت روح أخرى قد انتقلت إلى الراحة الأبدية، وبذلك لم تكن من لم تنفصلا أثناء الحياة قد انفصلتا في الموت. قالت الشقيقتان بحزن وببهجة وبذات الوقت:
" كم كانت رحمة الله كبيرة بألا تكون قد عرفت أبداً بموت ابنتها !"

9

وفي منتصف الليل, وبينما جلست الخالتان بأسى وحزن، ظهر ملاك الله وسط هالة من الجلال وحدّثهما قائلاً:
هناك مكان في الجحيم خصّصه الله للكاذبات وسوف يتم إحراقهن فيه إلى الأبد، توبا إلى الله!

سقطت المحرومتان أمامه على ركبتيهما، ضمتا أياديهما وأحنيتا رأسيهما وهما تبتهلان وتطلبان المغفرة. لكن ألسنتهما التصقتا في فوهيهما وفقدتا النطق.

– تكلما!.. لكي يكون بإمكاني أن أحمل الرسالة إلى محكمة السماء، ولكي أحمل منها إليكما ثانية القرار غير القابل للنقض.

أحنيتا رأسيهما أكثر فأكثر، وقالت إحداهما:

– خطايانا كثيرة ونحن نعاني من الندم ولكن ألا تُزيل توبة أخيرة وصادقة جميع الخطايا؟. نحن مخلوقتان بائستان، وقد أدركنا تماماً مقدار ضعفنا الإنساني، وبأننا لو كنا في مثل تلك الظروف الصعبة ثانية فسوف تخطئ نفوسنا الضعيفة كما أخطأت سابقاً. بإمكان القوي أن يفوز وبذلك ينجو، لكننا ضعنا.

ثم رفعتا رأسيهما بتضرّع. وبينما كانتا تبكيان وتتضرعان إلى الله وتطلبا المغفرة والرحمة، كان ملاك الله قد عاد من جديد، وانحنى إلى الأسفل وهمس لهما بالقرار...

فهل كان ذلك الجنة ؟ أم الجحيم...؟

هل هو على قيد الحياة أم ميت؟

كنت خلال شهر آذار (مارس) من العام 1892 أمضي إجازتي في مانتون في الريفيرا، حيث بإمكان المرء في تلك المنطقة المنعزلة أن يحصل على ذات الميّزات التي يحصل عليها في مناطق أخرى مثل مونت كارلو أو نيس التي تقع على بعد بضعة أميال فقط من تلك المنطقة ولكن دون جلبة. والمقصود بذلك أن بإمكان المرء أن يستمتع بشمس قويّة وهواء منعش وببحر أزرق رائع، دون أن يرافق ذلك مهرجانات ورياش واستعراض وجلبة لا داعي لها. ذلك لأن مقاطعة مانتون منطقة هادئة بسيطة مريحة ومتواضعة، لا يرتادها الأثرياء أو الأشخاص الذين يهتمون بالمظاهر. وأعني بذلك أن الأثرياء لا يأتون إليها عادة، لكنك قد تُصادف فيها أحد الأثرياء من حين لآخر، وقد تعرّفت الآن على أحد هؤلاء. ولكي أخفي حقيقة ذلك الشخص فسوف أطلق عليه اسم السيد سميث!

قال لي السيد سميث ذات يوم، وأنا أتناول طعام الغداء (وهو ما يدعى بالإفطار الثاني) في فندق الانكليز:

– ألق نظرة سريعة على الرجل الذي سيخرج الآن من هذا الباب، واحرص على تكوين فكرة عن كل ما يخصّه من تفاصيل.

– لماذا؟

– أتعلم من هو؟

– نعم، هو هنا من عدة أيام وكان قد وصل قبل مجيئك. هو رجل عجوز مُتقاعد يُدعى تيوفيل

مانيان، من الأثرياء جداً وصاحب مصنع للحرير في مدينة ليون كما قالوا. أعتقد بأنه وحيد في هذا العالم، فهو لا يتحدث مع أحد كما أنه يبدو حالماً وحزيناً على الدوام.

كنت قد اعتقدت بأن السيد سميث سوف يقوم بتبرير ذلك الاهتمام الكبير الذي أبداه بالسيد مانيان، إلا أنه كان بدلاً عن ذلك قد غرق في تأملات غامضة، وكأنه غاب عني وعن باقي العالم لبضع دقائق. أخذ يمرّر أصابعه في شعره الأشيب، وكأنه يستعين بذلك على التفكير، وكان أثناء ذلك قد ترك إفطاره يبرد، ثم قال لي أخيراً:

– لا..، نسيتها، وليس بإمكاني أن أتذكرها.

سألته:

– ماهو الأمر الذي ليس بإمكانك أن تتذكره ؟

– هي إحدى الروايات القصيرة الجميلة للكاتب هانس أندرسون. إلا أنني نسيتها الآن وأنا أذكر فقط بأن أحد فصولها كان التالي:

كان أحد الأطفال قد حبس طائراً في قفص. كان يُحب ذلك الطائر كثيراً، لكنه كان يُهمله عن غير قصد. كان ذلك الطائر يُغرّد دون أن يسمعه أحد، ودون أن يلتفت إليه أحد. ومع مرور الوقت كان الجوع والعطش قد بدأ بالتدريج يقضي على ذلك المخلوق، وبدأ تغريده يزداد كآبة وضعفاً إلى أن توقف الطائر نهائياً عن التغريد ومات.

يأتي الطفل بعد ذلك وقد حطم الندم قلبه., يستدعى خدمه وهو يزرف دموع المرارة والأسى، لكي يقوم الجميع بدفن ذلك الطائر بقدر كبير من الاحتفالية وبأرقّ مشاعر الأسى. ولم يكن أولئك البؤساء قد أدركوا بأن الأطفال ليسوا هم فقط من يتركون الشعراء يتضورون جوعاً إلى درجة الموت، ثم يُنفقون من الأموال على مآتمهم، وعلى وضع النصب التذكارية لهم، ما كان قد يكفيهم للبقاء على قيد الحياة ولجعلهم يعيشون براحة ورخاء. أهذا الآن فقط...؟

إلا أن حديثنا كان قد توقف عند ذلك الحدّ. ثم كنت حوالي الساعة العاشرة من تلك الليلة، قد صادفت السيد سميث مرة أخرى. كان قد طلب مني مرافقته إلى البهو لكي ندخن ونشرب بعض الشاي الساخن معاً. كان المكان مريحاً، يحتوي على مقاعد وثيرة وعلى مصابيح بهيجة، وعلى نار هادئة من أخشاب شجر الزيتون الجاف. ولكي يكون هناك ما يجعل ذلك المكان مثالياً، كنا نسمع

أيضاً من الخارج هدير الأمواج المُتكسرة على الشواطئ . وبعد أن شربنا الكأس الثانية ، وبعد أن تبادلنا الكثير من مختلف الأحاديث قال لي السيد سميث :

– وصلنا الآن إلى حدّ الصفوة تماماً ــ وسوف أروي لك الآن قصّة غريبة، وعليك أن تصغي إليها دون أية مقاطعة. كان ذلك لعدة سنوات سراً بيني وبين ثلاثة أشخاص فقط، لكنّي سوف أكشف لك الآن عن هذا السرّ. هل تشعر بأنك بوضع مريح؟

– تماماً، استمر.

وهذا ما رواه لي السيد سميث:

كنت من زمن بعيد من الفنانين الشبان أو أنني بالأحرى كنت في ذلك الوقت لاأزال صغير السن. كنت أتجوّل في جميع المدن الفرنسية لكي أرسم هنا وهناك بعض اللوحات التخطيطية (الاسكتشات). وكان قد انضم إلي في ذلك الوقت جماعة من الشبان الفرنسيين الأعزاء وكانوا يقومون بذات العمل الذي كنت أقوم به.

كنا سعداء بقدر ما كنا فقراء، أو أننا بالأحرى كنا فقراء بقدر ما كنا سعداء. بإمكانك اختيار التفسير الذي يناسبك.

كانت أسماؤهم كالتالي :كلود فرير، وكارل بولا نجيه ــ تلك كانت أسماء أولئك الرجال الأعزاء، الأعزاء جداً، الذين كانوا من أكثر الأشخاص مرحاً ومن كانوا يسخرون من الفقر، ومن بإمكانهم الاستمتاع بأوقاتهم في كافة الأحوال وفي كل ما قد يمرون به من ظروف صعبة.

كنا في نهاية المطاف قد وصلنا إلى قرية بروتون. وكان قد تبنّانا هناك فنان فقير مثلنا يدعى فرانسوا ميليه، كما أنه وبالمعنى الحرفي، كان الشخص الذي أنقذنا من التضوّر جوعاً.

سألته:

– ماذا ؟ فرانسوا ميليه صاحب الشهرة؟

أجابني:

– فرانسوا ميليه صاحب الشهرة ؟ لم تكن لفرانسوا ميليه شهرة أكثر مما كنا نحن حينذاك، ولم تكن لديه أية شهرة حتى في قريته، كان فقيراً بحيث لم يكن لديه ما يقدمه إلينا سوى بعض نبات اللفت، وحتى أن ذلك لم يكن ليتوفر لديه في بعض الأحيان.

ثم أصبحنا نحن الأربعة بسرعة من الأصدقاء المُتحابين الذين لا يفترقون. كنا نرسم معاً بكل ما لدينا من مقدرة، إلا أننا كنا نكدّس ونكدّس تلك اللوحات، لأننا نادراً ما كنا نتخلص من أي منها بأن نتمكن من بيعها. أمضينا معاً الكثير من الأوقات الممتعة. ولكن آه ! كم كنا أيضاً نعاني من وقت لآخر!

واستمر الأمر هكذا لمدة تجاوزت السنتين. وآخر الأمر قال لنا كلود ذات يوم :

– أيها الرفاق! ها قد وصلت بنا الأمور إلى الحدّ النهائي. هل تُدركون معنى ذلك ؟ وصلنا تماماً إلى النهاية ! اعتصم الجميع ضدنا، وقد شُكلت شبه عصبة ضدنا الآن. تجوّلت في جميع أنحاء القرية والأمر كما أصفه لكم تماماً: يرفض الجميع إقراضنا ولو فلساً واحداً إلى أن نقوم بسداد كل ما علينا من ديون.

صُدمنا جداً بذلك، وشحبت وجوه الجميع من الفزع. كنا قد أدركنا بأن ظروفنا ميؤوس منها. ثم ساد صمت طويل إلى أن قال ميليه أخيراً وهو يتنهد :

– ليس لدي في ذهني أية فكرة حالياً ــ لاشيء، اقترحوا شيئاً أيها الرفاق.

لم يجبه أحد. ما لم يكن الصمت المُطبق هو الإجابة. نهض كارل وبدأ لفترة يزرع المكان جيئة وذهاباً ثم قال:

– ياللعار، انظروا إلى هذه الصور الزيتية، أكداس وأكداس من الصور الجيّدة التي لا تختلف عما قد يرسمه أي شخص ذو شهرة في أوروبا ــ لست أهتم من يكون، نعم، لكن الكثيرين من الغرباء الذين كانوا يمرون من هنا قالوا مثل هذا الكلام أو ما يشابه ذلك.

قال ميليه:

– لكنهم مع ذلك لم يشتروها.

– هذا لا يهم، الأهم أنهم يقولون ذلك. انظروا هناك إلى لوحة صلاة التبشير! هل بإمكان

أحدكم أن يقول لي...؟

– تباً، كارل ! لم يُعرض علي أحد فيها سوى خمسة فرنكات.

– متى كان ذلك؟

– من الذي عرض عليك ذلك؟

– أين هو؟

– لِم لم يأخذها منك؟

– لا تتكلموا جميعاً في وقت واحد. كنت أعتقد بأنه سوف يعرض علي أكثر من ذلك المبلغ. كنت متأكّداً من ذلك لأنه كان قد أمعن النظر فيها طويلاً، لذا طلبت منه ثمانية فرنكات.

– حسناً، وماذا بعد.

– قال لي بأنه سوف يتصل مرة أخرى.

– رعد وبرق (تعبير مجازي يعني لعنة الله عليك) لماذا فرانسوا؟

– أووه، حسناً، أنا أعلم بأنها كانت غلطة مني، وبأنني كنت قد تصرفت بغباء. أيها الرفاق! أنتم تعلمون بأنني كنت أتطلع إلى الأفضل. لابد أنكم سامحتموني على ذلك ؟ كنت...

– لِم لا ؟ نحن نُدرك ذلك بالتأكيد، فليبارك الله قلبك الطيب ولكن عليك ألا تتصرف مرة أخرى بمثل هذا الغباء.

– أنا آمل أن يأتي أحدهم ويعرض علينا عرضاً مُجزياً، وسوف ترون!

– عرض مجزي؟ لا تالأمر، هذا الأمر ، فهو يجعلني أتقزّز، ولتتحدث عن أمور لا تزعج...

قال كارل:

– أيها الرفاق، هل تُعتبرهذه اللوحات من الأعمال غير الجديرة بالتقدير؟ أجيبوني على ذلك!

– لا.

– أليست ذات قيمة كبيرة وتستحق أعلى تقدير؟ أجيبوني!

– نعم, هي كذلك.

– لو كانت هذه الأعمال ذات القيمة والاستحقاق ترتبط بأحد باسم أحد الفنانين من ذوي الشهرة في هذا المجال، ألم تكن ستُباع بأسعار خيالية. أليست كذلك؟

– هذا مؤكد، لا أحد يشك في ذلك.

– لست أمزح، أليس الأمر هكذا ؟

– لماذا؟ الأمر هكذا بالطبع، ونحن أيضاً لا نمزح، ولكن ماذا في ذلك، وما الذي يعنينا من

كل ذلك؟

– أيها الرفاق، سوف نضع اسماً لامعاً على هذه اللوحات!

توقف النقاش الحاد، واستدارت الوجوه بتساؤل نحو كارل. ما هذا اللغز الذي يتحدث عنه؟ وأين ومن هو صاحب ذلك الاسم الشهير الذي ستتم استعارته؟ ومن الذي سيقوم باستعارته؟

جلس كارل بعد ذلك وقال:

– سوف أعرض عليكم الآن أمراً في غاية الجدّية.. وأنا أعتقد بأنها وسيلتنا الوحيدة لإنقاذ أنفسنا من مأوى الفقراء هذا... كما أنني أرى بأنها وسيلة مأمونة تماماً. وأنا أستند في رأيي هذا على عدد كبير من الوقائع المعروفة منذ قدم التاريخ الإنساني، كما أعتقد بأن مشروعي هذا سوف يجعلنا من الأثرياء.

– أثرياء! لابد أنك فقدت عقلك ؟

– لا، لم أفقد عقلي.

– بلى، لقد فقدت عقلك. ما الذي تقصده بأثرياء ؟

– مائة ألف فرنك للقطعة الواحدة.

– فقد عقله، كنت أعلم ذلك.

نعم، نعم، لقد فقد عقله. كارل! نحن نعلم بأن تأثير الحرمان كان قويّاً عليك الفعل و..

– كارل! أترغب بتناول حبة دواء لكي تأوي فوراً إلى فراشك ثم..

– قوموا بربطه أولاً، اربطوا رأسه ثم...

– لا، اربطوا قدميه، كان بدأ عقله يتغير منذ أسابيع، كنت قد لاحظت ذلك...

قال ميليه بصرامة ظاهرية:

– اخرسوا، واتركوا الرجل يقول ما لديه. والآن، كارل، أطلعنا على مشروعك، ماذا لديك؟

– حسناً، إذاً، كمقدمة للموضوع، سوف أطلب منكم أن تدقّقوا في واقع التاريخ الإنساني، الذي يؤكد بأن التقدير الذي يحصل عليه أي من الفنانين الكبار، لم يكن قد تحقق إلا بعد أن كان ذلك الفنان قد تضوّر جوعاً وبعد أن مات... هذا ما كان يحدث في كثير من الأحيان، مما جعلني أتجرأ على أن أبني على ذلك القانون التالي:

إن الشهرة التي يحصل عليها أي فنان من الفنانين غير المعروفين والمُهملين، لابدّ أن تكون قد تحققت، وهي دوماً لاتتحقق إلا بعد وفاته !

ذلك لأن أسعار لوحاته ترتفع دوماً, وبعد وفاته فقط, إلى أعلى قيمة.أما مشروعي فهو التالي:
علينا أن نقوم بتوزيع الأدوار بيننا. سوف يكون على أحدنا أن يموت!
وكان قد تفوّه بتلك العبارة بهدوء تام وبأسلوب غير متوقع على الإطلاق، مما جعلنا ننسى تقريباً أن نَثب لشدة الدهشة.

ثم تلت ذلك من جديد مجموعة من النصائح العاصفة ــ نصائح طبية ــ تهدف إلى مساعدة كارل الذي اعتقدنا بأنه كان ولابد قد فقد عقله. لكنه انتظر بصبر إلى أن انتهى الصخب وساد الهدوء ثم استمر بالتحدث عن مشروعه:

– نعم، على أحدنا أن يموت لكي يُنقذ الآخرين ولكي يُنقذ نفسه. سوف نقوم الآن بتوزيع الأداختياره منبح الشخص الذي سيتم اختياره من ذوي الشهرة، وسوف نُصبح جميعنا بذلك من الأثرياء. التزموا الهدوء الآن... التزموا الهدوء، ولا تقاطعوني. سوف أعلمكم الآن بما أقصده بحديثي. ها هي فكرتي:

سوف يقوم الشخص الذي سيموت، خلال الأشهر الثلاث المقبلة برسم كل ما بإمكانه من لوحات، أي أن عليه أن يعمل على زيادة مخزون ما لديه من لوحات بقدر ما سيكون بإمكانه أن يفعل ذلك: لن يرسم الصور، لا! وإنما سيرسم بعض الاسكتشات، والرسوم التخطيطية، والتأملات سوف يرسم لوحات لمواضيع من شأنها أن تلفت النظر، وسوف يضع على كل منها بعض اللمسات الخفيفة بالفرشاة ــ لمسات لا معنى لها بالطبع ــ لكنها وبعد أن يضع عليها الرمز الخاص به (كتابة بتوقيع معين) سوف تصبح مائة بالمئة ذات خصوصية، وسوف يكون لها نمطية معينة بإمكان المرء أن يكتشفها بسهولة، وسوف يعلم بذلك بأنها تعود إلى ذلك الشخص ــ أتعلمون،هذه هي الأشياء التي تُباع الآن، وهذه هي الأشياء التي يقتنيها الناس بأسعار خرافية، وهي أيضاً الأشياء التي يتم إيداعها في المتاحف بعد أن يموت الرجل العظيم. سوف نُعدّ لهذه اللوحات ما يشير إلى طابعها الخاص وهكذا... في ذلك الوقت، وسوف ينشغل بقيتنا في ذلك الوقت بمُساندة

ذلك الشخص الذي يحتضر، وبإعداد التحضيرات اللازمة للحَدث المقبل على مستوى مدينة باريس وسماسرتها وهكذا... وعندما ستصل الأمور إلى مرحلة النضوج، أي عندما سنكون قد أصبحنا على أهبة الاستعداد تماماً، سوف نعلن نبأ الوفاة، وسوف يتم ذلك التشييع الرائع.

– هل وصلتكم الفكرة؟

– ل..لا، ليس تماماً على الأقل.

– ليس تماماً ؟ ألا تدركون معنى ما أقوله؟ لن يموت ذلك الرجل بالفعل. وإنما سوف يقوم بعد إعلان الوفاة بتغيير اسمه وبالاختفاء. سوف سنقوم بدفن دمية، وسوف نزرف الدموع عليه بمشاركة كل العالم. وسوف أقوم...

لكنّا لم نكن قد سمحنا له حتى بإكمال حديثه.، أطلق الجميع الهتافات والتصفيق.، ووثبوا وقفزوا فرحاً في أنحاء الغرفة، وعانق كل منهم الآخر وهم في حالة من نشوة البهجة والامتنان. ثم كنا بعد ذلك قد تحدثنا لساعات حول تفاصيل تلك الخطة الرائعة حتى دون أن نشعر بالجوع. وفي آخر الأمر، وبعد أن انتهينا من إعداد الترتيبات المناسبة لجميع تفاصيل تلك الخطة، قمنا بتوزيع الأدوار. كان الاختيار قد وقع على ميليه. كان قد تم اختيار ميليه لكي يموت. وكنا بعد ذلك قد جمعنا ما نحتاجه من الأشياء التي ليس بإمكان المرء أن يتخلى عنها إلى أن يصبح الرهان عليها في المستقبل لقاء ثروة حقيقية، من هدايا تذكارية ومن أشياء تافهة وما شابه ذلك, حيث قمنا برهن تلك الأشياء لقاء مبلغ استطعنا بواسطته أن نضمن لأنفسنا عشاءً اقتصادياً وإفطاراً وداعياً للجميع. كما توفرت لدينا بعض الفرنكات لتغطية نفقات السفر ولشريحة من اللفت، وما شابه ذلك مما يمكن أن يقتات عليه ميليه لبضعة أيام.

وفي باكورة صباح اليوم التالي، كنا فور انتهاء وجبة الإفطار قد انطلقنا نحن الثلاثة ــ مشياً على الأقدام بالطبع– وكان كل منا يحمل مجموعة من لوحات ميليه الصغيرة الحجم لكي يعرضها للبيع في الأسواق. أما كارل فقد توجه إلى باريس لكي يتولى مهمّة بناء شهرة ميليه إلى أن يحين اليوم الموعود.، وكان علينا أنا وكلود أن نفترق لكي نتجول في جميع المدن الفرنسية.

وسوف تُدهش الآن عندما ستتبيّن مدى السهولة واليسر التي تمت به الأمور. كنت قد مشيت لمدة يومين قبل البدء بتنفيذ مشروعي الذي كان بأن بدأت برسم تخطيطي لفيلا تقع خارج إحدى

المدن الكبرى. ذلك لأنني كنت قد شاهدت المالك واقفاً على شرفتها العليا وكان المالك قد جاء إلي لكي يُشاهدها ــ كنت أعلم بأنه سوف يفعل ذلك لذا عملت بسرعة لكي أحاول جلب انتباهه إليّ – كان الرجل يُطلق بين الفينة والأخرى صيحات تدّل على الاستحسان، كانت قد تحدث معي من حين لآخر بكل حماس ثم قال لي بأنني أعتبر أستاذاً في هذه المهنة !

كنت حينئذ قد وضعت فرشاتي جانباً، ثم بحثت في الحقيبة وأخرجت منها إحدى لوحات ميليه، التي كنت قد وضعت على زاويتها الشيفرة المتفق عليها والتي ترمز لاسمه، وقلت بتفاخر:
– أعتقد أنك تعرف هذا الرجل ؟ حسناً، هذا هو الرجل الذي علمني رسم اللوحات! أعتقد بأن علي بذلك أن أجيد مهنتي؟

نظر إلي الرجل بارتباك،وكأنه يشعر بالذنب ثم التزم الصمت. ثم قلت له بلهجة تنم عن الحزن:
– لا أعتقد أن صمتك يُشير إلى أنك لا تعرف توقيع فرانسوا ميليه؟

سألني – لماذا؟

لم يكن ذلك الرجل يعرف شيئاً بالطبع عن تلك الشيفرة، لكنه كان الشخص الأكثر لطفاً ممن قد تكون قد قابلتهم طوال حياتك. لأنه قال لي لكي يتخلص من ذلك الموقف الحرج، وبعبارات مريحة جداً:
– لا، لماذا ؟ هو ميليه بالطبع، لست أدري ما الذي كان يدور في ذهني، عرفته الآن بالطبع.

ثم أبدى رغبته بشِراء تلك اللوحة، لكنني قلت له : على الرغم من أنني لست ثرياً فأنا لست فقيراً إلى هذا الحدّ. وكنت في آخر الأمر قد تركته يحصل عليها لقاء ثمانمئة فرنكٍ.

أبديت دهشتي بالقول " ثمانمئة فرنكٍ فرنسي!

أجاب" نعم، تلك هي اللوحة التي كان ميليه سيبيعها لقاء شريحة واحدة من اللحم.

"نعم، كنت قد حصلت على ثمانمئة فرنكٍ فرنسي لقاء ذلك الشيء الصغير، ومع ذلك فأنا الآن أتمنى استعادتها منه لقاء ثمانية آلاف فرنكٍ. لكن ذلك الزمن مضى وفات... وكنت قد رسمت أيضاً صورة جميلة جداً أخرى لمنزل ذلك الرجل كنت أرغب في أن أعرضها عليه بمبلغ عشرة فرنكات فقط ، لكن لم يكن الأمر سيتناسب مع كوني تلميذاً لمثل ذلك الأستاذ، لذا بعتها إليه بمبلغ مئة فرنك.

ثم قمت على الفور بإرسال الثمانمئة فرنكٍ إلى ميليه، وكنت في اليوم التالي قد انطلقت من جديد في جولتي تلك.

لكنني لم أكن قد ذهبت هذه المرّة مشياً على الأقدام ــ لا، وإنما كنت قد امتطيت ركوبة. كما أصبحت منذ ذلك اليوم أمتطي ركوبة.منذ ذلك كنت أبيع لوحة واحدة فقط في اليوم، ولم أكن أحاول بيع اثنتين، وما كنت أفعله هو أنني أقول دوماً لزبوني:

– أنا مخبول بأن أبيع إحدى لوحات فرانسوا ميليه، لأن ذلك الرجل لن يعيش أكثر من ثلاثة أشهر أخرى، وعندما سيموت لن يكون بالإمكان اقتناء لوحاته لا بالحب ولا بالمال.

كنت قد حرصت على نشر ذلك الأمر على أبعد مدى ممكن، وبذلك كنت أهيئ العالم لذلك الحدث.

كما أنني كنت قد استفدت شخصياً من تلك الخطّة، ذلك لأن خطتنا لبيع اللوحات كانت خطتي، وهي الخطة التي كنت اقترحتها في الليلة التي سبقت انطلاقنا في حملتنا، حيث كنا قد وافقنا نحن الثلاثة على أن نقوم بمحاولة جديّة لتطبيق تلك الخطّة قبل أن نتخلى عنها لكي نبدأ بتجربة خطّة أخرى. وكانت الخطة قد نجحت بالنسبة إلينا جميعاً، بحيث لم أكن قد اضطررت للتجول سيراً على الأقدام سوى لمدة يومين فقط، كما كان كلود قد سار في اتجاه آخر مدة يومين فقط. كان كلانا يخشى من نشر شهرة ميليه في منطقة قد تكون قريبة من منطقة إقامته، أما كارل فكانت مسيرته لمدة نصف يوم فقط. ذلك النذل اللامع الذكاء العديم الضمير! وكان بعد ذلك يسافر كالدوق.

وكنا من فترة لأخرى نلتقي في القرى مع أحد الصحفيين، وبذلك كنا قد بدأنا بنشر نبأ الحدث المرتقب من خلال الصحافة. لكن ما كنا ننشره من أنباء لم يكن عن اكتشاف أو عن ولادة رسام

جديد، وإنما كان النبأ الذي سيجعل الجميع يعرفون من هو فرانسوا ميليه. كما لم يكن ذلك أيضاً للإشادة به بأية طريقة، وإنما كان عبارة عن بضع كلمات تشير فقط إلى الحالة الصحية "للأستاذ"... كانت تلك الأنباء تتسم أحيانا بالأمل، وكانت في أحيان أخرى توحي باليأس، لكنها كانت دوماً مُشبعة بمسحة من التوجس من الأسوأ. وكما كنا نؤشر دوماً على تلك الفقرات بشكل مُميّز ونرسل تلك الصحف إلى جميع الأشخاص الذين كانوا قد اشتروا منا اللوحات.

كان كارل قد وصل بسرعة إلى باريس، وكان ينفذ الأمور بكفاءة عالية، فقد استطاع أن يحصل على صداقة الكثير من المراسلين الصحفيين. كما استطاع أن يُشيع نبأ مرض ميليه في انكلترا، وفي جميع أنحاء القارة الأمريكية، وفي كل مكان في العالم.

وفي نهاية الأسابيع الست اعتباراً من يوم البداية، كنا قد التقينا نحن الثلاثة في باريس. لم نعد نطلب من ميليه إرسال أية لوحات إضافية، ذلك لأن الموضوع كان قد انتشر كثيراً، وبذلك كانت الأمور قد نضجت تماماً. لذا وجدنا بأنه سيكون من الخطأ ألا نعمد إلى ضرب ضربتنا في الحال ، وبأن من الخطأ أن ننتظر لمدة أطول. وبذلك كتبنا إلى ميليه، وطلبنا منه أن يمكث في الفراش، وأن يبدأ بالتدريج بادعاء المرض، لأننا نريده أن يموت خلال عشرة أيام، هذا لو كان بإمكانه أن يستعد لذلك !...

ثم قمنا بعد ذلك بعملية حسابية، تبين لنا بموجبها بأننا كنا قد تمكنّنا معاً من بيع خمسة وثمانين لوحة واسكتشاً. وبأننا حصلنا بذلك على مبلغ تسع وستين ألف فرنكٍ فرنسي. وكان كارل الذي أثبت بأنه أكثرنا نجاحاً في عمله، قد أنجز آخر عملية بيع فقد تمكن من بيع لوحة "صلاة التبشير" بمبلغ ألفين ومئتي فرنك.

وكم كنا في حينه قد أشدنا بالإنجاز الذي حققه!... ذلك لأننا لم نكن نتوقع بالطبع أن يأتي اليوم الذي سوف يكافح فيه فرانسوا بالذات للحصول على ذات اللوحة، وبأن أحد الغرباء سوف يحصل عليها بمبلغ نقدي قدره خمسة آلاف وستمائة فرنك.

احتفلنا تلك الليلة بتناول عشاء ختامي، ثم قمنا أنا وكارل في اليوم التالي بحزم أغراضنا وعدنا لكي نتولى رعاية ميليه في أيامه الأخيرة، ولكي نُبعد الفضوليون عن المنزل، ولكي نقوم

بإرسال الأخبار اليومية إلى كارل في باريس. الذي كان يتولى نشرها في مختلف الصحف التي تصدر في جميع المقاطعات، لكي يطّلع عليها كل العالم...

وكانت تلك النهاية الحزينة قد جاءت في آخر الأمر. وكان كارل أيضاً هناك لكي يُشارك في الطقوس النهائية للتشييع.

وأنت تذكر بالطبع ذلك المأتم الكبير، وما كان قد أحدثه من أثر في كل الكرة الأرضية، وكيف كانت الصحف في العالمَين قد تحدثت عنه بإسهاب تعبيراً عن حزنها لوفاة ميليه... وكنا نحن الأربعة ونحن لا نزال على تلازمنا معاً، قد حملنا النعش معاً ولم نسمح لأحد بالمشاركة بحمله معنا، لأنه لم يكن بداخل ذلك النعش سوى تمثال من الشمع، وبذلك كان بإمكان أي شخص قد يشارك في حمل النعش أن يكتشف النقص في الوزن. نعم, نحن الأربعة الذين كانوا قد تشاركوا سابقاً بكل محبة بالحرمان في تلك الأيام والأوقات الصعبة ، كنا أيضاً من حملنا ذلك النعش معاً...

سألته:

– من أنتم الأربعة؟

– نحن الأربعة ــ أتعلم، كان ميليه قد ساعد في حمل نعشه، وهو مُتنكّر بزيّ أحد الأقرباء، قريب بعيد.

– مدهش

– هذه هي الحقيقة كما حدثت تماماً. حسناً، وأنت لابد تذكر كم كانت قد ارتفعت أسعار تلك اللوحات. أما عن الأموال؟ فلم نعد ندري ما نفعله بها., وهناك اليوم شخص في باريس يمتلك سبعين من لوحات ميليه كان قد دفع ثمنها مليوني فرنكٍ.

أما بالنسبة إلى مجموعة الرسوم التخطيطية التي كان ميليه قد رسمها بالفرشاة خلال الأسابيع الست التي كنا أثناءها في تجوالنا، فسوف تُدهش عندما ستعلم بأننا في ذلك الوقت كنا قد تمكنّا أيضاً من بيع جميع تلك اللوحات!. هذا هو الوضع عندما توافق على ترك الشخص يتصرف!...

– قصة رائعة، رائعة بالفعل.

– نعم، هي تستحق ذلك.

– وما الذي آل إليه أمر ميليه؟

– هل بإمكانك أن تحفظ السرّ؟.

– بإمكاني ذلك بالطبع .

– هل تذكر الرجل الذي كنت قد لفتت انتباهك إليه اليوم في غرفة الطعام ؟ هذا هو فرانسوا ميليه.

– عظيم !

– نعم. هذا لأننا, ولمرّة واحدة لم نكن قد تركنا أحد العباقرة يموت من الجوع لكي نقوم بعد ذلك بوضع ما كان يجب أن يحصل عليه بنفسه من جوائز في جيوب أشخاص آخرين. ولم نسمح بأن يُطلق ذلك الطائر تغريده من قلبه دون أن يسمعه أحد، لكي تتم مكافأته بعد ذلك بأبّهة باردة لجنازة عظيمة. هذا ما كنا نهدف إليه! ...

قصّة التحرّي المزدوج

1

كان المسرح الأول للأحداث في ولاية فيرجينيا وفي العام 1880، هو حفل زفاف بين رجل وسيم قليل الموارد المالية وفتاة شابة ثرية. حالة حبّ من النظرة الأولى، زواج مُتسرّع اعترض عليه والد الفتاة الأرمل.

يعقوب فولر العريس شاب في السادسة والعشرين من العمر، ينحدر من عائلة عريقة، ولكن لم تكن لتلك العائلة أية مكانة اجتماعية، نظراً لأنها كانت قد هاجرت قسريّاً من سيدغيمور. وبذلك قال الجميع، البعض منهم بخبث، والباقون لاعتقادهم ذلك فعلاً، بأن ذلك كان بسبب الملك جيمس.

أما العروس فهي فتاة جميلة في التاسعة عشر، قويّة الشخصية، من مستوى رفيع، فخورة إلى حدّ كبير بأصلها النبيل، إلا أنها كانت بذات الوقت عاطفية جداً مما جعلها تهيم بحب زوجها الشاب. كانت الفتاة قد تحدّت لأجله استياء والدها، احتملت توبيخه لها، واستمعت إلى تحذيراته وتوقعاته لمساوئ ذلك الزواج دون أن يتزعزع إيمانها بالشخص الذي أحبته.، وكانت قد غادرت منزله دون أن تحصل على بركته، وهي فخورة وسعيدة بما كانت تُدليه من براهين حول طبيعة العاطفة التي جعلت ذلك الرجل يحتل تلك المكانة في قلبها.

ولكن وفي صباح اليوم التالي لزواجها منه، كانت بانتظارها مفاجأة مُحزنة. كان زوجها قد وضع جانباً تلك المغازلات اللطيفة وقال لها:

– اجلسي! لدي ما أعلمك به. لقد أحببتك ولكن ذلك كان قبل أن أطلب من والدك تزويجك لي. لم يكن رفضه لي ما كدّرني، كان بإمكاني أن احتمل ذلك، ولكن الأشياء التي رواها لك عني، أمر آخر ومختلف تماماً . لا حاجة لأن تقولي شيئاً، فأنا أعرف جيداً ما قاله. عرفت ذلك من مصادر موثوقة. كان من بين الأشياء التي رواها لك عني أن قال لك بأن شخصيتي تبدو على سِمات وجهي. وبأنني لست سوى شخص مُخادع، مُتصنع، مُرائي، جبان، ليس لديه أدنى إحساس بالشفقة أو بالتعاطف.، وكان قد أطلق علي أيضاً عبارة " العلامة التجارية لنبات الحَلفاء" وعبارة: "علامة الكمّ الأبيض".

ثم قال:

– أي رجل آخر في مكاني كان سيذهب إلى منزله، لكي يُطلق عليه النار ويُرديه قتيلاً كالكلب. كنت قد رغبت القيام بذلك، بل كنت أعتزم القيام به، ولكن خطرت ببالي فكرة أفضل: وهي بأن ألحق به العار!.. وبأن أحطم قلبه وأن أقتله بالتدريج... كيف سأفعل ذلك ؟ سوف يكون من خلال تعاملي معك، أنت محبوبته ! وبأن أتزوجك وبعد ذلك...كوني صبورة. فسوف ترين!..

وكانت الزوجة الشابة منذ تلك اللحظة، ولمدة ثلاثة أشهر، قد عانت من جميع أشكال الإذلال والإهانات والبؤس التي كان بإمكان الذهن المُبدع والمتّقد بالحقد لذلك الزوج أن يبتدعها، وهذا أيضاً ماعدا جميع أنواع الأذيّات البدنية. إلا أن كبرياءها كان نصيراً لها، وبذلك كانت قد احتفظت لنفسها فقط بسرّ ما تُعانيه من المتاعب.

كان زوجها يقول لها من حين لآخر:

– لم لا تذهبي إلى والدك لكي تشتكي إليه؟

ثم يبتدع المزيد من الأساليب الجديدة لتعذيبها., وكان بعد أن يُوقع بها تلك الأساليب, يسألها من جديد عن سبب عدم شكواها لوالدها، لكنها كانت دوماً تجيبه:

– لن يعرف أبي ذلك مني أبداً. ثم كانت تسخر من أصله بأن تقول له بأنها أصبحت الآن الجارية الشرعية لمن هو من سلالة العبيد، لذا عليها أن تُطيعه، وسوف تفعل ذلك. وأن بإمكانه أن يقتلها لو رغب بذلك، لكنه لن يتمكن من تحطيمها وبأن أصل " سيدغيمور" لن يجعله يفعل ذلك.

بعد مضي ثلاثة أشهر على زواجهما قال لها زوجها ذات يوم بأسلوب غامض:

– كنت قد جربت معك جميع الأساليب ماعدا أسلوب واحد. وانتظر أن تُجيبه...

قالت وهي تلوي شفتيها باستهزاء:
– لتجرب ذلك!

وفي تلك الليلة كان زوجها قد نهض من فراشه في منتصف الليل ثم قال لها بعد أن ارتدى ملابسه:
– انهضي وارتدي ملابسك!

امتثلت لأمره ــ كعادتها. ثم كان أن اصطحبها بعد ذلك إلى مسافة تبعد حوالي الميل عن المنزل، وبدأ يشدّ وثاقها إلى شجرة بجانب الطريق، وهي تصرخ وتحاول التخلّص منه. وكان بعد انتهى أخيراً من ذلك، قد كمّ فمها وضربها على وجهها بسوطه الجلدي، ثم قام بتسليط كلابه البوليسية عليها. وبعد أن مزّقت الكلاب ثيابها إلى أن أصبحت عارية تماماً نادى كلابه وقال لها:
– سوف يعثر عليك المارون من هنا. سوف يمرون بعد حوالي ثلاث ساعات من الآن، وسوف ينشرون الأنباء ــ هل تسمعين؟ وداعاً، ها قد رأيت آخر ما لدي! ثم ذهب في طريقه...

أخذت تتأوّه وتُحدث نفسها:
– سوف ألد له طفلاً، وأرجو الله أن يكون ذلك الطفل صبياً.

ثم كان المزارعون الذين مروا من هناك بعد وقت قصير قد حرّروها من قيودها., وكان من الطبيعي أن ينشروا الأنباء حول ذلك. ثم بحثوا عنه في جميع أنحاء البلدة بنيّة إعدامه حتى دون محاكمته قانونياً، لكن العصفور كان قد طار...

بعد ذلك, كانت الزوجة الشابة قد حبست نفسها في منزل والدها.، وكان والدها أيضاً قد حبس نفسه معها، ولم يعد يقابل أحداً., كان ما حدث لابنته قد حطم قلبه وأهان كبرياءه., وبذلك بدأت صحته تتراجع يوماً بعد يوم، مما جعل حتى ابنته تشعر بالفرح عندما أسعفه الموت بالراحة الأبدية...

قامت الزوجة الشابة بعد ذلك ببيع كل ما لديها من الممتلكات واختفت.

2

في العام 1886، كانت امرأة شابة تعيش في بيت متواضع بجانب قرية نيو إنكلاند المنعزلة دون أية رفقة سوى طفل صغير في حوالي الثامنة من عمره. كانت تقوم بجميع أعمالها بنفسها، وكانت تبتعد عن جميع العلاقات الاجتماعية. وبذلك لم يكن لا لدى اللحام أوالخباز أوغيرهم ممن كانوا يقدمون لها الخدمات، ما يقولونه عنها للقرويين، سوى أن اسم عائلتها "ستيلمان" وبأن لديها طفل اسمه آرشي. كما لم يكن بإمكانهم أن يعرفوا من أين أتت، لكنهم كانوا يقولون بأنها تتحدث بلهجة سكان الجنوب. كما لم يكن لذلك الطفل أيضاً أي رفاق أو أصدقاء أو حتى من يقوم بتدريسه سوى والدته.

كانت والدته قد تولّت تدريسه بكل مثابرة وذكاء وكانت سعيدة بما حققته من نتائج, حتى أنها كانت فخورة بذلك بعض الشيء.

وذات يوم، قال لها آرشي:

– أمي، هل أختلف عن باقي الأطفال؟

أجابت:

– حسناً، لا أعتقد ذلك. لماذا؟

– كانت قد مرّت بجانبي منذ قليل طفلة صغيرة وسألتني فيما إذا كان ساعي البريد هنا., وأجبتها بنعم، ثم سألتني منذ متى كنت قد رأيته؟ وقلت لها بأنني لم أره على الإطلاق. ثم قالت لي: فإذن كيف بإمكانك أن تقول بأنه كان هنا؟ أجبتها : ذلك لأنني شممت أثره إلى جانب الطريق، وكان أن هزأت بي وقالت لي بأنني لست سوى شخص مخبول. أمي، لِم فعلت تلك الطفلة ذلك ؟

شحب وجه المرأة الشابة وحدثت نفسها: " هذه علامة خَلقية! لابد أن لديه هبة "حاسة شمّ الكلب البوليسي".

ثم ضمت الأم طفلها إلى صدرها بقوّة وعانقته بكل محبة وهي تقول "ها قد رسم لك الله الطريق".

ثم لمعت في عينيها نظرة ضارية، وأخذت أنفاسها تتلاحق وتتسارع لشدة الانفعال وحدثت نفسها:

– ها قد تمّ حلّ اللغز.، كان الأمر بالنسبة إلي أحجية لأكثر من مرّة، فلم يكن بإمكاني تفسير تلك الأشياء المستحيلة التي كان الطفل يقوم بها في الظلام، لكن جميع الأمور قد أصبحت واضحة أمامي الآن.

ثم وضعت الطفل في كرسيه الصغير وقالت:

– حبيبي, انتظر قليلاً ريثما أعود إليك، وسوف نتحدث عن هذا الأمر بعد ذلك.

ثم صعدت إلى غرفتها. تناولت من طاولة الزينة عدّة أشياء صغيرة وقامت بإخفائها في أماكن مختلفة : وضعت علبة الأظافر تحت السرير، ووضعت زوج المِقصات تحت المكتب، ووضعت فتّاحة الأوراق العاجية تحت خزانة الملابس. ثم عادت إليه وقالت:

– تركت في الأعلى بعض الأشياء التي كان عليّ أن أجلبها إلى الأسفل. وبعد أن قامت بتسمية تلك الأشياء قالت له: – فلتصعد إلى الأعلى وتجلبها لي".

ركض الطفل لأداء مهمته ثم عاد بسرعة ومعه جميع تلك الأشياء.

سألته والدته :

– هل وجدت صعوبة في العثور عليها ؟"

أجاب الطفل

– لا، أمي كل ما فعلته هو أنني قمت بجلبها من المكان الذي كانت فيه.

وكانت والدته أثناء غيابه، قد توجهت إلى المكتبة., تناولت عدّة كتب من الرفّ العلوي، وبعد أن فتحت كل منها على إحدى الصفحات، مرّرت يدها على تلك الصفحات وأعادتها إلى أمكنتها بعد أن احتفظت في ذاكرتها بأرقامها. ثم قالت لطفها:

" آرشي، كنت أقوم هنا بشيء ما بعد ذهابك، هل تعتقد بأن بإمكانك أن تعرف ما هو ؟"

توجه الصبي على الفور نحو المكتبة وجلب الكتب التي كانت قد فتحتها، ثم فتح الصفحات التي كانت قد مرّرت يدها عليها...

حينئذ حضنته والدته وقالت:

– والآن حبيبي، سوف أجيب على أسئلتك. لقد اكتشفت بطريقة ما، بأنك تختلف تماماً عن

الآخرين، وبأن بإمكانك أن ترى في الظلام، كما بإمكانك أن تشمّ الروائح التي ليس بإمكان الآخرين أن يشمّوها، لأن لديك حواس الكلب البوليسي. يُعتبر هذا من الأمور الجيدة والقيّمة، ولكن عليك أن تترك هذا الأمر سراً., فلو اكتشف الآخرون ذلك، سوف يقولون بأنك طفل شاذ غريب الأطوار، وسوف ينعتونك بمختلف الصفات، كما قد يُسيء باقي الأولاد إليك. على المرء في هذا العالم أن يكون مثل الآخرين، إن لم يكن يرغب في إثارة حسدهم وغيرتهم وازدرائهم. من الجيّد أن تكون قد ولدت ولديك هذه الهبة العظيمة والمميّزة. أنا سعيدة بذلك.، لكنك ستحتفظ بذلك سراً كما طلبت منك ولأجل والدتك.أليس كذلك ؟

وكان الطفل قد وعدها بذلك دون أن يفهم شيئاً مما قالته.

ثم كان ذهن والدته قد شُغل طوال ذلك اليوم بالتفكير بالكثير من الأمور المثيرة: خطط، مشاريع ومخططات، كل منها وجميعها غريبة، مروعة وغامضة. كانت تلك الأفكار، بما تضمنته من نيران مبهمة من جحيم، تنعكس على وجهها وتُسقط عليه ضياؤها. كانت محمومة لشدة الاضطراب، ولم تكن تتمكن من الجلوس،أومن الوقوف أومن القراءة., وكانت طوال الوقت تُحدث نفسها بينما يجول ذهنها في الماضي:

– كان قد حطم قلب والدي، وكنت طوال السنوات الماضية أفكر ليلاً نهاراً بطريقة أحطم بها قلبه ولكن دون جدوى. وها قد وجدتها الآن. وجدتها الآن..."

ثم استمرت في إجراء اختباراتها إلى أن حلّ الليل وكان شيطان القلق لازال يُسيطر عليها. كانت تتجول في أنحاء البيت وبيدها شمعة من العليّة إلى القبو. تقوم بإخفاء الدبابيس والكشاتبين ومِكبات الخيوط ، تحت الوسائد وتحت البسط، وفي شقوق الجدران وتحت صناديق الفحم، ثم ترسل الصغير لكي يعثر عليها في الظلمة. وكانت كلما فعل ذلك، تشعر بالمزيد من السعادة والفخر ثم تُطري عليه وتغمره بقبلاتها.

ومنذ ذلك الوقت كانت حياتها قد أخذت مظهراً جديداً، وكانت تُحدث نفسها دوماً وتقول:

" تم الآن ضمان المستقبل. بإمكاني الآن أن أنتظر وأن أستمتع بالانتظار".

وتوقّدت من جديد جميع اهتماماتها السابقة . عادت إلى الاهتمام بجميع مباهج أيام بكورتها (ما قبل زواجها) وهي الاهتمامات التي كانت قد تخلّت عنها لمدة طويلة، من موسيقى ولغات

ورسم وغير ذلك., وأصبحت تشعر من جديد بالسعادة وبنكهة الحياة. كانت ترقب تطور ونمو ولدها مع مرور السنوات، وتشعر بالرضى بذلك، ولكن ليس تماماً، وليس في جميع الأمور وإنما على وجه التقريب. ذلك لأن الجانب الطيّب في نفسه كان أقوى من الجانب الآخر. كان ذلك في نظرها عيبه الوحيد، لكنها اعتبرت أن محبته لها وولعه الشديد بها لابدّ وأن يسوّي الأمور بالنسبة إليه. كان من النوع الذي يحمل الضغائن وهذا أمر جيّد ! لكن السؤال كان فيما إذا كان ذلك مَدعاة لأن تكون أسباب أحقاده من النوع العنيف والثابت، كما هو الوضع بالنسبة إلى مشاعره الوديّة، لأن ذلك لن يكون من الجيّد تماماً.

ومع مرور السنوات كان آرشي قد أصبح فتى وسيم الشكل، جميل الطلعة، كما كان رياضياً، دمث التصرف، نبيلاً، حلو المعشر، لطيفاً في تعامله. كما أنه عندما أصبح في السادسة عشر كان قد أصبح يبدو أكبر قليلاً من سنه الحقيقي.

وذات مساء كانت والدته قد أعلمته بأن لديها ما ستُعلمه به وبأن ما ستقوله من الأمور التي تعتبر في غاية الأهمية والخطورة., فقد أصبح الآن في السن الذي تسمح له بسماع ما سوف تقوله, وبأنها السن المناسبة لاطّلاعه على ما سوف ترويه له., وبأن لديه ما يكفي من الصفات الخُلقية والاتزان، مما سوف يؤهله لتنفيذ خطّة قاسية كانت تُخطط وتعدّ لها بتروٍ منذ عدة سنوات. ثم روت له قصتها المريرة بكل ما فيها من شناعة...

ظلّ الفتى مشدوهاً لبعض الوقت ثم قال :

– أنا أفهم ما تفكرين به. فنحن من الجنوب، وبحسب تقاليدكم وطبيعتكم ليس هناك سوى طريقة واحدة للتكفيرعن الأمر (للتعويض). سوف أبحث عنه وأقتله.

– تقتله ! لا ! الموت خلاص، وعتق، وهو حظوة ومِنّة وفضل، فهل أدين له بذلك ؟ لا، يجب ألا تمسّ شعرة واحدة من رأسه.

وكان الفتى قد استغرق للحظة في أفكاره ثم قال:

– أنت كل من لدي في هذا العالم, و رغبتك بمثابة القانون بالنسبة إلي, وسوف يسرني تنفيذها. اطلبي مني ما تريدين أن أفعله، وسوف أفعل ذلك.

لمعت عينا والدته رضاً وقالت:

– سوف تذهب لكي تعثر عليه. استطعت أن أعرف الآن المكان الذي يختبئ فيه منذ أحد عشرعاماً. كنت قد احتجت إلى خمس سنوات من البحث وللكثير من المال لمعرفة مكانه. هو الآن صاحب منجم معادن في كولورادو وأموره على ما يرام وهو يعيش في دينفر واسمه يعقوب فولر. هذا هو الموضوع ــ وهذه هي المرّة الأولى التي أنطق بها باسمه منذ تلك الليلة التي لايمكن أن تُنسى. هل تتصوّر بأن هذا الاسم كان سيصبح اسمك ما لم أقم بإنقاذك من العار بأن منحتك اسماً نظيفاً!.

سوف توصله إلى الحدّ الذي سوف يجعله يترك ذلك المكان. سوف تتبعه إليه وتطرده منه مرّة أخرى. ثم مرّة أخرى، ومّرة أخرى، ومرّة أخرى باستمرار ودون هوادة. سوف تُسمّم حياته وسوف تملأها بالمخاوف الغامضة. سوف تشحنها بالمتاعب وبالبؤس إلى أن تقوده إلى أن يتمنى الموت. وإلى أن تصبح لديه شجاعة الانتحار. سوف تحوّله إلى " يهودي تائه "، ولن يعرف الراحة بعد الآن، لا راحة النفس، ولا النوم الهادئ. سوف تتبّعه كظلّه وستلتصق به وتضطهده إلى أن تُحطم قلبه كما كان قد حطم قلب والدي وكما كان قد حطم قلبي.

– سوف أطيعك, أمي !
– أنا أصدقك، ولدي !

ثم قالت – قمت بإعداد كافة التحضيرات لذلك.، وأصبح كل شيء جاهزاً الآن. هذه بطاقة اعتماد باسمك.، بإمكانك أن تُنفق المال بحرّية فنحن لا ينقصنا المال. وقد تحتاج في بعض الأحيان إلى التنكّر.، لذا قمت بتأمين ما يلزمك لذلك، هذا بالإضافة إلى بعض وسائل الراحة الأخرى.

ثم أخرجت من درج طاولة المكتب عدة قصاصات من الورق طُبعت على كل منها الكلمات التالية:

جائزة 10,000 دولار

نُمي إلينا بأن أحد الرجال المطلوبين للعدالة في إحدى ولايات المنطقة الشرقية يُقيم هنا. كان هذا الرجل ذات ليلة من العام 1880، قد ربط زوجته الشابة على شجرة بجانب الطريق العام, ثم قام بتجريح وجهها بسوطه، وجعل كلابه تُمزق ثيابها., ثم تركها عارية تماماً هناك وهرب من البلدة. يقوم أحد أقربائها الآن بالبحث عنه منذ سبعة عشرعاماً. سوف يتم دفع المكافأة المشار إليها أعلاه نقداً لمن سيقوم بالإعلام عن عنوان الشخص الذي يتم البحث عنه، وذلك أثناء مقابلة شخصية.

العنوان..... صندوق بريد.....

– عندما ستعثر عليه وتتعرف على أثره، سوف تذهب ليلاً وتقوم بإلصاق أحد هذه الإعلانات على المبنى الذي يشغله، كما ستُلصق نسخة ثانية من الإعلان على جدار مكتب البريد، أو في غير ذلك من الأماكن البارزة في البلدة. وبذلك سوف يصبح مداراً لحديث المنطقة.عليك في بادئ الأمر أن تمنحه بضعة أيام سيُجبر خلالها على بيع ممتلكاته بما يقارب قيمتها الحقيقية. ثم ستعمل على أن تقوده تقريباً إلى الإفلاس ولكن بالتدريج. علينا ألا نقوم بإفقاره على الفور، لأن ذلك سوف يقوده إلى اليأس وسوف يضر بصحته وقد يتسبب في موته.

ثم تناولت من الدرج ثلاثة أو أربعة من تلك الأوراق المطبوعة – مع بعض النسخ المطابقة للأصل وقرأت إحداها:

إلى يعقوب فولر:

لديك مهلة 18 يوماً لتصفية أعمالك. لن تتم مضايقتك خلال هذه الفترة التي سوف تنتهي في صباح يوم..... من العام..... سوف يكون عليك بعد ذلك أن تُغادر المكان. ولو مكثت في هذا المكان بعد الساعة المحددة، فسوف أعلن مرّة أخرى على الجدران كل تفاصيل جريمتك بعد أن أضيف إليها المعلومات المتعلقة بالتاريخ والمكان وبجميع أسماء أصحاب العلاقة، وهذا بالإضافة إلى اسمك. لا تخف من الأذيّة الجسدية فلن يتم إيقاعها بك تحت أية ظروف. كنت قد تسببت في

تعاسة رجل عجوز، دمرت حياته وحطمت قلبه. وعليك الآن أن تُعاني ماعاناه بسببك.

لن تضيف إليها أي توقيع. يجب أن يستلم هذه الرسالة قبل أن يأخذ علماً بإلصاق الإعلان عن المكافأة – وقبل أن يستيقظ في الصباح ــ ما لم يفقد عقله ويفرّ من المكان بعد أن يُفلس.

– لن أنسى.

– سوف تحتاج إلى استخدام هذه النسخ في البداية فقط وقد تكفيك نسخة واحدة منها. أما بعد ذلك، وعندما سيصبح على استعداد للاختفاء من مكان تواجده، فيجب أن تعمل على أن يستلم نسخة من هذا النموذج الذي كتب فيه ما يلي فقط:

"غادر المكان. لديك..... أيام فقط "

وسوف يمتثل للأمر. وهذا مؤكد.

3

مقتطفات من الرسائل الموجهة من الفتى إلى والدته :

دينفر 31 نيسان(أبريل)1897

أنا أقيم حالياً ومنذ عدة أيام في ذات الفندق الذي يقيم فيه يعقوب فيلر. لدي الآن رائحته. وبإمكاني أن أميّزه وأن أعثر عليه بين عشرة رجال. كنت في كثير من الأحيان بالقرب منه وكنت أسمعه يتحدث. يمتلك فيلر منجماً يدرّ عليه دخلاً جيداً لكنه ليس ثرياً . كان قد تعلم التنقيب عن المعادن بشكل جيّد عندما عمل في هذا المجال لكسب عيشه. هو مخلوق مرح، لكنه لا يبدو في الثلاثة والأربعين، وإنما أصغر سناُ ــ لنقل في السادسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين، لم يتزوج ثانية ــ وهو يُعرّف عن نفسه كرجل أرمل. كما أنه يعيش بشكل جّيد، وهو محبوب ولديه العديد

من الأصدقاء وحتى أن له أيضاً بعض الشعبية., وحتى أنني بدأت أشعر أيضا ببعض الانجذاب إليه ــ وكأن صِلة الدم الأبوية تناديني ! كم هي عمياء وغير عقلانية واعتباطية بعض قوانين الطبيعة ؟ والحقيقة أن غالبيتها كذلك !. أصبحت مهمتي بذلك عسيرة الآن ــ أتدركين ذلك أمي؟ أتفهمينني وتلتمسين لي الأعذار؟ لقد خمدت تلك النار التي كانت في داخلي أكثر مما أودّ الاعتراف به لك وحتى للاعتراف بذلك لنفسي، لكنني سأستمر في مهمتي، رغم أن رغبتي في القيام بذلك قد تضاءلت، فيبقى أمامي الواجب، ولن أصفح عنه !

وما يُساعدني على ذلك هو الاستياء الذي يتصاعد في نفسي عندما أفكّر بأن الشخص الذي اقترف تلك الجريمة الشائنة هو الشخص الوحيد الذي لم يكن قد عانى منها. لابد أن الدرس الذي تلقّاه منها كان قد أصلح شخصيته بشكل ملحوظ وهو ولابد يشعر الآن بالسعادة بذلك التغيير.
هو الطرف المذنب، في مَعزل من كل معاناة، أما أنت الطرف البريء، فقد تحملت كل ذلك ولكن لتشعري بالعزاء أمي، فسوف يأخذ حصته من ذلك.

سيلفر غلوش 19 أيار (مايو)

قمت بإلصاق الإعلان رقم (1) في منتصف ليلة الثالث من نيسان (إبريل). كما قمت بعد مرور ساعة واحدة بدسّ النموذج الثاني تحت غرفته، وهو النصّ الذي أطالبه فيه بمغادرة دينفر في الساعة 11.30 ليلاً من يوم 4 نيسان (إبريل).

كما أن أحد المراسلين الصحفيين قام في وقت مُتأخر من الليل، بانتزاع الإعلان الذي ألصقته، ثم بحث في كل أنحاء البلدة إلى أن عثر على النسخة الثانية من الإعلان وسرقها أيضاً. وكان بتلك الطريقة قد أنجز ما يسمى في لغة المهنة " بالسَبق الصحفي" ــ هذا هو الأمر. فهو بذلك قد حصل على مادة صحفية قيّمة، بأن عَمل على ألا تحصل عليها أية صحيفة أخرى. وفي اليوم التالي قامت صحيفته ــ وهي الصحيفة الرئيسية في البلدة ــ بنشرها بشكل ظاهر على الصفحة الرئيسية. كما ألحقتها ضمن عمود طويل، بتعليق لاذع عن ذلك الحقير، مع تخصيصها من ميزانيتها لجائزة بقيمة ألف دولار، بالإضافة إلى الجائزة التي كنا قد حددناها لقاء تسليمه!... الصحف هنا تعرف جيداً كيف تقوم بعمل نبيل ــ عندما يكون في ذلك ما يُحقق لها مصلحة

تجارية.

وكنت أثناء تناولي الإفطار قد جلست في مكاني المعتاد الذي اخترته بحيث يكون بإمكاني أن أشاهد منه وجه أبي فولر، كما بإمكاني بقربه مني بهذا الشكل، أن أستمع إلى الحديث الذي كان يدور على المائدة. كان في الغرفة ما يقارب الخمسة وسبعين أو المائة شخص., وكان الجميع يتحدثون عن ذلك المقال ويقولون بأنهم يأملون بأن يتمكن الشخص الذي يبحث عن ذلك السافل من العثور عليه لكي يُطهّر البلدة من الدَنس الذي يتسبب به وجود مثله فيها ــ وليكن ذلك بواسطة قضيب حديدي أو برصاصة أو بأي شيء آخر.

وعندما دخل فولر كان يحمل بإحدى يديه نسخة الإنذار بالمغادرة ويحمل باليد الأخرى الصحيفة. وقد شعرت لدى رؤيته هكذا بأكثر من نصف غصّة ألم . فقد زال عنه مظهر البهجة وكان يبدو مُسناً، متألماً وذابلاً. والآن، أمي! فلتفكري فقط بكل الأشياء التي كان عليه أن يُصغي إليها ! لقد سمع العديد ممن لم يكونوا يشتبهون به بالطبع، يصفونه بأسوأ الألقاب و بأحطّ الصفات وبتلك العبارات التي يمكن أن تتضمنها القواميس والكتب عن أحقر الشياطين. وكان عليه فوق ذلك، أن يوافق على تلك الأحكام وأن يؤيدها. كان لذلك التأييد طعم المرارة في فمه، لكن ذلك لم يكن ليَخفى علي. كان من الجليّ بأن شهيته للطعام قد تبدّدت، فكل ما كان يفعله هو أنه كان يقضم الطعام دون أن يأكله. ثم قال أحد الرجال آخر الأمر:

– من المحتمل جداً أن يكون قريب ذلك الرجل في هذه الغرفة وبأنه يستمع الآن إلى رأي هذه البلدة بذلك النذل الذي لا مثيل له، وأنا آمل ذلك.

آه، يا عزيزتي، لو تعلمي مقدار فزعه! كانت الطريقة التي نظر بها حوله بفزع مثيرة للشفقة ! ولم يعد بإمكانه الاحتمال أكثر من ذلك وبذلك نهض وغادر المكان.

وخلال بضعة أيام، كان قد أعلن بأنه اشترى منجماً في مكسيكو، وبأنه يرغب ببيع كل شيء وبالذهاب إلى هناك بأسرع وقت لكي يُشرف بنفسه على أملاكه. وهكذا كان قد لعب بأوراقه بشكل جيّد.، ثم قال بأنه سيبيع منجمه بمبلغ 40.000 دولار، على أن يتم سداد ربع المبلغ نقداً، وأن يتم سداد المتبقي بموجب سندات أمانة، ولكن نظراً لحاجته الكبيرة إلى المال بسبب الصفقة الجديدة التي

تعاقد عليها، فسوف يُخفَض شروطه المتعلقة بالدفع النقدي لكامل المبلغ، وسيبيع بمبلغ 30.000 دولار... وما ظنك أمي بما فعله بعد ذلك؟ لقد طلب سندات ورقية وقبل بها، وقال بأن الرجل الذي اشترى منه المنجم في مكسيكو هو من نيوإنغلاند وبأنه غريب الأطوار، لذا فهو يفضّل الحصول إما على السندات أوعلى الذهب أو على الحوالات.

وكان جميع من حوله قد وجدوا بأن ذلك يبدو غريباً مادامت هناك إمكانية للتحويل المالي إلى نيويورك بالعملة الورقية وبكل سهولة. كان الحديث قد دار بينهم حول هذا الأمر الغريب ولكن ليوم واحد فقط، فهذا هو الوضع عادة بالنسبة لكل ما قد يحدث في دينفر.

كنت طوال الوقت أراقبه، حيث قمت على الفور من انتهاء عملية البيع ودفع المال، الذي كان قد تم في (11)، باقتفاء أثر فولر دون أن أضيع لحظة واحدة.

وكنت في تلك الليلة – لا، بل في الليلة (12) لأن الساعة كانت قد تجاوزت منتصف الليل بقليل, قد تتبعته إلى غرفته التي كانت على بعد أربع غرف من مكان غرفتي وفي ذات الممر. ثم عدت إلى غرفتي. لبست الثياب التنكرية، وجعلت بشرتي تبدو داكنة ثم جلست في الظلام، ومعي حقيبة يدّ تحتوي على غيار واحد، وتركت باب غرفتي مواربةً، لأنني كنت أشك بأن الطائر سوف يطير في ذلك الوقت.

وبعد نصف ساعة، مرّت من أمامي سيدة مُسنة تحمل بيدها حقيبة: ولفت انتباهي رائحة أعرفها، لذا كنت قد تبعتها. ذلك لأن تلك المرأة كانت فولر الذي كان قد غادر الفندق من مدخل جانبي، ثم كان في أحد المنعطفات قد توجّه إلى شارع خالٍ من المارّة، وبدأ يمشي في الظلام الدامس وتحت المطر الخفيف إلى أن قطع مسافة ثلاثة أزقّة. ثم دخل بعد ذلك إلى عربة يجرّها حصانان كانت بانتظاره بموجب موعد سابق. أما أنا فكنت قد أخذت مكاني (دون دعوة) على حافة الصندوق الخلفي من تلك العربة وأسرعنا بالانطلاق. وبعد أن سرنا لمسافة عشرة أميال، توقفت العربة في محطة على الطريق فارغة تماماً من المسافرين. نزل فولر من العربة وجلس على مقعد تحت المظلة، وفي أبعد ما مكان ممكن عن الضوء.، بينما ذهبت إلى الداخل وبدأت أرقب مكتب حجز البطاقات. لم يقم فولر بشراء أية بطاقة سفر، ولم أقم أنا أيضاً بشراء بطاقة سفر. وكان القطار قد وصل في ذلك الوقت.، صعد فولر إلى إحدى العربات، وصعدت إلى ذات العربة ولكن من الناحية الأخرى، ثم مشيت إلى الجناح الذي كان فيه، وجلست في مقعد خلفه. وعندما دفع قيمة بطاقة السفر للسائق، وأشار إلى الوجهة التي يقصدها وكان السائق يُبدّل له الورقة المالية .. انتقلت

إلى بضع مقاعد تبعد من مكان جلوسه., وعندما وصل إليّ السائق دفعت له أنا أيضاً ثمن البطاقة إلى ذات المكان, والذي كان على بُعد حوالي المائة ميلٍ من ناحية الشرق.

ومنذ ذلك الوقت ولمدة أسبوع، كان فولر يقودني من مكان لآخر., ويسافر من هنا إلى هناك ثم إلى مكان أبعد ــ ولكن دوماً باتجاه الشرق. إلا أنه, بعد مرور اليوم الأول, لم يعد يتنكر بزيّ امرأة، وإنما تنكّر مثلي في هيئة عامل، وبلحية مستعارة كثيفة. كان زيّه متقناً، بحيث كان بإمكانه أن يتنكر بتلك الشخصية حتى دون أن يفكر في ذلك، ودون أن يتمكن حتى أقرب أصدقائه من التعرّف عليه، وذلك لأنه كان قد عمل سابقاً في مثل هذه المهنة لكسب عيشه. استقر أخيراً هنا في مونتانا وفي أصغر وأكثر المخيمات احتجاباً. وهو يُقيم في كوخ وهو يخرج طوال اليوم للاستطلاع، لكنه يتجنب الاجتماع بأحد. أما أنا فأقيم حالياً في نَزل لعمال المناجم، وهو مكان شنيع من ناحية المبيت والطعام والأوساخ وفي كل شيء. وقد مرّ الآن على وجودنا هنا أربعة أسابيع، لم أره خلالها سوى مرة واحدة, لكنني أتتبّعه كل ليلة وأتخذ مكاني هناك. كما كنت قد ذهبت على الفور من استئجاره كوخاً هنا، إلى مسافة تبعد حوالي الخمسين ميلاً، وأرسلت برقية إلى فندق دينفر لكي يحتفظوا لي بأمتعتي لديهم إلى حين عودتي، فأنا لست في حاجة هنا سوى لبعض القمصان وقد جلبت ما يلزمني منها معي.

سيلفر غولش 12 حزيران (يونيو)

أعتقد أن حادثة دينفر لم تجد طريقها إلى هنا على الإطلاق. فقد تعرفت على أكثر الرجال هنا في هذا المخيم, ولم يقم أي منهم مع ذلك بالإشارة إلى الأمر، وهذا على الأقل حسبما وصل إلى أسماعي. لابد أن فولر يشعر هنا بالأمان في مثل هذه الظروف.، لأنه تقدم بطلب للعمل في منطقة جبلية تقع على بعد ميلين خارج هذه المنطقة., والأمر يسير جيداً وهو يتابعه بمثابرة. ولكن، كم هو ذلك التغيير الذي طرأ عليه! فهو لم يعد يبتسم على الإطلاق، كما أنه يبقى دوماً بمفرده ولا ينسجم مع أحد ــ وقد رأيت ذلك الرجل الذي كان يحب الصحبة إلى حد كبير، والذي كان منذ شهرين فقط دائم المرح، رأيته مؤخراً يمرّ بجانبي عدة مرات ــ بوجه يُثير الشفقة، يبدو عليه اليأس والبؤس، وقد غادر عنفوان الشباب مشيته. كما أنه أطلق على نفسه اسم دافيد ويلسون.

أعتقد أنه سيبقى هنا إلى أن نقوم بتعكير مزاجه. وبما أنك تَصرين على ذلك، فسوف أنفيه من جديد. وإن كنت لا أدري كيف سيكون أتعس مما هو عليه الآن. سوف أعود إلى دينفر لكي أمنح نفسي بعض الوقت للراحة، ولكي أحصل على طعام يؤكل، وعلى سرير معقول وعلى بعض اللياقة البدنية.، وبجلب أمتعتي، ثم سوف أقوم بعد عودتي وبإنذار أبي المسكين "ويلسون" بالانتقال من جديد.

دينفر 19 حزيران (يونيو)

يفتقده الجميع هنا أمي، ويأمل الجميع بأن تكون أعماله قد ازدهرت في مكسيكو. وهم لا يقولون ذلك بأفواههم فقط، وإنما من صميم قلوبهم. أنت تعلمين بأن بإمكان المرء دوماً أن يشعر بذلك. أنا أتسكع هنا منذ فترة طويلة، ويجب أن أعترف بذلك., لكنك لو كنت مكاني فسوف تشعرين بالعطف عليه. نعم، أما أعلم بما ستقولينه، وأنت على حق، فلو كنت أنا مكانك, وكنت أحمل مثل تلك الذكريات المؤلمة في قلبي...

سوف أعود في قطار ليلة الغد.

دينفر 20 حزيران (يونيو)

أمي ! فليسامحنا الله ، كنا نُلاحق الرجل الخطأ !... لم أتمكن من النوم طوال الليلة الماضية، وأنا الآن أنتظر بزوغ الفجر لكي أستقلّ قطار الصباح ــ كم تمر الدقائق ببطء ! كم تمر ببطء!

يعقوب فولر هذا، هو ابن عم المذنب الحقيقي. كم كنا حمقى لأننا لم نفكر بأن المذنب لن يحتفظ أبداً باسمه الحقيقي بعد فعلته الوحشية تلك ! فولر الذي في دينفر هو أصغر بأربعة أعوام من الشخص الآخر، وهو أرمل جاء إلى هنا عام 79 في سن الواحد والعشرين ــ أي قبل زواجكما بعام، وهناك العديد من الوثائق التي تثبت ذلك. كنت قد تحدثت الليلة الماضية مع بعض

أصدقائه المقربين ممن عرفوه منذ وصوله إلى تلك البلدة. لم أقل شيئاً، لكني خلال بضعة أيام سوف أعيده من جديد إلى مدينته، وسوف أقوم بتعويضه على خسارته لمنجمه. وسوف تكون في استقباله هناك مأدبة و مسيرة مع المشاعل، ولن يتحمّل أحد سواي النفقات. هل ستسمّين هذا "إسرافاً " أنا لست سوى صبي كما تعرفين، وهذا هو ما أتميّز به، لكنني بعد الآن وخلال هذه الفترة لن أبقى صبياً كما كنت...

سيلفرغولش 3 تموز (يوليو)

أمي، لقد رحل ! غادر، رحل دون أن يترك أي اثر! كما كان أثره قد اختفى عندما وصلت. وهذا هو اليوم الأول الذي أنهض فيه من الفراش منذ ذلك الحين. أتمنى لو لم أكن سوى صبي, بحيث قد يكون بإمكاني أن أحتمل الصدمات بشكل أفضل. يعتقد الجميع هنا بأنه توجّه إلى الغرب. سوف أنطلق الليلة في عربة وفي مسيرة لمدة ساعتين أو ثلاث أستقّل بعدها القطار. لست أدري إلى أين علي أن أتوجّه، ولكن يجب أن أتابع مسيرتي فلو حاولت أن أبقى هادئاً هكذا فسوف يتسبب لي هذا بالكثير من المعاناة.

لابد أنه اتخذ لنفسه اسماً جديداً وأنه قد تنكّر. وهذا يعني بأالموضوع،علي أن أبحث في كامل الكرة الأرضية لكي أعثر عليه. وهذا ما أتوقعه بالفعل!... أترين أمي؟ هذا يعني بأنني أنا الذي أصبحت أشبه "باليهودي التائه". الأمر مدعاة للسخرية، لأن هذا ما كنا قد خططناه للشخص الآخر.

تصوّري مقدار ما أواجهه من صعوبات ! لن يكون هناك من قد أستفسر منه عنه، ومع ذلك، فلو وجدت أية طريقة لكي أفعل ذلك، فلن يجعلني ذلك أخشى شيئاً...

لم أتمكن من إيجاد أية طريقة لذلك. كنت قد حاولت إلى أن تشوّش ذهني, ومع ذلك فلو وجدت أية طريقة لكي أفعل ذلك فلن أخشى شيئاً. هذا لو كان بإمكان الشخص الذي كان مؤخراً قد اشترى منه ذلك المنجم في مكسيكو، أو لو كان بإمكان الشخص الذي باع له المنجم في دينفر، أن يزودني بعنوانه...(ولكن لمن أمي ؟).

سوف أشرح له الموضوع ، وسأعلمه بأن كل ما جرى كان عن طريق الخطأ، وبأنني سأطلب منه السماح ، كما سوف أقوم كذلك بتعويضه عن جميع الخسائر التي نجمت عن هذا الأمر. هل تُدركين ذلك ؟ لكن ذلك الشخص قد يعتقد بأن ما أفعله عبارة عن شرك للإيقاع بالرجل... حسناً، لابد أن يظن ذلك وهذا بالطبع لأن أي شخص مكانه سوف يعتقد ذلك!.. ولو قلت لهم بأن الحقيقة كانت قد اكتشفت مؤخراً، وبأنه ليس بالشخص المطلوب، وإنما هو رجل آخر يحمل ذات الاسم، كان قد غيّر اسمه لأسباب ذات أهميّة. فهل سيكفي ذلك؟ لكن الناس في دينفر سوف يتنبهون ويقولون أووه..! وسوف يتذكرون السندات المشكوك بها، وسوف يتساءلون عن سبب هروبه إن لم يكن هو الرجل المطلوب؟ الموضوع دقيق جداً. كما أنني لو فشلت في العثور عليه فسوف يُفلس هناك. أما هنا فلا توجد عليه أية وصمة في الوقت الحاضر – هذه الحجة واهية. ساعديني أمي، لأن بإمكانك التفكير بطريقة أفضل مني!

هناك مفتاح واحد لحلّ اللغز، هناك حلّ واحد، وهو أن أتعرّف على خطّه, هذا إن كان قد كتب اسمه المزيف في سجل الفندق، دون أن يقوم بتزوير خطّه بشكل متقن, وأعتقد بأن هذا ما سوف يفيدني لو صادف وعثرت عليه.

سان فرانسيسكو 28 حزيران يونيو 1898

أنت الآن تعرفين جيداً مقدار ما قمت به من جهد في البحث عنه في جميع الولايات من كولا رادو إلى الباسيفيك، وكم من مرّة كنت على وشك العثور عليه. حسناً، لكنني فقدته من جديد. كنت قد عثرت بالأمس على أثره هنا في أحد شوارع سان فرانسيسكو., وبذلك تتبعته بسرعة إلى مكان إقامته الذي كان في فندق رخيص. لكنها كانت غلطة كلفتني غالياً., فلو أنني كنت بالفعل أحد الكلاب البوليسية لكنت قد توجهّت في اتجاه آخر، لكني لست سوى شبه كلب، لذا فأنا عندما أنفعل أصبح إنسانياً بأسلوب غبي. أنا الآن أعرف على وجه التقريب بأنه, ومنذ الستة أو الثمانية أشهر الماضية، لم يعد يمكث في أي مكان لفترة طويلة وبأنه غير مستقر وبأنه يتنقّل باستمرار. كما أعلم تماماً ما يشعر به، وأعلم ما هو نوع الإحساس الذي يشعر به "جيمس ويكلر" فهذا هو الاسم الذي كان له عندما كنت على وشك الإمساك به منذ تسعة أشهر. اسم جيمس ويكلر هو بلا شك الاسم

الذي اتخذه لنفسه عندما هرب من "سيلفرغولش" فهو رجل غير مُدعٍ لا يحب الألقاب الكبيرة...

عرفت الآن الخط بسهولة رغم ما فيه من تزييف بسيط، فهو رجل مستقيم لا يجيد التزييف والادعاء, لكنهم أعلموني بأنه غادر الفندق لتوّه في رحلة وبأنه لم يترك أي عنوان.، كما لم يذكر المكان الذي سوف يتوجّه إليه., وبأنه كان يبدو مذعوراً عندما طُلب منه أن يترك عنوانه. وبأنه لم يكن يحمل معه أية أمتعة ماعدا حقيبة رخيصة.، وبأنه غادر الفندق سيراً على الأقدام، وبأنه عجوز بخيل وبذلك فهم لا يُعتبرون مغادرته المكان خسارة كبيرة...أهو عجوز؟... أعتقد أنه قد أصبح كذلك الآن.

ولم أكد أسمع ما ــ يبدوإلا كنت بعد أن مكثت لفترة قصيرة, قد أسرعت في تعقبّ أثره الذي قادني إلى رصيف لتحميل السفن. إلا أنني عندما وصلت إلى هناك كان دخان المركب الشراعي الذي استقلّه قد اختفى في الأفق. كان بإمكاني أن اختصر نصف ساعة من الوقت لو أنني سلكت منذ البداية الاتجاه الصحيح، ولو كان بإمكاني أن أمسك بحبال الزورق بسرعة. لكنت سأجد الفرصة للحاق بذلك المركب الذي توجّه إلى ميلبورن!

هوب كانون كاليفورنيا 3 تشرين الأول أكتوبر 1900

لك الحق في التذمّر أمي. رسالة واحدة في العام ! هذه نِدرة، وأنا أعترف بذلك بمحض إرادتي. ولكن كيف بإمكان المرء أن يكتب إن لم يكن لديه ما يكتب عنه سوى خيبات الأمل؟ ليس بإمكان أحد أن يحتمل ذلك وهذا من شأنه أن يُحطم قلب أي إنسان.

سبق وقلت لك ذلك ــ يبدو وكأن عصور قد مرّت الآن على ذلك. فأنا منذ حدث وأضعته في ميلبورن قد اقتفيت أثره لأشهر في جميع أنحاء أستراليا. كما تتبعته بعد ذلك إلى الهند، وكنت على وشك العثور عليه في بومباي.، ثم بحثت عن أثر له في كل مكان ــ في بارودا، راولندي، لوكنو، كامبور، ألاهاباد، كالكوتا، ماداراس ــ وفي كل مكان، أسبوع بعد أسبوع، شهر بعد شهر. بحثت عنه أثناء الطقس المُغبر، وأثناء الحرّ الشديد– وكنت في كل مرّة أكاد أعثر عليه، أو أكون أحياناً بالقرب منه، لكنني مع ذلك لم أتمكن مع ذلك من الإمساك به... توجهت إلى سيلون ثم إلى لاباس الخ... وسوف أكتب إليك عن كل ذلك بالتفصيل.

تتبعته من جديد إلى كاليفورنيا ثم إلى مكسيكو ثم عدت من جديد إلى كاليفورنيا. وأنا منذ ذلك الحين أتتبعه في كل أنحاء الدولة وهذا منذ بداية شهر كانون الثاني (يناير) وحتى الشهر الماضي. وأنا الآن تقريباً على يقين بأنه ليس في مكان بعيد عن "هوب كانون".، تتبعته إلى نقطة تبعد ثلاثين

ميلاً من هنا، ثم فقدت أثره هناك من جديد، لأن أحدهم كان قد اصطحبه معه في عربته على ما أعتقد...

أمي ! أنا في الوقت الحاضر آخذ قسطاً من الراحة ــ كما أنني قمت بتعديل خطة البحث عن آخر أثر له. كنت متعباً إلى درجة الممعه وأنح معنوية كئيبة، حتى أنني كنت أشعر أحياناً بالضيق وبأنني على وشك فقدان الأمل.، إلا أن عمال المنجم في ذلك المخيم الصغير من الأشخاص الطيبين. وبذلك اعتدت على طباعهم . وعلى مرحهم، الذي من شأنه أن يُنعش قلب المرء ويُنسيه متاعبه. أنا هنا منذ شهر، وأقيم مع شاب يدعى: "سامي هيلير" هو في حوالي الخامسة والعشرين وهو مثلي الولد الوحيد لوالدته , كما أنه يحب والدته جداً ويكتب إليها كل أسبوع ــ وهذا ما يشبهني بعض الشيء. هو فتى خجول، أما من ناحية الذكاء ــ حسناً، فليس بإمكان المرء أن يعتمد عليه حتى في إشعال النار. ولكن لا بأس، فهو من الأشخاص المُحبّبين إلى النفس لأنه طيب ولطيف، ومن المفيد والمريح أن يرافقه المرء وأن يجلس للتحدث معه وأن يكون لي من جديد بعض الصحبة. أتمنى أن يحصل "جيمس ويكلر" على الصحبة. كان لديه أصدقاء وكان يحبّ الصحبة..هذا ما يُعيد صورته إلي عندما رأيته للمرة الأولى. وهذا هو الأمر الذي يثير الشفقة بالفعل ! يا لذلك البائس! ... يتوارد إلى ذهني في كثير من الأحيان كيف كنت أحاول في ذلك الوقت أن أطوّق (أسكت) ضميري لكي أستطيع الاستمرار من جديد بتلك المهمة!.

قلب هيلير أطيب من قلبي، وأطيب من قلب أي شخص بين المجموعة، وأنا أعتقد ذلك لأنه صديق لرجل أسود هنا في المخيم يُدعى ــ فلينت بوكنر ــ وهيلير هو الرجل الوحيد الذي يتحدث معه بوكنر، أو بالأحرى هو الرجل الوحيد الذي يسمح له بوكنر بالتحدث معه... هو يقول بأنه يعرف قصة حياة فلينت، وبأن ما جعله يبدو بهذا الشكل هي معاناته الطويلة، وبأن على المرء بذلك أن يتعاطف معه قدر الإمكان . أمي , ليس بإمكان أي شخص ما عدا صاحب قلب كبير مثل قلب هيلير أن يؤوي شخصاً مثل فلينت بوكنر، وهذا لما سمعته عنه من الخارج...أعتقد أن هذه التفاصيل الصغيرة بإمكانها أن تزودك بشكل أفضل بفكرة عن طباع سامي هيلير، وبأكثر من أي وصف دقيق آخر قد يكون بإمكاني أن أزودك به. كان سامي قد قال لي أثناء إحدى محادثاتنا هذه الكلمات:

"فلينت أحد أقاربي، وهو يُفضي إلي بكل متاعبه , وهو بذلك يُفرغ مافي قلبه من وقت لآخر, وأنا أعتقد بأنه إن لم يفعل ذلك لكان سينفجر... لايمكن أن يكون من هو أتعس من هذا الرجل. كانت حياته عبارة عن بؤس, كما أنه ليس بالرجل المُسن كما قد يبدو عليه ذلك.، لكنه فقد الشعور

بالراحة والسلام منذ سنوات، سنوات طويلة., وهو لا يعرف معنى السعادة، كما لم يكن يوماً من ذوي الحظ السعيد. وهو يقول فيالمخيم منلأحيان بأنه يتمنى لو كان في جحيم آخر لأن تعب من الجحيم الذي يعيش فيه.

4

ليس بإمكان أي رجل محترم بالفعل أن يعترف بالحقيقة العارية بحضور السيدات.

كان ذلك في صباح يوم قارص شديد البرودة من شهر تشرين الأول (أكتوبر) حيث كانت زهور الزنبق، وزهور شفّة القوقعة التي تُضيئها شعلة مجد الخريف، تتدلى وتُومض في الهواء، أشبه بجسر تمنحه الطبيعة للأشياء البريّة التي ليس لها أجنحة، والتي اتخذت موطنها في قمم الأشجار، والتي تتزاور معاً. كانت أشجار الصنوبر والرمان تتوهّج على امتداد منحدرات الغابة بلون أرجواني ولون أصفر على شكل ذرّات كبيرة لامعة. وكان أريج الزهور يتصاعد ويعبق عالياً وبعيداً في الجو في غشاوة السماء. وفي مكان بعيد من فراغ السماء حيث يكمن سكون وصفاء وسلام الله , نام الأيسوفاكوس على جناح واحد دون حراك...

كان ذلك قد حدث في اليوم الأول من شهر (أكتوبر) من العام 1900، وفي مخيم للتنقيب عن الفضة في هوب كانون، الذي يقع في منطقة إزمارالدا. وهي منقطة منعزلة، مرتفعة ونائية تم اسكتشافها حديثاً، يعتقد قاطنوها بأنها غنية بالمعادن، ولكن استكشاف الأمر سوف يحتاج لمدة سنة أو سنتين من التنقيب. يتألف سكان المخيم من حوالي المائتين من عمال المناجم، ومن سيدة واحدة من البيض معها طفل، ومن خمسة هنود حمر، ومجموعة من المتشردين الهنود بملابسهم المصنوعة من جلود الأرانب , وقبعاتهم وعقودهم المصنوعة من الصفائح المعدنية الرقيقة. لا توجد في تلك المنطقة البعيدة حتى الآن أية طواحين أو القرية، صحف، لأن المخيم كان قد أنشئ من سنتين فقط , وبذلك لم يكن قد أحدث بعد جلبة كبيرة, وكان العالم بأكمله يجهل حتى اسمه كما يجهل حتى وجوده ...

وتحيط بتلك المنطقة من الطرفين سلسلة من الجبال أشبه بجدار بارتفاع الثلاثة أقدام على وجه التقريب, وبذلك لم تكن السلسلة اللولبية الطويلة من الأكواخ التائهة التي تقع على مسافة بعيدة عن

بعضها البعض في ذلك العمق الضيق من الوادي ، ترى الشمس سوى مرة واحدة في اليوم ، وفي ما بعد وقت الظهيرة , أي عندما تكون الشمس على وشك الرحيل...

كانت الحانة هي المكان الوحيد الذي له شكل المسكن في تلك القرية ، أو كما يقال هي السكن الوحيد فيها . فهي تحتل موقعاً له أهميته في القرية لأنها الملاذ الليلي للسكان. فهم يتناولون فيها المشروبات ويلعبون بأحجار الدومينو, ويلعبون البيلياردو على طاولة تقتطعها أماكن ممزقة تم إصلاحها بواسطة ورق لاصق, عليها بعض عصي البيلياردو وبعض الكرات التي لم تكن مصنوعة من الجلود، وإنما هي عبارة عن كرات مُنجّرة من الخشب لذا فهي تُصدر أثناء جريانها صوت قعقعة ,كما أنها تتوقف فجأة وليس بالتدريج . كما كانت في تلك الحانة بعض المربعات من الطباشير ذات نتوءات من حجر الصوان، وكان الرجل الذي يتمكن من تسجيل ستة منها بضربة واحدة , يفوز بمشروب على حساب الحانة.

كان كوخ فلينت بوكنر آخر كوخ في تلك القرية, وهو يقع باتجاه الجنوب، بينما يقع منجم الفضة الخاص به نحو الشمال في الطرف الآخر من القرية وعلى مسافة تبعد قليلاً عن آخر كوخ فيها.

فلينت بوكنر شخص غير اجتماعي، نَكد الطباع ، ليست لديه أية صدقات، وحتى أن الأشخاص الذين حاولوا التعرّف عليه كانوا قد ندموا وعدلوا عن ذلك. لم يكن هناك من يعرف شيئاً عن تاريخ حياته ., وكان البعض يعتقدون بأن سامي هيلير يعرف ذلك. بينما كان البعض الآخر يقولون بأنه لا يعرف شيئاً عنه. ولو سُؤل سامي هيلير عن ذلك فسوف يجيب أيضاً بالنفي.

يعمل مع فلينت بوكنر فتى انكليزي خنوع في السادسة أو السابعة عشر. كان بوكنر يعامل ذلك الفتى بأسلوب خشن سواء أكان ذلك على انفراد أو أمام الناس. وكان بعضهم بالطبع يحاول الحصول من ذلك الفتى على معلومات عن بوكنر ولكن دون جدوى... فكل ما كان يقوله "فيتلوك جونس" ــ وهذا هو اسم ذلك الفتى ــ بأن فلينت كان قد عثر عليه أثناء رحلة تنقيب، ونظراً لأنه لم يكن لدى الفتى بيت أو أي أصدقاء في أمريكا , فقد وجد بأن من الحكمة أن يبقى مع فلينت رغم تلك المعاملة السيئة لكي يحصل على أجر– علماً بأن ذلك الأجر لم يكن سوى وجبة من الفاصوليا ومن اللحم المُقدد – ولم يكن بإمكان فلينت أن يُزودهم بأكثر من تلك البيانات عنه.

كان قد مرّ على عبودية فيتلوك ما يُقارب الشهر., كان فيتلوك خلال تلك الفترة، وراء ذلك المظهر الخارجي الخنوع الذي يبدو عليه، قد بدأ في داخله يتحول تدريجياً إلى بركان, أمام إهانات

وإذلال سيده., لأن ذلك الفتى الوديع كان يعاني من تلك الإهانات ربما بمرارة أكثر مما بإمكان أكثر الأشخاص رجولة أن يحتمله. فبإمكان الرجال عندما تصل بهم المعاناة إلى أبعد مداها، أن يلقوا راحتهم بكيل السباب لبوكنر أو بصفعه، لكنه لم يكن يجرؤ على ذلك.

كما كان كل من هم حول فيتلوك من الأشخاص الطيبين يرغبون بانتشاله من تلك المعاناة، ويحاولون إقناعه بترك بوكنر. لكن الفتى كان يُظهر الهلع لمجرد طرح الفكرة عليه ويقول بأنه لن يفعل ذلك أبداً.

كان" بات ريلي" قد قال له مرّة لكي يحثّه على أن القيام بذلك:
– فلتترك ذلك الحقير اللعين ولتأتِ معي. لا تخف فسوف أعتني بك.

لكن الفتى كان قد شكره وهو يرتجف والدموع في عينيه، وقال بأنه لا يستطيع المجازفة بذلك، وبأن فلينت سوف يقبض عليه في وقت ما، أثناء النهار أو أثناء الليل، وبأنه سوف يقوم بعد ذلك ب... ثم قال " أنا أشعر بالدوار لمجرد التفكير بذلك ",

وكان آخرون قد قالوا له:
– اهرب منه وسوف نُساندك، بإمكانك أن تهرب إلى الشاطئ ذات ليلة.

إلا أن جميع المقترحات كانت قد أخفقت، وكان الفتى يقول دوماً بأن فلينت سيُطارده وبأنه سيُعيده من جديد حتى لو كان ذلك لمجرد النذالة. لم يكن بإمكان الرجال أن يتفهموا ذلك، وفي ذلك الوقت كانت معاناة ذلك الفتى تستمر أسبوعاً بعد أسبوع . ولكن... ربما كان بإمكانهم أن يُدركوا حقيقة الأمر لوعرفوا كيف كان ذلك الفتى يُمضي أوقات فراغه.

كان الفتى ينام في حجرة خارجية بالقرب من كوخ فلينت., وكان يمضي الليالي هناك بمحاولة معالجة آلامه و باحتضان ما يتعرض إليه من إذلال، بأن يفكّر ويفكّر في أمر واحد وهو كيف سوف يكون بإمكانه أن يقتل فلينت دون أن يتم اكتشاف فعلته... كانت تلك هي البهجة الوحيدة في حياته، كما كانت تلك الساعات هي الساعات الوحيدة من بين الأربع والعشرين ساعة التي كان فيتلوك يتطلع إليها بحماس والتي كان يُمضيها في سعادة.

كان قد فكرّ بالسمّ. ولكن لا. هذا لايخدم الموضوع. فسوف يكشف التحقيق من أين تم جلب السمّ وبذلك سوف يكشف أيضاً عن من جلبه. ثم فكّر بضربة في الظهر في منتصف الليل وفي مكان مُنعزل في الساعة التي يتوجّه فيها فلينت عادة في طريق عودته إلى المنزل. كما فكرّ بطعنه أثناء نومه ولكن لا... لا.., فقد يضربه ضربة غير قاضية وبذلك سيتمكن فلينت من الإمساك به. كان الفتى قد استعرض مئات الأساليب، ولكن لم يجد في أي منها ما هو مجدٍ، فحتى في أكثر الأساليب خفاء وسرّية، هناك إمكانية لوقوعه في الخطأ المُميت، وهناك دوماً فرصة وإمكانية لأن يتم اكتشاف الأمر، ولن يلجأ لأي منها.

لكن ذلك الفتى كان يتصف بالحُلم، حُلم لا نهاية له، وكان يقول لنفسه " لا داعِ للاستعجال" وبأنه لن يترك فلينت أبداً قبل أن يجعله جثة هامدة. وبأنه سوف يجد طريقة ما. لابد أن يجد الطريقة. لابد أن هناك طريقة في مكان ما. وبأنه سوف يحتمل العار والألم والبؤس إلى أن يجدها. نعم، لابد وأن تكون هناك طريقة ما.، طريقة آمنة لن تترك أي دليل على القاتل. وليس هناك أية ضرورة للاستعجال... لا.. لا داعي للاستعجال...سوف يجد الطريقة. وحينئذ، آه !.. حينئذ فقط سوف يكون من الجيّد أن يكون على قيد الحياة !. أما أثناء ذلك فسوف يُثابر على الحفاظ على سمعة الشخص المُستكين الخنوع.

كما أنه وكعادته، لن يسمح إطلاقاً لأي شخص بأن يسمعه يقول أي شيء من شأنه أن يُسيء إلى فلينت أو بما يُشير إلى أنه يشعر بالامتعاض من ذلك الشخص الذي يقوم باضطهاده.

كان ذلك في صباح اليوم المشار إليه وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر)، كان فلينت قد اشترى بعض الأشياء، ونقلها هو وفيتلوك إلى كوخه. كانت تلك الأشياء عبارة عن: صندوق من الشموع وضعاها في الزاوية, وعلبة صغيرة من مسحوق البارود تم وضعها فوق صندوق الشموع, وبرميل صغير من مسحوق البارود تم وضعه تحت سرير فلينت، وفتيل كبير للفرقعة تم تعليقه على المشجب. وكان فيتلوك قد أدرك حينئذ بأن عمليات التنقيب التي يقوم بها فلينت قد وصلت إلى ذروتها، وبأن التفجير سوف يتم في ذلك الوقت.، كان فيتلوك قد شاهد سابقاً عملية التفجير وبذلك كانت لديه فكرة عن تلك العملية، إلا أنه لم يكن قد ساعد في تنفيذها. كان حدسه صحيحاً ــ كان موعد التفجير قد حلّ بالفعل.

كانا في الصباح قد حملا معاً فتيل الفرقعة والمثقاب وعلبة مسحوق التفجير وتوجها إلى مكان المنجم. كان خندق التفجير بعمق الثمانية أقدام يتم النزول إليه والخروج منه بواسطة سلم قصير. نزلا معاً إلى الخندق، وقام فيتلوك حسب الأوامر بالإمساك بالحفارة ــ لكنه لم يكن قد تلقّى التعليمات حول الطريقة الصحيحة للإمساك بها – ثم بدأ فلينت بعد ذلك باختراق الأرض بواسطة الحفارة، واستمر بالطرق على الحفارة. وبعد أن نزلت الحفارة إلى الأسفل كانت قد أفلتت فجأة من يد فيتلوك وبذلك وكنتيجة طبيعية لذلك كانت قد قفزت للأعلى . حينئذ قال له فيتلوك:

– أنت أيها الزنجي الأجرب، أليست هناك طريقة أخرى للإمساك بالحفارة؟ ارفعها إلى الأعلى! أوقفها هكذا، أمسك بها بشدّة، أنت أيها... سوف أعلمّك كيف...!

وبعد مرور ساعة كانت عملية الحفر قد انتهت. قال له فلينت بعد ذلك:

– قم الآن بتعبئة الحفرة ". قام الفتى بسكب مسحوق التفجير.

– أيها الأبله !

ثم كان الفتى على إثر ذلك وبضأولاً،فة بفك الكماشة، قد رُمي في الخارج.

– انهض، لايمكن أن تستلقي هكذا وأنت تتباكى! والآن أمسك بالسلك بشكل جيّد أولاً ، ثم اسكب المسحوق. أمسك جيداً، أمسك جيّداً أيها المُخنّث، هل ستملأ كامل الحفرة ؟ أيها الأبله، اسكب بعض الحصى ! احشوها في الحفرة. أمسك، أمسك ! أيها الاسكتلندي ابتعد عن الطريق !

وانتزع فيتلوك السلك منه، وبدأ يقوم بعملية الحشو بنفسه، وهو يسبّ ويلعن كالشيطان. ثم قال له:

– أشعل السلك!

ثم صعد إلى خارج حفرة المنجم، وركض إلى بعد خمسين ياردة يتبعه فيتلوك . وقفا هناك معاً ينتظران لعدة دقائق. تصاعدت في الهواء كميّة كبيرة من الدخان ومن الحجارة ثم حدث انفجار مُرعد أدى إلى انهمار وابل من الحجارة، ثم عاد كل شيء من جديد إلى الهدوء.

حينئذ قال له سيده :

– كنت أتمنى أن تكون بداخلها.

نزلا بعد ذلك إلى داخل فتحة المنجم. وبعد أن قاما بتنظيفه حفرا فتحة أخرى، ووضعا بداخلها عبوة أخرى من المتفجرات.

قال فيتلوك للفتى:

– انظر إلى ما فعلته هنا! لقد وضعت فيها كمية كبيرة من المتفجرات. هل تريد أن تُبددها بالكامل ؟ ألا تعرف كيف يتم تحديد كمية المتفجرات؟

– لا، سيدي.

– لا تعرف ذلك! حسناً، هذا لأنك لا تنتبه إطلاقا لما أقوم به! ثم صعد من الخندق وتحدث إليه من الأعلى:

– حسناً، أيها الأبله، سوف تبقى هنا طوال اليوم، والآن اقطع فتيل المفرقعات وأشعله !

بدأ ذلك المخلوق يرتجف ويقول:

– سيدي، أرجوك أنا...أنا..."

– أنت الآن تعترض علي كلامي؟ نفذ ما أقوله, اقطعه وأشعله !

قطع الفتى الفتيل وأشعله.

– جيّد أيها الاسكتلندي ! فتيل الدقيقة! كنت أتمنى لو كنت أنت بداخل الفتيل.

ثم قام فلينت وهو في غاية الغضب بانتزاع السلم من الحفرة وركض بعيداً.

شعر الفتى حينئذ بذعر شديد وبدأ يتوسل:

– ياإلهي، ما الذي بإمكاني أن أفعله؟ ما الذي بإمكاني أن أفعله؟ ياإلهي! ساعدني! ساعدني! أنقذني!.

ثم التصق بالجدار بقدر ما بإمكانه من عزم. كانت فرقعة الفتيل قد جعلته يفقد صوته وجعلت نفَسه يتوقف. وقف يُحدق به وقد فقد قدرته على الحركة و الكلام. فما سوف يحدث هو أنه خلال ثانيتين أو ثلاث ثوانٍ سوف يطير نحو السماء وقد تمزُق جسده إلى أجزاء صغيرة. ثم خطرت بباله فكرة: قفز بسرعة إلى الفتيل وفصل القسم المتبقي منه على الأرض، وكان بذلك قد نجا من الموت !... استلقى الفتى بعد ذلك مشلول الحركة، نصف حيّ لشدة الفزع، وقد خارت قواه لكنه تمتم

بفرح عميق:

" لقد علّمني! كنت أعلم بأنني لو انتظرت فسوف أجد الطريقة..."

بعد فترة خمس دقائق كان بوكنر قد اقترب من خندق المنجم، تبدو عليه علامات القلق والارتباك, ولكن الضيق الذي كان فيه ازداد بعد أن أمعن النظر بالفتى واطلع على الموقف وشاهد ما حدث... ثم أنزل إليه السلم.

جرجر الفتى نفسه بضعف إلى الأعلى. كان شاحباً للغاية مما أدى إلى زاد من الضيق التي كان فيها بوكنر، بحيث قال أخيراً وهو يُبدي أسفه وتعاطفه بارتباك، فلم يكن قد سبق له القيام بذلك لعدم اعتياده على الاعتذار:

– أتعلم، كانت مجرد حادثة مفاجئة. لا داعي لأن تتحدّث عن ذلك للآخرين. عملت اليوم بما فيه الكفاية. اذهب إلى كوخي لكي تتناول ما ترغب به من طعام ولكي تأخذ قسطاً من الراحة، كانت تلك حادثة سبّبها ما كنت فيه من توتر.

قال الفتى وهو يغادر المكان:

– كان ما حدث قد أفزعني، لكنني تعلمّت شيئاً جديداً، لذا فلست أهتم بذلك.

وكان بوكنر وهو يتابعه بنظره، قد حدّث نفسه بالقول:

– يبدو أن من السهل جداً إرضائه، وأنا أتساءل فيما إذا كان سيُحدث للآخرين عن ذلك؟ تُرى هل سيفعل ذلك؟ أتمنى لو كنت قد قتلته.

لكن الفتى لم يكن قد استفاد من فترة الراحة تلك، وإنما كان قد استخدم الوقت لكي يعمل بحماس وبكل سعادة وهو شبه محموم.

كان هناك شقّ عميق يمتدّ من طرف الجبل إلى كوخ فلينت., كانت غالبية أعمال فيتلوك تتم في تلك المنقطة الصلبة المظلمة، لكن باقي الأعمال كانت تتم في كوخه الخاص. وبعد أن أنهى الفتى ما كان يقوم به وكان كل شيء قد أصبح كل شيء جاهزاً حدّث نفسه:

– لو كانت لديه أية شكوك بأنني قد أقوم بإعلام الآخرين بما جرى، فلن يطول هذا الأمر به كثيراً., وسوف أثبت له غداً طوال اليوم، ليلاً نهاراً وكذلك في اليوم الذي يليه، بأنني لازلت ذات الفتى المُخنث الذي كنته على الدوام., وسوف تكون نهايته بعد الغد ليلاً... لن يتمكن أحد أبداً من معرفة الكيفية التي تمت بها نهايته.كان قد أوحى إلي بنفسه بهذه الفكرة، وهذا غريب بالفعل !".

5

حلّ اليوم التالي وانتهى.

كان الوقت حوالي منتصف الليل، وكان الصباح الجديد على وشك أن يحلّ بعد خمس دقائق...

المشهد الآن في الحانة وفي غرفة البيلياردو، حيث تجمّع بعض الرجال الخشني الملامح، بملابسهم الخشنة وقبعاتهم المهترئة وبناطيلهم القصيرة المدسوسة داخل الجزمات. كان البعض منهم فقط يرتدي الصديري، ولم يكن أي منهم يرتدي المعاطف. تجمّع الحشد أمام المدفأة الحديدية بوجوه مُتوردة. وكانت طابات البيلياردو تُطقطق بحيث لم يكن بالإمكان سماع أية أصوات أخرى ما عدا ذلك الأنين المتقطع للرياح . كانت تبدو على الرجال علامات الضجر، وكذلك الترقب لما قد يحدث. وكان بين أولئك الرجال أحد عمال المناجم، رجل في منتصف العمر ضخم القامة عريض الأكتاف له شارب كثيف، تكسو وجهه غير المألوف نظرة غير وديّة. نهض الرجل., دسّ تحت ذراعه سلكاً ملفوفاً، ثم جَمع بعض الأشياء الشخصية الأخرى، وغادر المكان دون أن يتكلم كلمة واحدة، وحتى دون أن يُلقي التحيّة على أي من الموجودين. كان ذلك الرجل هو فلينت بوكنر.

وعلى الفور من إغلاقه باب الغرفة وراءه، انطلق حديث ما يُشبه الدوي. حيث قال الحداد جاك باركر:

– لا مثيل لهذا الرجل في الانتظام، فبإمكان المرء عندما يراه يخرج أن يعلم بأن الساعة هي الثانية عشرة حتى دون الحاجة لأن ينظر إلى ساعته.

وقال عامل المنجم بيتر هاوس:

– وهذه هي فضيلته الوحيدة على ما أعلم.

ثم قال فيرغسون :

– لو كنت أنا الشخص الذي يتولى إدارة هذا المكان، لكنت سأرغمه على أن يقول شيئاً من وقت لآخر، أوأن يرحل من المكان.

كان قد قال ذلك وهو يُلقي نظرة ذات مغزى إلى مدير الحانة الذي تظاهر بعدم الالتفات إليه والذي حدّث نفسه:

– لا أهمية لذلك مادام الرجل الذي يدور حوله الحديث من الزبائن الجيّدين، وبما أنه يعود كل ليلة إلى كوخه, بعد تناوله المشروبات في الحانة وهو في حالة جيّدة.

وقال عامل المنجم هام ساندويتش:

– أعلموني، هل سمعه أحدكم قطّ يطلب مشروباً للآخرين؟

– من؟ هو؟ فلينت بوكنر، سيطلب مشروباً؟

كانت تلك المداخلة في الحديث قد تسببت باندفاع الحشد بالكلام بشكل وبآخر. ثم قال أحد عمال المناجم بعد فترة قصيرة من الصمت:

– بوكنرهو الظاهرة الغريبة رقم 15، وذلك الفتى هو الظاهرة الغريبة الأخرى. ليس بإمكاني أن أفهم مثل هذا الأمر.

قال هام ساندويتش:

– كما ليس بإمكان أحد غيرك أن يفهم ذلك. فلو كانا هما الظاهرة الغريبة رقم 15، فكيف سيكون بإمكانكم أن تُصنّفوا تلك الظاهرة الأخرى؟ فعندما يصل الأمر إلى (آ) فتلك أحجية غامضة تتجاوز كليهما بسهولة, أليس كذلك ؟ هل تراهن على ذلك؟

أيدّ الجميع كلامه، الجميع، ما عدا رجل واحد. وكان ذلك الرجل هو قادم جديد يدعى بيترسون. كان ذلك الرجل قد طلب المشروبات للجميع ثم سأل عمن يكون الرجل رقم (3) وأجابه الجميع هو" آرشي ستيلمان "

سأل بيترسون " هل هو لغز؟ "

قال فيركسون رجل فاركو:

– أتسأل فيما إذا كان يعتبر كذلك ؟ لِم لا؟ فالمقاييس الأربعة للجنون تنطبق عليه.

أراد بيترسون أن يعرف كل شيء عنه.

حسناً ، بدأ الجميع بإعلامه بذلك وبدأ الجميع يتحدثون معاً، لكن بيلي ستيفنس صاحب الحانة طلب من الحاضرين التزام النظام، وقال لهم بأن من الأفضل أن يتكلم كل شخص بمفرده، ثم قام بتوزيع المشروبات على الجميع، وكلف فيركسون بالبدء في الكلام.

قال فيركسون:

– حسناً، كل ما نعرفه عنه أنه فتى بإمكانك أن تحاول استخلاص أي شيء منه. ولكن لا فائدة من ذلك. لن تحصل منه على أي شيء. فقد تحاول على الأقل أن تعرف ما هي نواياه أو ما هو نوع عمله، أو من أين أتى ؟ أو ما هو وراءه، أو أية أمور مماثلة ولكن دون فائدة. أما بالنسبة إلى التوصل إلى معرفة طباعه أو التوصل إلى اللغز الكبير الذي يَكمن وراءه، فإن كل ما يفعله هو أنه سوف يقوم بتغيير الموضوع، وهذا كل شيء ! بإمكانك أن تحاول التخمين إلى أن تتعب، فهذا من حقك، ولكن لنفترض أنك قمت بذلك فإلى أين ستصل؟ لن تصل إلى أبعد مما أستطيع ذلك.

سأل بيترسون:

– ما هو الشيء الذي يُميّزه؟

– ربما كانت حدّة النظر، أو ربما السمع أو ربما كانت الغريزة أو السحر، لك اختيار ما تريده من ذلك. سوف أعلمك الآن بما بإمكانه أن يقوم به : بإمكانك أن تقف هنا أوأن تختفي، وبإمكانك أن تذهب وتختفي في أي مكان تريده، فهو لا يأبه بالمكان الذي ستكون فيه، ولا بمدى بُعد هذا المكان، لأنه سوف يتوجه على الفور ويُشير إليك بإصبعه.

– لابد أنك لا تقصد ذلك!

– بل أقصده بالفعل. الطقس، لا يعني الطقس شيئاً بالنسبة إليه، العناصر الأساسية، لا تعني له شيئاً أيضاً، فهو لا يُعيرها أي اهتمام.

– ألهذه الدرجة ؟ ألا يتأثر لا بالظلام، ولا بالمطر ولا بالثلج؟

– جميعها سِيان بالنسبة إليه, فهو لا يُعيرها أي اهتمام.

– أعلمني، أهذا أيضاً بالنسبة إلى الضباب؟

– الضباب! لديه عين كالرصاص بإمكانها أن تخترق الضباب.

– والآن أيها الرجال، ما الذي يعنيه كل ذلك؟

صرخ الجميع: – إنها الحقيقة.

استمر فارغو:

– حسناً سيدي، بإمكانك أن تتركه هنا وهو يتحاور مع الرجال، وأن تتسلّل إلى أي كوخ في المخيم، وأن تفتح كتاباً. نعم سيدي، حتى دزّينة من الكتب، وأن تفتح أية صفحة فيها وتحتفظ بأرقامها في ذاكرتك، فسوف يتوجّه آرشي إلى ذلك الكوخ مباشرة، وسوف يفتح جميع تلك الكتب وعلى ذات الصفحات ودون أن يخطئ في أي منها.

– لابد أنه الشيطان.
– يعتقد أكثر من شخص ذلك... سوف أروي لك الآن أروع ما قام به ليلة أمس...

فجأة وصلت إلى الحانة من الخارج همهمة كبيرة من الأصوات.، ثم فُتح الباب على مصراعيه ودخل جَمع من الأشخاص هم في حالة من الاضطراب الشديد تتقدمهم المرأة البيضاء الوحيدة في المخيم. وكانت تصرخ:

– طفلتي ! طفلتي ! ضاعت طفلتي، رحلت طفلتي! بحقّ الله , ساعدوني في العثور على آرشي ستيلمان، بحثنا عنه في كل مكان ولم نجده.

وقال صاحب الحانة:

– اجلسي، اجلسي سيدة هوغان، لا تقلقي. كان آرشي منذ ثلاث ساعات قد طلب مني غرفة. كان يشعر بالإرهاق من تتبعه الآثار كما يفعل على الدوام، ثم صعد إلى الأعلى.

–هام ساندويتش، اصعد إلى الأعلى وقمّ بإيقاظه. هو في الغرفة رقم (14).

كان الفتى في الأسفل خلال دقائق وعلى أتم الاستعداد. سأل السيدة هوغان عن أية تفاصيل لديها.

قالت السيدة هوغان:

– ليباركك الله عزيزي، ليست لدي أية تفاصيل. كنت أتمنى لو كان لدي أية تفاصيل. كل ما في الأمر أنني كنت قد وضعتها في سريرها في الساعة السابعة مساء، وعندما عدت منذ ساعة لكي أنام أنا أيضاً لم أجدها هناك. ركضت إلى كوخك لكنك لم تكن هناك. وأنا منذ ذلك الوقت أبحث عنك في جميع الأكواخ وفي الوادي. ثم جئت إلى هنا. أنا الآن الإنسانة الأكثر ضياعاً وفزعاً في هذا العالم . أنا الإنسانة المحطمة الفؤاد، ولكن شكراً لله، ها قد وجدتك أخيراً، سوف تجدها يا ولدي تعال، تعال بسرعة !

– سيدتي, لننطلق في الحال، أنا معك, لنذهب أولاً إلى بيتك.

هبّ جميع الموجودين للبحث معهما. مائة من الرجال الأقوياء، كما كان بانتظارهم في الخارج حشد غير معروف ممن يحملون المصابيح المتلألئة. ثم كان الحشد بعد ذلك قد انقسم إلى ثلاث أو أربع مجموعات لكي تتسع لهم الطريق الضيقة، ثم كانوا قد انطلقوا بسرعة خلف قياداتهم وعلى طول خط الجنوب.. وكانوا خلال دقائق، قد وصلوا إلى كوخ هوغان.

حيث قالت السيدة هوغان:

– هذا هو سريرها، كانت هنا، كنت قد وضعتها هنا في الساعة السابعة مساء، لكن الله وحده هو الذي يعلم أين هي الآن.

ثم قال آرشي:

– ناولوني مصباحاً. وبغد أن وضع المصباح على الأرضية القاسية، ركع بجانبه وكأنه يتفحّص الأرضية عن قرب.، تلمّس الأرضية بأصابعه هنا وهناك وإلى أبعد من ذلك ثم قال:

– هذا هو أثرها، هل ترون ذلك؟ .

ركع بعض الرجال إلى جانبه وبذلوا كل ما بإمكانهم لمشاهدة ذلك الأثر. وكان واحد أو اثنان منهم قد اعتقد بأنهم استطاع تمييز ما يشبه الأثر لقدم، بينما هزّ الآخرون رؤوسهم وأقرّوا بأن نظرهم ليس بالحدّة التي تُمكنهم من أن يلحظوا أية آثار للأقدام على الأرضية القاسية المَلسة.

وقال أحدهم:

– قد تترك قدم طفل أثرها على الأرضية لكنني لا أفهم كيف يكون ذلك.

خرج ستيلمان بعد ذلك، وجّه المصباح نحو الأرض، ثم استدار إلى جهة الشمال، وبعد أن خطى ثلاث خطوات، وهو يتفحص المكان عن قرب قال:

– تمكنت من تحديد الاتجاه، تعالي معي سيدة هوغان وليُمسك أحدكم بالمصباح.

ثم بدأ يمشي بسرعة إلى جهة الجنوب وتبعه الرتل. كان يميل وينحني إلى الداخل وإلى الخارج باتجاه المُنعطفات العميقة للممر الضيق، إلى أن قطع مسافة تقارب الميل، وكان بذلك قد وصل إلى بداية الممر، حينئذ طلب منهم التوقف وقال:

– لا يجوز أن نبدأ السير في الطريق الخطأ، علينا أن نبحث عن الاتجاه من جديد.

ثم تناول أحد المصابيح وبدأ بتفحص الأرضية على مسافة تُقارب العشرين ياردة وقال:

– تعالوا. لا بأس.

ثم أعاد المصباح إليهم من جديد ومشى باتجاه اليمين لمسافة تُقارب الربع ميل داخل وخارج الغابة. ثم عاد وتوجه إلى اتجاه جديد وبعد أن قام بنصف دورة أخرى، كان قد غيّر اتجاهه للمرّة الثانية وتوجّه نحو الشرق لمسافة ربع ميل ثم توقف وقال:

– هذا هو المكان الذي استسلمت فيه الصغيرة المسكينة لشدة التعب.، أمسكوا بالمصباح.ها أنتم ترون المكان الذي جلست فيه.

لكن الأثر الذي أشار إليه كان في مكان مَلس كأنه مَطلي بالفولاذ، لذا كان من العسير على أي شخص في المجموعة أن يقول بأنه شاهد بعينيه مثل ذلك الأثر. حينئذ كانت الأم قد سقطت على ركبتيها وبدأت تُقبّل تلك النقطة وتتأوه.

قال أحدهم:

– ولكن أين هي؟ لم تمكث هنا ,بإمكاننا أن نتبيّن ذلك على كل حال.

دار ستيلمان حول المكان وبيده المصباح وكأنه يتتبع الآثار.

ثم قال بلهجة تنم عن الضيق:

–حسناً، لست أفهم ذلك. ثم تفحص المكان من جديد وقال:

– لا فائدة، كانت هنا ــ هذا مؤكد، لم تبتعد عن هنا أبداً، هذا مؤكد، هذا لغز. ليس بإمكاني بعد أن أجد له الحلّ.

كان قلب الأم حينذاك قد انفطر وقالت:

– ياإلهي، لابد أن أحد الوحوش الكاسرة قد أمسك بها، ولن أراها ثانية بعد الآن!..

قال آرشي:
– لا تيأسي سيتي فسوف نجدها، لا تيأسي!

تناولت يده وقبلتها وقالت:
– ليباركك الله على هذه الكلمات المطمئنة.

همس بيترسون القادم الجديد في أذن فيرغسون بسخرية:
– هذا إنجاز رائع سوف يمكنّا من معرفة المكان أليس كذلك؟ لا يستحق الأمر المجيء إلى كل هذه المسافة البعيدة، رغم أن أي افتراض لمكان آخر سوف يؤدي إلى ذات النتيجة ؟

لم يشعر فيرغسون بالسرور لدى سماعه ذلك الكلام المُبطّن وقال بشيء من الحدّة:
– هل تريد أن تُلمّح إلى أن الطفلة لم تكن قد مرّت من هنا ؟ أؤكد لك بأن الطفلة كانت هنا! لو أردت أن تعرّض نفسك لشجار صغير مثل...
حينئذ قال ستيلمان:
– لا بأس تعالوا جميعاً وانظروا إلى هذا! كان أمام أعيننا طوال الوقت ولم نكن قد التفتنا إلى ذلك.
اندفع الجميع بسرعة إلى المكان الذي يُفترض أن تكون الطفلة قد ارتاحت فيه. حاول الكثيرون منهم أن يشاهدوا الشيء الذي كان آرشي يُشير إليه بعينيه. ثم سادت فترة صمت، وصدرت عنهم عدة تنهدات مكتومة تنم عن خيبة الأمل. وقال هام ساندويتش وبات ريلي معاً:
– ما هذا آرشي؟ لا يوجد أي شيء هنا.
– لاشيء؟ هل تُسمّي هذا لا شيء؟ ، ثم حدّد بإصبعه شكلاً على الأرض وقال:
– هنا ألم تتعرفون عليه ؟ هذه آثار قدمي إنجين بيلي , هو الشخص الذي أخذ الطفلة.

قالت الأم: – الحمد لله.
وقال آرشي: – أبعدوا المصباح واتبعوني فقد عرفت الاتجاه!.
ثم بدأ يركض وهو يبحث بين نباتات الميرمُية وعلى مسافة ثلاثمائة ياردة، إلى أن اختفى فوق

أمواج الرمال بينما كان الآخرون يحاولون اللحاق به . ثم عثروا عليه أخيراً ووجدوه بانتظارهم على بعد عشر خطوات في كوخ صغير مُعتم عديم الشكل، مصنوع من الأسمال البالية ومن جلود الخيول القديمة.

قال الفتى:

– تقدمي سيدة هوغان، فمن حقك أن تكوني أول من يدخل.

ركض الجميع وراءها، وشاهدوا معها ذلك المشهد المؤثر الذي كان أمامهم. كان إنجين جالساً على الأرض وكانت الطفلة نائمة بجانبه. حضنتها الأم بعناق عاصف وحضنت كذلك آرشي ستيلمان، دموع الامتنان تسيل على وجهها، وبدأت تغمرها بصوت مخنوق مُنكسر بذلك السيل الغني من كلمات المحبة التي لا مثيل لها سوى في قلب ايرلندي...

علّل بيلي الأمر بالقول:

– وجدتها في الساعة العاشرة تقريباً، كانت نائمة في الخارج، متعبة جداً وكان وجهها مُبللاً بالدموع., وكنت قد أحضرتها إلى هنا. كانت جائعة جداً وبذلك أطعمتها، ثم نامت على الفور".

ثم كانت تلك الأم بذلك الفيض من الشعور بالامتنان، قد أخذت تعانقه ثم تعود وتتركه من جديد لكي تعود لعناقه، وهي تطلق عليه اسم "ملاك الله في هيئة تنكريّة".

ثم توجه موكب الحشد من جديد إلى القرية في الساعة الواحدة صباحاً. كان الجميع يُنشدون ويلوّحون بالمصابيح ويتناولون المشروبات التي كانوا قد حملوها معهم طوال مسيرتهم, إلى أن تمركزوا في الحانة. وكانت تلك الليلة بذلك من الليالي التي استمرت حتى الصباح.

6

وبعد ظهر اليوم التالي ,كانت القرية بأكملها قد اهتاجت بنبأ مثير. وصل إلى الفندق شخص غريب وقور وجليل، ذو مشية مُميّزة وشكل مُميّز، ودوّن الاسم الرائع التالي في سجل الحانة:

شيرلوك هولمز

دوّى النبأ من كوخ لآخر ومن صاحب دعوى لصاحب دعوى. كان كل من في القرية قد ألقوا ما بأيديهم من أدوات واندفعوا نحو مركز الاهتمام. ثم نادى أحد الرجال "بات ريلي" وهو الشخص الذي كان ادعائه يلي ادعاء فلينت بوكنر.

أما فيتلوك جونس فكان يبدو في ذلك الوقت وكأنه أصيب بمرض مفاجئ حيث تمتم لنفسه:

– العم شيرلوك! يا لسوء الحظ! وأن يصل في الوقت الذي...ثم استغرق في أحلامه وحدث نفسه:

– ولكن ما فائدة شعوري بالخوف من وجوده ؟ أي شخص قد يعرفه كما أعرفه أنا، يعلم بأن ليس بإمكانه أن يكتشف الجريمة ما لم يكن قد خطط لكل شيء مُسبقاً، وبأن يكون قد وضع لها الدلائل ثم قام بتكليف أحد الأشخاص بارتكابها وفق تعليماته!... ولكن لن تكون لديه هذه المرة أية دلائل.. وبذلك فما هو الاستعراض الذي سوف يحصل عليه؟ لاشيء على الإطلاق!. لا سيدي! أصبح كل شيء جاهزاً الآن... ولو كنت سأجازف بتأجيله...لا، لا, لن أعرّض نفسي لمثل هذه المجازفة، وسوف يخرج فلينت بوكنر من هذا العالم وبالتأكيد هذه الليلة.

ثم تبيّن له بأن هناك مشكلة أخرى وحدّث نفسه:

– سوف يرغب العم هولمز بالتحدث معي هذه الليلة عن بعض الأمور العائلية، ولكن كيف سأتمكن من التخلّص منه ؟ علي أن أتواجد في حجرتي قبل دقيقة أو دقيقتين من الساعة الثامنة. كان ذلك من الأمور المُربكة التي تطلّبت منه للتفكير ملياً.

لكنه كان مع ذلك قد وجد الطريقة لتجاوز تلك العقبة وقال:

– حسناً، سوف نذهب في نزهة، سأتركه في الطريق لدقيقة، وبذلك لن يشاهد ما سأفعله. وعلى كافة الأحوال، الطريقة الأفضل لإبعاد التحرّي عن طريقك، هي بأن يكون ذلك التحرّي برفقتك عندما تستعد لتنفيذ الأمر. نعم، هذه هي الطريقة الأسلم. سوف أصطحبه معي...

كان الطريق المقابل للحانة في ذلك الوقت قد ازدحم بالقرويين الذين كانوا ينتظرون ويأملون إلقاء نظرة على ذلك الرجل العظيم. لكنه لم يكن قد ظهر للعيان، وبذلك لم يحالف الحظ أي منهم ما عدا فيرغسون وجاك باركر الحداد وهام ساندويتش الذين كانوا من المعجبين جداً بذلك الرجل التحرّي العلمي العظيم, والذين كانوا لشدة حماسهم قد قاموا باستئجار غرفة المستودع في الحانة وهي الغرفة التي تُطل على غرفة التحرّي عبر الممر وهي باتساع عشرة أو اثنا عشر قدماً فقط , ثم كَمِنوا فيها وقاموا بشقّ بعض الفتحات في ستائر النوافذ.

كان السيد هولمز قد أرخى الستائر، لكنه كان يرفعها من حين لآخر، وهذا ما جعل شعر رأس أولائك الجواسيس يرتفع، إلا أن ذلك كان بذات الوقت قد منحهم رعشة ممتعة، وهم يجدون أنفسهم وجهاً لوجه أمام ذلك الرجل الخارق، الذي انتشرت شهرة أعماله الأكثر من بشرية في جميع أنحاء العالم... كان جالساً هناك إنسان حيّ وليس أسطورة، ولا ظلّ إنسان، تركيبة حقيقية من المواد ، وبأن يكون هكذا على مسافة قريبة من لمسة أيديهم...

قال فيرغسون بصوت تملأه الرهبة:

– بالله عليك أهذا رأس؟

قال الحداد بجدّية:

– رجل ألمعي أليس كذلك! انظر إلى هذا الأنف! انظر إلى هاتين العينين! ذكاء مُتوقّد؟ يبدو وكأن بداخله بطارية!

وقال هام ساندويتش:

– وهذا الشحوب الذي لابد وأنه ناجم عن التفكير. نعم، هذا ما نجم عنه ! يا للجحيم؟ الأغبياء مثلنا لا يعرفون ماهو التفكير.

قال فيرغسون:

– ليسسيدي،عرفه نحن، فما نعتبره نحن من التفكير ليس سوى عبارة عن بدانة واسترخاء.

– أنت على حق، انظر إلى تقطيبة الجبين تلك، هذه دلالة على عمق التفكير، التفكير العميق، التفكير الذي يثبر أغوار الذهن، لابد أنه يقوم بتعقب أحد الأمور.

– تماماً، هذا ما يقوم به بالفعل. لا تنس ذلك. انظر إلى هذا الوقار المخيف، انظر إلى هذا الشحوب المَهيب الذي لا تُشبهه أية جثة.

– لا سيدي ، ليس هذا بسبب الدولارات! وليس أيضاً بموجب قوانين الوراثة. كان قد مات سابقاً أربع مرات، وله تاريخ في ذلك. كان موته ثلاث مرات لأسباب طبيعة، وكان قد مات مرة أخرى نتيجة حادثة. نُمي إليّ أنه كان خامداً وبارداً كالقبر وبأنه...

– اصمت! ارقبه! يقوم الآن بوضع إبهامه على نتوء بجانب زاوية جبينه وبوضع سبابته على الطرف الخلفي. لابد أن ذهنه يعمل بجهدّ، أتراهن على قميصك الثاني؟

– اتفقنا. هو يُحدّق الآن نحو السماء، ويُمرِّر أصابعه على شاربه ببطء و...

– نهض الآن ووقف، وهو الآن يستجمع أفكاره معاً، ويُحصي الدلائل على أصابعه اليسرى بإصبعه اليمنى.انظر إليه هو الآن يلمس سبابته، هو الآن يلمس إصبعه الأوسط، والآن بنصره...

– انظر إليه, إنه يعبس الآن، يبدو وكأنه لم يتمكن من استخراج تلك الفكرة من ذهنه وبذلك هو...

– انظر إليه هو يبتسم الآن أشبه بنمر...هو الآن يُطبق على الأصابع الأخرى! ها قد حصل عليها (الفكرة) أيها الرفاق. حصل عليها بالتأكيد!...

– تماماً، أستطيع أن أقول بأنني أكره أن أكون مكان الرجل الذي يُلاحقه.

ثم سحب السيد هولمز طاولة إلى جانب النافذة، وجلس وظهره إلى الجواسيس واستمر بالكتابة. حينئذ أدار الجواسيس أعينهم عن الشقوق وأشعلوا الغلايين واستعدوا لتبادل الأحاديث وللتدخين بهدوء.

قال فيرغسون باقتناع:

– أيها الرفاق, هذا الرجل أعجوبة، إنه معجزة، وتبدو عليه كل العلامات التي تُشير إلى ذلك.

وقال جاك باركر:

– لم تقل يوماً كلمة أكثر صِحّة من هذه، ويلس فارغو، لو أنه كان هنا يوم أمس، لكان ذلك ضرباً من الجنون.

قال فيرغسون:

– كنا سنشاهد عملاً علمياً ثقافياً، عمل علمي مَحض، وفوق مستويات الدون كيشوتية. آرشي بالطبع جيّد، ولا يحق لأي شخص أن يُقلّل من قدره، أستطيع أن أقول لك ذلك. لكن موهبته تَكمُن في نظرته الثاقبة التي تُشبه البوم , كما بإمكاني أن أصفها. هي موهبة كبيرة ذات طبيعة حيوانية، لا أكثر ولا أقلّ... وهي موهبة جيّدة، لكنها ليست من الذكاء. أما من ناحية الروعة فإن ما يفعله لايمكن أن يُقارن بما يفعله هذا الرجل . دعني أقول لك بما كان سيفعله:

– سوف يتوجه نحو منزل هوغان ويُلقي عليه نظرة إلى المباني، نظرة فقط هذا كل شيء وهذا يكفي وسوف يرى كل شيء؟ نعم سيدي، سوف يرى أدقّ التفاصيل، وسيقوم بإعلامنا عن ذلك المكان بتفاصيل أكثر مما كان بإمكان السيدة هوغان أن تعرفه خلال سبع سنوات. وكان سيجلس بعد ذلك بكل هدوء على السرير، ويقول للسيدة هوغان:

– سوف أوجّه إليك بعض الأسئلة وعليك أن تجيبيني عليها.

– حسناً، فلتبدأ.

– من فضلك سيدتي ــ انتبهي! ولا تدعي أفكارك تتشتت، والآن ما هو جنس الطفل؟

– أنثى سيدي.

– هم... أنثى. جيّد جداً، جيّد جداً، والسن؟

– بدأت بالسادسة سيدي.

– هم... صغيرة، ضعيفة... ميلان (3,5كم)، سوف تنهار بالطبع وبذلك سوف تستغرق بالنوم. سوف نبحث عنها على بعد ميلين أو أقل. وما هو عدد الأسنان؟

– خمسة، سيدي، والسادس قيد النمو.

– جيّد جداً، جيّد جداً، جّيد جداً بالفعل. أترين؟ يعرف الصبية عادة الطريق عندما يشاهدونه، بينما قد لا يعني ذلك شيئاً بالنسبة إلى أي شخص آخر. الجوارب والحذاء سيدتي؟

– نعم سيدي , الاثنين.

– من الغزل أو ربما من الجلد المراكشي الفاخر؟

– من الغزل والجلد، سيدي.

– هم... من الجلد, هذا يُعقد الأمور، ومع ذلك لندع هذا جانباً ــ فسوف نتدبر الأمر. الديانة ؟

– كاثوليكية، سيدي.

– جيّد جداً، أعطني من فضلك قُصاصة من ملاءة السرير. شكراً. جزء مجدول من الصوف ــ مصنوع في الخارج. جيّد جداً، أعطني أيضا قُصاصة من ملابس الطفلة. شكراً لك. من القطن، هذا دليل ممتاز، ممتاز... لو سمحت، أعطني بعض القش من أوساخ الأرضية. شكراً، شكراً جزيلاً، هذا رائع، رائع!

– أيها الرجال! بإمكاننا الآن أن نُحدد موقعنا. أعتقد بأننا نكون بذلك قد حصلنا على جميع الدلائل التي نحتاج إليها. ولم نعد في حاجة إلى أي شيء آخر...

والآن، ما الذي سيفعله ذلك الرجل الاستثنائي؟ سوف يضع تلك القصاصات والأوساخ على الطاولة وسوف يضع مرفقيه عليها ث وينحني عليها لكي يفرزها. وسيضع كل منها بجانب الأخرى، لكي يدرسها.

وسوف يُتمتم لنفسه: " أنثى". سوف يقوم بتغيير أمكنتها مرّة أخرى، ويُتمتم " في السادسة من العمر"، ثم يقوم بتغيير أمكنتها من جديد ويتمتم "خمسة أسنان وسنّ أخرى قيد النمو"، كاثوليكية، صوف، قطن، جلد – اللعنة على هذا الجلد. ثم يشدّ قامته وينظر نحو السماء، وهو يُمرّر أصابعه في شعره, ويعود ويمرّرها ويمرّرها وهو يتمتم "اللعنة على ذلك الجلد". ثم سيقف ويقطب جبينه ويبدأ بتعداد الأدلّة على أصابع يده. سوف يتردد عندما يصل إلى البنصر، ولكن ذلك لدقيقة فقط، ثم يُشرق وجهه بالكامل بابتسامة أشبه بشعلة, وبعد أن يشّد قامته ثانية بشكل مَهيب سوف يقول للحشد:

– فليأخذ مجموعة منكم المصباح، ولننطلق إلى إنغوين بيلي لنبحث عن الطفلة، وليذهب الباقون إلى أسرّتهم، "عِمتم مساء أيها السادة" ., ثم ينحني وكأن الأمر قد أنجز وينسحب لكي يذهب إلى الحانة. هذا هو أسلوبه، وهذا هو الأسلوب الوحيد العلمي والدقيق. وسوف يكون بذلك قد أنهى كل شيء خلال خمسة عشر دقيقة. ولا حاجة لأن يتفحّص الأمكنة بواسطة فرشاة ناعمة لمدة ساعة ونصف، أو لأن يرافقه حشد من الناس. أيها الرفاق, هل تُصغون إلي, أيها الرفاق؟

قال هام ساندويتش:

– هذا شيء عظيم، جعلت منه رجلاً لا نظير له على الإطلاق، جعلته رجلاً لايمكن حتى للكتب أن تصفه. كأن بإمكاني الآن أن أراه يفعل ذلك. ألا تستطيعون ذلك، أيها الرفاق؟

– أتراهن على ذلك؟ هذه مجرد صورة عنه وهذا هو الواقع.

شعر فيرغسون بالسرور العميق وبالامتنان لنجاحه. جلس لفترة بصمت وهو يتمتع بسعادته، ثم همس بصوت تملأه الرهبة:

– أتساءل فيما إذا كان هذا الرجل من مخلوقات الله؟

وللحظة، لم يُجبه أحد، ثم قال هام ساندويتش بجديّة:
– أظن أن ذلك لا يحدث دوماً.

7

وفي الساعة الثامنة من مساء تلك الليلة، كان شخصان يتلمّسان طريقهما في الظلام إلى أبعد من كوخ فلينت بوكنر. كانا شيرلوك هولمز العم وابن شقيقه فيتلوك.

قال فيتلوك:
– عمي، توقف قليلاً في الطريق، ريثما أذهب إلى حجرتي, ولن أتأخر أكثر من دقيقة.

ثم طلب منه شيئاً ــ وأعطاه عمه ما طلبه ــ ثم اختفى في الظلام. وكان قد عاد بسرعة.

كانت نزهة المحادثة قد انتهت في الساعة التاسعة مساءً وبذلك عادا معاً إلى الحانة. شقا طريقهما إلى غرفة البيلياردو حيث كان حشد من الناس قد تجمّعوا، بأمل إلقاء نظرة على ذلك الرجل الاستثنائي. ارتفعت الهتافات له بتحيّة ملكية، وعبّر السيد هولمز عن شكره بسلسلة من انحناءات المجاملة، وبينما كان في طريقه للخروج قال ابن شقيقه للحشد:

– أيها السادة، لدى عمي هولمز بعض الأعمال التي ستشغله حتى الساعة الثانية عشرة أو الواحدة، لكنه سيعود من جديد، وقد يعود في وقت أبكر لو تمكن من ذلك. وهو يأمل في أن يتمكن بعضكم من تناول المشروب برفقته.

صاح فيرغسون:

– بحق الله، أليس هذا الرجل دوقاً أيها الرفاق؟ ثلاثة هتافات لأجل شيرلوك هولمز، أعظم رجل خُلق في هذا العالم!

علت الهتافات وهزّت المبنى: "هورا.. هورار.. هورا.. النمر! " كانت تلك الهتافات تصدر من صميم قلوبهم وبصوت أعلى فأعلى.

كان العم وهم في الأعلى قد أنّب ابن شقيقه بلطف بأن قال:

– حسناً، لم ربطتني بهذا الموعد؟

–عمي ! لا أعتقد بأنك لا تودّ أن تكون لك أية شعبية. ألست ترغب بذلك بالفعل ؟ حسناً، إن كنت لا تالتقدير،كون لك مثل هذا التقدير ، فسوف يكون هذا لكي يكون لك على الأقلّ بعض التميّز في مخيم التنقيب ؟ هذا كل شيء. الرجال معجبون بك, ولو كنت ستغادر دون أن تتناول الشراب معهم فسوف يعتبرونك متكبّراً، كما أنك بالإضافة إلى ذلك , كنت قد أعلمتني بأن لديك من الأحاديث ما سوف يجعلنا نبقى مستيقظين حتى منتصف الليل.

كان الفتى بذلك على حق, وكان العمّ قد أقرّ بذلك. كما أن الفتى كان حكيماً في أمر آخر لم يكن قد يشير إليه ــ سوى إلى نفسه حيث قال:

– سوف أستفيد من عمي ومن الآخرين بأسلوب وضع المسمار في المكان الذي يمكن أن يُستفاد منه، وهو ما يعني وما يدّل على " وجود المتهم في مكان آخر وقت وقوع الجريمة "

ثم تحدثا هو وعمه لمدة ثلاث ساعات ودون توقف. وكان فيتلوك قد غاأغنيات ونوادرذلك في حوالي منتصف الليل، ووقف ينتظر في الظلمة وعلى بعد اثنتي عشرة خطوة منها.

وبعد خمس دقائق كان فلينت بوكنر قد خرج من الحانة وهو يتأرجح في مشيته، حتى أنه كاد يلامس فيتلوك وهو يمر بجانبه. تمتم الفتى حينئذ:

"ها قد هزمته! واستمر في التحدث مع نفسه بالقول :

– وداعاً فلينت بوكنر وداعاً، وإلى الأبد ... كنت قد شتمت والدتي لا بأس، لا بأس، ها أنت الآن يا صديقي تمشي للمرة الأخيرة.

ثم عاد إلى الحانة وهو مستغرق في تفكيره:

لاتزال لدي ساعة من الآن حتى الساعة الواحدة، سوف أمضيها مع الرجال، فهذا جيّد بالنسبة لتبرير مكان تواجدي.

ثم رافق عمه شيرلوك هولمز إلى غرفة البيلياردو، التي كانت مزدحمة بعمال المناجم المُتلهفين للقائه وبالمعجبين به, وبعد أن أطلّ الضيف,. كان قد تم توزيع المشروبات على الجميع ثم بدأ اللهو. كان الجميع سعداء وكان الجميع مُجاملين. ذاب الثلج بسرعة، أغنيات ونوادر، ثم المزيد من المشروبات. وهكذا مرّت تلك الدقائق الحافلة. ثم... وقبل ست دقائق من الواحدة، وبينما كان المرح في ذروته ــ بووووم ! (سُمع صوت انفجار).

ساد الصمت على الفور. في الوقت الذي كان فيه ذلك الصوت القوي لايزال يهدر ويقعقع في المضيق من قمة إلى قمة إلى خمد نهائياً...

وبعد أن انقضت فترة الذهول، كان الجميع قد ركضوا إلى الباب وهم يرددون:

– انفجار! انفجار! لابد أن شيئاً ما قد انفجر.

ثم سُمع من خارج الخانة ,صوت في الظلام يقول:

– حدث الانفجار في المضيق بعيداً عن هنا, كنت قد شاهدت الوميض عن بعد.

اندفع الجميع معاً إلى الوادي: هولمز، فيتلوك، آرشي ستيلمان والجميع, وكانوا قد قطعوا مسافة الميل خلال بضع دقائق. وهناك, وعلى ضوء المصباح، وجدوا بأنه لم يكن قد تبقى من الأرضية المَلسة المتينة القذرة لكوخ فلينت بوكنر أي شيء، ولا حتى ذرّة واحدة... ولا حتى قطعة قماش صغيرة... ولا حتى كِسرة واحدة... ولا حتى أي أثر لفلينت. بحث الجميع هنا وهناك وإلى مسافة أبعد ثم صرخ أحدهم:

– ها هو!

كان ذلك صحيحاً. كانوا قد عثروا عليه على بعد خمسين متراً وفي أسفل الوادي ولكن ما عثروا عليه كان عبارة عن كتلة مُمزقة لا حياة فيها تُمثل فلينت بوكنر. وكان فيتلوك جونز أيضاً قد أسرع إلى هناك برفقة الآخرين ونظر إليه....

وكان التحقيق بعد ذلك عبارة عن قضية لم تستغرق سوى خمس عشرة دقيقة. قام هام ساندويتش كبير المحلفين بتقديم المطالعة القانونية التي كان قد ألقاها بأسلوب أدبي لبق، ثم اختتمت الجلسة بحكم المحلفين الذي كان:

" حدثت الوفاة بفعل المتوفى أو بفعل شخص آخر، أو بفعل بعض الأشخاص الذين لم تتمكن هيئة المحلفين من معرفتهم، لأنهم لم يتركوا خلفهم أية قرائن سوى ذلك الكوخ الذي انفجر بكامله، وليرحم الله روحه. آمين".

ثم انضمت هيئة المحلفين النافذة الصبر بعد ذلك إلى الحشد ذلك لأن مركز الاهتمام شيرلوك هولمز كان متواجداً هناك.

وفي الوقت الذي تجمع فيه العاملون في المنجم بصمت ووقار على شكل نصف دائرة تُطوّق المساحة الفارغة التي كانت الواجهة الأمامية لمكان المبنى السابق الوجود., كان الرجل الاستثنائي يتجوّل في تلك الساحة، يساعده في ذلك ابن شقيقه الذي رافقه وهو يحمل المصباح. أخذ الرجل الاستثنائي مقياس موقع الكوخ بواسطة شريط., ثم قاس ارتفاع حواف المسافة ما بين جدار المضيق والطريق, ثم علو المضيق وغير ذلك من مختلف المقاييس. – سوف قطعة قماش من هنا، وشظية من هناك, وجمع حفنة تراب من هنا ثم من هناك ثم من مكان أبعد واحتفظ بها بعد أن تفحّصها بإمعان. ثم أخذ موقع المكان بواسطة الفرجار، وسجّل الوقت بحسب ساعته بعد أن قام بتعييرها حسب التوقيت المحلي., وحسب سرعة السير بين الكوخ والجثة وقام بتصحيحها بالاستناد لاختلاف المدّ والجزر. كما دوّن وضع الجثة بواسطة البارومتر، وسجّل الحرارة بواسطة مقياس الحرارة(الترمومتر). وقال أخيراً وهو ينحني بوقار:

– ها قد انتهينا. ألن نعود أيها السادة ؟

ثم توجّه نحو الحانة بينما بقي الحشد بجانب جثة الميت، وهم يتحاورون باهتمام، ويُبدون إعجابهم بذلك الرجل الاستثنائي، ويوردون مختلف التخمينات حول مصدر المأساة وحول من قد يكون الفاعل.

قال فيرغسون:

– أيها الرفاق، أليس من حسن الحظ أن يكون هذا الرجل هنا؟

وقال الحداد جاك باركر:

– سوف يُدوّي هذا الحدث في كل المخيم أليس كذلك فارغو؟

قال فارغو:

– حسناً، بما أنك تسألني عن رأيي، ولو كان هناك ما يشير إلى كيفية رؤيتي للحادث، فبإمكاني أن أقول لك هذا: كنت يوم أمس أطلب بالقدم الواحدة من الأرض دولارين، وأنا أتساءل الآن فيما إذا كان بإمكان أي رجل أن يحصل عليها اليوم بستة عشر دولاراً.

– أنت على حق فارغو، هذه أكبر ضربة حظ بالنسبة لموقع تنقيب جديد.

ثم قال:

– أرأيت كيف كان يجمع النفايات والقصاصات ومختلف الأشياء؟ ما هذه القوة في الملاحظة؟ لا يمكن أن يتغاضى عن أية دلائل.

– الأمر بالفعل كذلك. قد لا تعني تلك الأشياء شيئاً بالنسبة لأي شخص آخر. هناك كتاب حول مثل هذه الدلائل, وهو مؤلف ضخم جداً.

– هذا مؤكّد، فتلك النثريات لها سرّها الصغير القديم ، وهم يعتقدون بأنه ليس بإمكان أي شخص آخر أن يستخلصه منها. ولكن لا تنسوا أيها الرفاق بأنه عندما سوف يستحوذ عليها ، فما على الآخرين إلاّ أن يصرخوا!...

– أيها الرفاق، أنا لست آسفاً في الوقت الحاضر لأنه لم يكن هنا لكي يعثر على تلك الطفلة. فهذا الأمر بنظري أكثر بعداً وهو أكثر أهمية. نعم سيدي، وهو أيضاً أكثر تعقيداً فهو أمر علمي ويحتاج إلى ذكاء.

– أظن بأننا جميعاً قد سررنا لأن الأمور تمت بهذا الشكل. سررنا ؟ يا إلهي، لا يوجد أي تعبير يصف ذلك. بإمكان على دون كيشوت آرشي أن يتعلم منه، هذا لو كان لديه بعض الإدراك، عليه أن يقف بجانبه ويلاحظ الأسلوب الذي يتّبعه هذا الرجل في عمله. ولكن لا، فكل ما فعله كان بأن تسكع داخل المضيق، وبذلك أضاع فرصة الاطلاع على كل ما جرى.

– هذا صحيح، وكأنه الشخص الذي لا يخطئ، شاهدت ذلك بنفسي. حسناً، آرشي لازال شاباً، وسوف يُدرك الأمور بشكل أفضل ذات يوم.

– والآن أيها الرفاق، برأيكم من هو الشخص الذي قام بذلك؟

كان ذلك هو السؤال الذي تصعب الإجابة عليه، وكانت قد نجمت عنه العديد من التخمينات غير المُرضية. تم استعراض أسماء العديد من الرجال الذين يُحتمل أن يكونوا قد فعلوا ذلك., ثم تم استبعادهم الواحد تلو الآخر لعدم أهليتهم للقيام بذلك., فلم يكن من بينهم من هو على علاقة وثيقة بفلينت بوكنر سوى ذلك الشاب هيلير. كما لم يسبق أن تشاجر مع فلينت أحد فعلياً، فهو من كان يتحدّى كل من كان يحاول ذلك، حتى لو لم تسئ إليه إلى الدرجة التي تتطلب إراقة الدماء. لكن الحقيقة أن اسماً واحداً كان على طرف لسان كل منهم، لكنه كان آخر اسم تم النطق به وهو اسم " فيتلوك جونس" وكان بات ريلي هو الشخص الذي أورد اسمه.

قال الرجال :

– أووه، حسناً، هذا ما خطر ببالنا جميعاً بالطبع، فلديه مليون سبب قد يجعله يقتل فلينت بوكنر لأجله، وببساطة لأن من واجبه أن يقوم بذلك، ولكن هناك أمران ليس بإمكاننا أن نُغفلهما مع ذلك، الأول لأنه ليس لدى فيتلوك أية مواد متفجّرة، والأمر الآخر لأنه لم يكن بالقرب من المكان عندما وقع الحادث.

قال بت:

– أعلم هذا، لأن فيتلوك كان معنا في غرفة البيلياردو عندما وقع الحادث.

– نعم، كما كان طوال الوقت هناك قبل حدوث الانفجار.

– هذا هو الواقع، وهذا أيضاً من حسن حظه لأن الشكوك كانت ستتجه إليه، لو لم يكن الأمر كذلك.

8

أخليت غرفة الطعام في المفروشات ما عدا كرسي واحد و طاولة بطول ستة أقدام مصنوعة

من خشب الصنوبر. كانت الطاولة في نهاية أحد أطراف الغرفة وكان الكرسي عليها. جلس شيرلوك هولمز على ذلك الكرسي بجلال مَهيب ومؤثّر., في الوقت الذي وقف فيه الحشد بالانتظار. كانت الغرفة تعبق بدخان السجائر وقد ساد فيها سكون عميق.

رفع الرجل الاستثنائي يده مُطالباً بالمزيد من الصمت. تركها في الهواء للحظات., ثم بدأ يوجّه السؤال تلو الآخر ويدوّن الإجابات وهو يُهمهم ويهزّ رأسه. وكان بهذه الطريقة قد حصل من جميع الأشخاص على كل ما بإمكانهم أن يُزودونه به من معلومات عن فلينت بوكنر، شخصيته، تصرفه وعاداته. وهذا ما جعل ذلك الرجل الاستثنائي يعرف بأن ابن أخيه هو الشخص الوحيد في ذلك المنجم الذي لديه الدافع لقتل فلينت بوكنر!

ابتسم هولمز بتعاطف للشهود وسأل بفتور:

– هل لدى أي منكم إمكانية تحديد مكان تواجد فيتلوك جونس أثناء وقوع الانفجار؟

تلا ذلك إجابة عاصفة:

– كان في غرفة البيلياردو في الحانة!

– وهل كان قد وصل لتوه إلى هناك ؟

– لا، كانت قد مرّت ساعة على وجوده هناك!

– أي أن هذا كان حوالي..الضحك ممزوجةاً، كم يبعُد ذلك عن موقع الانفجار؟

– حوالي الميل الواحد.

– قد لا يُعتبر مثل هذا الأمر دليلاً كافياً على تواجده بعيداً عن موقع الحادث، هذا صحيح ما لم يكن فيتلوك أشبه بسرعة البرق!..

انفجر الجميع بعاصفة من الضحك ممزوجة بالهتاف:

– وأنت ساندي، ألست تأسف الآن لما قلته؟ توقف الآن عن الإدلاء بباقي الإفادة.

وكان هذا ما جعل وجه الشاهد يصطبغ بحمرة الخجل والأسف.

استمر المحقق :

– هذا ما يستبعد إلى حدّ ما تلك الصلة البعيدة للفتى جونس بهذه القضية (ضحك الموجودون) لذا دعونا الآن نعود إلى أدوات إثبات للمأساة لكي نستمع لما ستشير إليها.

ثم أخرج القطع الصغيرة التي كان قد جمعها كأدوات للإثبات، وقام بتنضيدها على ركبتيه فوق

قطعة من الكرتون.

حبس جميع من في المنزل أنفاسهم وبدؤوا يرتقبون ما سيحدث. قال هولمز:

– لدينا هنا خطّي الطول والعرض بعد أن تم تصحيحهما, وهذا ما سيسمح لنا بتحديد الموقع الدقيق للمأساة. كما لدينا خطّ العرض وكذلك درجتي الحرارة والرطوبة التي كانت سائدة وقت وقوع المأساة، وهذا ما سوف يُمكنّنا من التقدير الصحيح لدرجة تأثير ذلك على مزاج وعلى وضع القاتل في ذلك الوقت من الليل.

علت موجة من دوي الأصوات التي تعبّرعن الإعجاب، ثم تلا ذلك غمغمة بعبارة:

– يالله، ما هذا العمق؟ .

أشار هولمز بعد ذلك إلى أدوات الإثبات التي كانت أمامه وقال:

– والآن، لنترك هذه الدلائل تتحدث إلينا.

– لدينا هنا كيس قطني فارغ من الطلقات، فما الذي يشير إليه ؟ يُشير إلى ما يلي: الهدف من القتل هو السرقة وليس الانتقام. وما الذي يُشير إليه بالإضافة إلى ذلك؟ يُشير إلى أن القاتل ليس على مستوى رفيع من الذكاء، أو لنقل بأن القاتل هو شخص قليل الفطنة أو ما يشابه ذلك. وكيف أدركنا ذلك؟ ذلك لأن الشخص الذي يتمتع بمحاكمة عقلانية صحيحة لن يفكر بسرقة بوكنر الذي لم يكن يوماً يمتلك الكثير من المال. لذا قد يكون القاتل من الغرباء؟ والآن لنترك الأدلّة تتحدث عن نفسها:

– سوف أبدأ بهذه الأداة، هذه قطعة من الصّوان، وهو أمر غريب. تفحّصوها من فضلكم ــ أنت ــ وأنت! أعيدوها إلي الآن. يوجد مثل هذا النوع من المعادن على بعد ميلين من هنا على وجه التقريب وبذلك فهذا المعدن برأيي يقع على بعد مسافة يوم من هنا، وهو معدن ذو شهرة عالمية، ولدى المائتي شخص الذين يمتلكونه ثروات تفوق التصور. أعلموني بعرق هذا النوع من المعدن من فضلكم!

كانت الإجابة السريعة:

– البيرق المسيحي الموحدّ و ماري آن!

تلا ذلك هتاف عالي، وكان كل رجل منهم قد أمسك بيدّ الرجل الذي بجانبه وأخذ يعتصرها

والدموع في عينيه. وهتف ويلس فارغكسون:
– يوجد على المعدن نقش واضح، وهذا النوع من المعدن يقع على بعد مائة وخمسين قدماً من هنا.

وعندما ساد الهدوء، تابع السيد هولمز:
وهكذا نكون قد أقمنا ثلاث وقائع جعلتنا نفطن إلى ما يلي:
– القاتل من النوع القليل الفطنة.
– وبأنه ليس من الغرباء.
– وبأن هدفه كان السرقة وليس الانتقام.

ولنتابع الآن. أنا أمسك بيدي قطعة صغيرة من الفتيل المُفرقع الذي لا تزال رائحة الاشتعال الأخير فيه، فما هي الدلالة على ذلك؟ لو جمعنا هذه مع دليل الإثبات المتعلّق بقطعة معدن كوارتز(الصوان) فسوف يكون في هذا ما يكشف على أن القاتل من عمال المناجم. وما الذي يدلّ عليه هذا؟ يدّل على أن عملية القتل تمت بواسطة مواد متفجرة. وما الذي يُشير إليه هذا أيضاً ؟ يُشير إلى أن المادة المتفجرة كانت موضوعة بجانب الكوخ في الجهة الأمامية التي تقع إلى جانب الطريق وعلى بعد ستة أقدام من المكان الذي وجد فيه بوكنر...

– أحمل هنا في يدي عود ثقاب مُحترق من النوع المصنوع في السويد ــ وهو النوع الذي يُشعله المرء من علبة لها صمام أمان – كنت قد عثرت عليه في الطريق، وفي نقطة تقع على بعد ستمائة واثنين وعشرين قدم من الكوخ المدمّر. فما الذي يُشير إليه ؟ هذا يعني بأن إشعال ذيل الفتيل قد تم من تلك النقطة. وما الذي يُشير إليه أيضاً ؟ يُشير إلى أن القاتل كان أشولاً. وكيف كان بإمكاني أن أعلم بذلك؟ أيها السادة، لن يكون بإمكاني، أن أشرح لكم كيف علمت بذلك، بما أن الدلائل كانت مُضلّلة بحيث يحتاج المرء إلى خبرة طويلة وإلى دراسة عميقة لكي يتمكن من اكتشافها. ولكن الدلائل هنا، ويُعزّزها الواقع, ولابد أنكم كثيراً ما اطلعتم عليها في القصص البوليسية الرائعة:
"جميع القتلة من ذوي الأيادي الشولاء".

قال هام ساندويتش وهو يضرب بيده على فخذه:

– بحق الله، فإذن هذا هو الأمر! أشعر بالندم لأنني لم أفكر بذلك من قبل.
وصاح العديد من الموجودين:
–ولا أنا، ولا أنا، لا يمكن أن يغفل هذا الأمر عن أي أمر، انظر إلى عينيه !

استأنف هولمز حديثه:
– سادتي، على الرغم من أن القاتل كان على مسافة من الضحية المنكوبة، فهو لم يكن أيضاً قد نجا تماماً من الإصابة بأذية., وقد أصابته هذه الكسرة من الخشب التي أعرضها عليكم الآن وجعلته ينزف، وهو يحمل العلامة التي تعتبر الدليل القاطع على ذلك., كنت قد التقطتها من المكان الذي كان يقف فيه عندما قام بإشعال الفتيل.
نظر إلى الموجودين من أعلى المقعد وبدأت ملامحه تكفهر، ثم رفع يده ببطء وأشار قائلاً:
– ها هو القاتل، القاتل يقف هناك!

كان كل من في المنزل قد أصيبوا لوهلة بشبه شلل لشدة الدهشة، ثم علت أصوات ما لا يقل عن العشرين منهم بعبارة:
– سامي هيلير؟ لا، لا, ليس هو؟ هذا جنون مُحقّق.

قال هولمز:
– احترسوا أيها السادة ــ لا تتسرعوا، لاحظوا آثار الدم تلك على جبينه.

شحب وجه هيلير لشدة الخوف، وكان على وشك الانفجار بالبكاء. تغيّرت ملامحه وبدأ ينقل بصره من وجه لآخر وكأنه يناشد الموجودين التعاطف والعون، ثم مدّ يديه نحو هولمز وبدأ يدافع عن نفسه:
– لا تقل هذا،لا تقل هذا، لم أفعل هذا على الإطلاق، أنا أؤكد لك، لم أفعل ذلك على الإطلاق. والطريقة التي أصبت بها بهذا الجرح على جبيني كانت...

صاح هولمز:
– أيها الشرطي، اقبض عليه وسوف أقسم على ذلك أمام الضابط.
تحرك الشرطي إلى الأمام على مضض، ثم تردد وتوقف.

اندفع هيلير ثانية مدافعاً عن نفسه وقال:
– أرجوك آرشي، لا تدعهم يفعلوا هذا بي، سوف يقضي هذا على والدتي! أنت تعلم كيف أصبت بهذا الجرح، أعلمهم بذلك وأنقذني, آرشي أنقذني!

كان ستيلمان قد شقّ حينئذ طريقه إلى الأمام وقال:
– نعم، لا تخف، سوف أنقذك.

ثم قال للموجودين:
– لا تلتفتوا إلى ذلك الجرح، فليس لذلك أية علاقة بهذه القضية، وهو ليست نتيجة حتمية له.
– ليباركك الله آرشي ،أنت صديق حقيقي.

صاح الموجودون تفاخراً بوجود مثل تلك الموهبة لديهم، وقد تصاعد في قلوبهم فجأة الشعور بالوفاء:
– فليحيا آرشي! هيا أيها الفتى فلتوجّه لكليهما ضربة هدف تُفزعهما بها.
كان في ذلك ما أدى إلى تغيير الموقف بكامله.

انتظر ستيلمان إلى أن توقفت تلك الجلبة ثم قال:
– سوف أطلب من توم جيفرز الوقوف بجانب ذلك الباب هناك، ومن كونيتابل هاريس الوقوف بجانب الباب الآخر لكي لا يسمحا لأحد بمغادرة الغرفة.

قال الجميع:
– ليكن ما طلبت، استمر أيها الرجل!
ثم قال:
– أعتقد أن المجرم هنا ولن أتأخر في تسميته لكم، هذا لو كانت توقعاتي صحيحة. سوف أطلعكم الآن على كل ما يتعلق بهذه المأساة من بدايتها إلى نهايتها:
– لم يكن القصد من القتل السرقة وإنما كان الانتقام. ولم يكن المجرم قليل الفطنة، كما لم يكن يقف على بعد ستمائة واثني وعشرين قدم. كما لم يكن قد أصيب بقطعة خشبية، ولم يكن قد وضع المتفجرات المصباح بواسطة ولم يكن قد جلب معه أية طلقات نارية، كما لم يكن أشولاً

وباستثناء هذه الأخطاء في التقدير فإن ما بيّنه الضيف الموقر عن القضية هو من الناحية الجوهرية صحيحاً.

سَرت بين المتواجدين موجة من الضحك تعبيراً عن غبطتهم. وأومأ الصديق للصديق كما لو أنه يقول: "هذا ما يُسمى بالكلام المُبطن ، هو فتى طيّب فهو لا يحطّ من مقدار الرجل"!

لم يعكر ذلك هدوء مزاج الضيف، وتابع ستيلمان:
– لدي أنا أيضاً بعض الإثباتات، وسوف أعلمكم كيف سيكون بإمكانكم العثور على عدد أكثر من الإثباتات.

ثم رفع أمام أنظارهم قطعة من سلك متين. مدّ الرجال أعناقهم لكي يشاهدونه. ثم قال:

– يوجد على هذا السلك بعض الطلاء الذائب، كما توجد هنا شمعة احترق نصفها، وتوجد على المتبقي منها بعض آثار القَطع بحوالي الإينتش. وسوف أعلمكم لاحقاً عن المكان الذي وجدت فيه هذه الأشياء. سوف أضع جانباً جميع التخمينات والاستنتاجات والربط الانفعالي بين تلك الدلائل النثرية، وغير ذلك من المظاهر المسرحية المُذوّقة لمهنة التحرّي، وسوف أعلمكم بأسلوب مُبسّط ومباشر كيف جرت تلك المأساة.

توقف لحظة لكي يُحدث التأثير المطلوب عليهم، ولكي يُتيح المجال للصمت وللمزيد من التشويق ومن تركيز الاهتمام ثم استمر في حديثه:

– كان القاتل قد بذل الكثير من الجهد في دراسة خطته. وهي خطّة جيّدة وعبقرية جداً مما يدلّ على ذهن ذكي، وليس على ذهن ضعيف, كما أنها خطّة مُحكمة تم التخطيط لها جيداً، بحيث يتمكن القاتل بموجبها من تفادي كل الشبهات التي قد تحوم حوله. وكان ما قام به القاتل في تنفيذ عملية التفجير هو التالي:

قام القاتل بتعيير الشمعة في الحيّز المكاني على بعد إنتش واحد ثم أشعلها وحدّد التوقيت لها، فوجد بأن الوقت الذي تستغرقه لكي تشتعل بكاملها هو ثلاث ساعات. وكنت منذ قليل قد أجريت

هذه التجربة بنفسي هنا في الأعلى ولمدة نصف ساعة، في الوقت الذي كانت فيه التحقيقات تتم في هذه الغرفة حول شخصية وطباع فلينت بوكنر، و توصلت بهذه الطريقة إلى معرفة معدّل الاشتعال الكامل للشمعة عندما لا تكون في مهب الريح. وبذلك كان القاتل عندما تحقّق من معدّل احتراق الشمعة عندما تكون في معزل عن الريح، قد أطفأها – وكنت قد عرضتها عليكم ــ بعد أن قام بوضع إشارة بذلك على شمعة جديدة.

قام القاتل بعد ذلك بوضع شمعة جديدة داخل مصباح صغير، وثقب المصباح بواسطة سلك على معيار الخمس ساعات، وقد أطلعتكم على السلك وعليه آثار الشحم المتفحّم عليه ــ وهو الشحم الذي كان قد ذاب وبرّد.

ثم قام بجهد، ويجب أن أقول، وبكثير من الجهد، بتوصيل السلك عبر المضيق الذي يقع بجانب كوخ فلينت بوكنر، وربطه بمتانة ببرميل فارغ وضعه في مكان آمن جداً، ووضع المصباح في أسفله. ثم قام بقصّ حوالي الخمسة وثلاثين قدماً من الفتيل ــ وهي المسافة من البرميل إلى الكوخ– وقام بإحداث ثقب في جانب البرميل، وهذا هو المثقاب الضخم الذي استخدمه في ثقب البرميل، وكان قد أنجز عمله بالكامل بأن وضع أحد أطراف الفتيل في منزل بوكنر ووضع الطرف الثاني في شقّ ثلم يسمح بتسريب المسحوق من ثقب المصباح بعد أن قام بتعييره لكي ينفجر المكان حوالي الساعة الواحدة صباحاً على أن يتم إشعال الشمعة حوالي الساعة الثامنة من مساء الأمس ــ وهذا ما أراهن عليه ــ وعلى أن يكون هناك انفجار في الكوخ يرتبط بنهاية الفتيل – وهذا ما أراهن عليه أيضاً– رغم أنه ليس بإمكاني أن أثبت ذلك...

أيها الرجال، لازال البرميل في المضيق، ولا تزال بقايا الشمعة فيه، ولايزال أحد طرفي الفتيل المحترق في فتحة المثقب كما أن الطرف الآخر من الفتيل في أسفل الهضبة الذي كان فيها الكوخ. كنت قد عثرت عليهم منذ ساعة عندما كان الأستاذ يأخذ المقاييس في الأماكن الفارغة التي ليس لها أية علاقة بالموضوع، وفي الوقت الذي كان فيه جمع البقايا التي لا علاقة لها أيضاً بهذه القضية.

ثم توقف للحظة. قام الجميع بسحب نفس عميق طويل ثم انطلقوا بالهتافات. قال هام ساندويتش:

– لذا كان ذلك اللعين يحوم حول المضيق بدلاً من أن يأخذ الملاحظات.
– أيها الرفاق, ستيلمان ليس بالشخص الأبله.

– لا, ليس على الإطلاق، سيدي!
– إنه بالفعل اسكتلندي رائع.

وكان ستيلمان قد استأنف حديثه بالقول :
– وعندما كنا بعيداً عن هناك أي قبل ساعة أو ساعتين، كان القاتل قد أخذ المثقاب والشمعة وأخفاهما ــ لكن ذلك لم يكن في مكان جيّد ــ لذا عاد وحملهما إلى مكان آخر اعتبره المكان الأفضل، وهو غابة الصنوبر التي تقع على بعد مائتي متر. كنت قد وجدتهما هناك، ومقياس المثقاب يُطابق تماماً مقياس الثقب والآن...

قاطعه الرجل الاستثنائي وقال بلهجة ساخرة :
– أيها السادة، سمعنا للتو قصة خيالية جميلة، جميلة جداً بالفعل. وأنا أرغب الآن في توجيه سؤال أو سؤالين إلى هذا الشاب.

جفل بعض الرجال وقال فيرغسون:
– أخشى الآن أن يتم النيل من آرشي.
كما فقد الآخرون ابتسامتهم وعادوا إلى جديّتهم.

ثم قال السيد هولمز:
– دعونا نبدأ الآن بتفحّص تفاصيل هذه القصة الخيالية بأسلوب منهجي، مُتسلسل ــ وبتسلسل علمي – كما يُقال – بأن نربط كل من هذه التفاصيل الواحدة بالأخرى بأسلوب هادئ وبتناسق، دون ندم وبدون هجوم عنيف بالاستناد إلى هذه اللعبة المزخرفة بقلعة من الأخطاء والتي هي من نسيج خيال قليل الخبرة. لنبدأ أيها الشاب. أريد أن أسألك الآن ثلاثة أسئلة:
– سمعتك تفترض بأنه قد تم إشعال الشمعة المزعومة حوالي الساعة الثامنة من مساء الأمس؟
– نعم،سيدي في حوالي الثامنة.

– هل بإمكانك أن تُحدّد بأن ذلك قد تم في الساعة الثامنة تماماً؟
– حسناً، ليس بإمكاني ذلك بالتحديد.
– هل تعتقد بأنه لو صادف أن مرّ شخص بجانب ذلك المكان في ذلك الوقت بالتحديد، أليس من المؤكد تقريباً أن يكون قد صادف ذلك القاتل؟
– نعم، أعتقد ذلك.
– شكراً، هذا كل شيء. لنقل أنه كل شيء في الوقت الحاضر.

قال فيرغسون:
–عليه اللعنة ! فهو يحاول الآن أن يحاصر آرشي.
قال هام ساندويتش:
هذا هو الأمر، لا يعجبني ذلك.
قال ستيلمان وهو ينظر إلى الضيف:
كنت أمر بجانب المكان في الساعة الثامنة والنصف، لا، حوالي التاسعة.

قال شيرلوك هولمز:
– صحيح؟ هذا يثير الاهتمام، هذا هام جداً فهل كنت قد صادفت القاتل؟
– لا لم أصادف أحداً.
– إذا, لو سمحتم لي بهذه الملاحظة , لست أرى لذلك أية صلة بالموضوع. هل تعتقد بأنه لو صادف أن مرّ شخص بجانب ذلك المكان في ذلك الوقت بالتحديد، ألم من المؤكد تقريباً أن يكون قد يصادف ذلك القاتل؟
– نعم أنا أعتقد ذلك.
– شكراً، هذا كل شيء في الوقت الحاضر، أو لنقل بأنه كل شيء في الوقت الحاضر.

انتظر آرشي قليلاً ثم استمر في حديثه وقال :
– قد لا تكون له صلة بالموضوع في الوقت الحاضر، أقول في الوقت الحاضر فقط.

انتظر قليلاً ثم قال:
– صحيح أنني لم أكن قد صادفت القاتل, لكنني عثرت على آثار أقدامه، وأنا متأكد من ذلك

وأعتقد أيضاً بأنه في هذه الغرفة. سوف أطلب منكم الآن المرور أمامي هنا الواحد تلو الآخر في المكان الذي يتوفر فيه القدر الكافي من الضوء , بحيث يكون بإمكاني مشاهدة أقدامكم.

علت الأصوات وساد المكان هرج ومرج، ثم بدأت عملية الاستعراض. كان الضيف يرقبها وهو يحاول جاهداً الاحتفاظ بوقاره لكن تلك المحاولة لم تُجدِ.

وقف ستيلمان، وبعد أن ظلّل عينيه بيديه بدأ ينظر بتركيز على كل زوج من الأقدام كانت تمر من أمامه. مرّ أمامه خمسون رجلاً برتابة ــ دون أية نتيجة، ثم ستون ثم سبعون. وبدأ الأمر يبدو مدعاة للسخرية.

قال الضيف بسخرية مُبطنة بالدماثة :
– يبدو أن القتلة نادرو الوجود هذه الليلة.

لاحظ الموجودون لهجة السخرية التي بدت في كلامه، ودعّموها بضحكات من القلب. ثم مشى أمامه بتثاقل عشرة ثم عشرون آخرون منهم ــ لا، بل كانوا قد تراقصوا بوثبات مرحة ومضحكة جعلت المتواجدون يهتزّون من شدة الضحك. وفجأة أشارستليمان بيده وقال:
– ها هو القاتل!

جأر الجميع: " فيتلوك جونس بحق الله"!

انطلق على الفور شبه انفجار صاروخي تعبيراً عن رفع يده والارتباك مما أوحى به ذلك الموقف. ثم كان الضيف في ذروة ذلك الاهتياج الكبير، قد رفع يده وطلب منهم التزام الهدوء.

فرضت هيبة الاسم الكبير والشخصية الشهيرة سلطتها السحرية على الموجودين وبذلك امتثلوا للأمر... ثم بدأ الضيف يتحدث في ذلك الهدوء المُتلهف حيث قال بوقار وبإحساس:

– هذا أمر خطير، وهو يُهدّد حياة شخص بريء، بريء تماماً، وما فوق الشبهات ! بريء فوق مستوى الشكوك! أصغوا إليّ، فلو حاولتم إثبات ذلك سوف ترون كيف يمكن دحض مثل هذه

الكذبة الخرقاء بكل بساطة. أصغوا إلي أيها الأصدقاء: لم يغب هذا الصبي عن ناظري يوم أمس وفي أي وقت!

كان لما قاله تأثيره الكبير. بحيث ألقى بعض الرجال إلى ستليمان نظرة تساؤل جدّية.
حينئذ أشرق وجه ستيلمان وقال:

– كنت أعلم بوجود شخص آخر معه ! ثم خطا بسرعة وبخفة نحو الطاولة وألقى نظرة إلى قدمي الضيف، وقال بمواجهته:

– كنت أنت أيضاً معه ! ولم تكن على مسافة أبعد من خمسين قدماً عنه عندما قام بإشعال الفتيل وعندما فجرّ المسحوق.(وكان أن تسبب كلامه في إثارة الحشد). والأكثر من ذلك فأنت الذي زودته بالكبريت!

وبذلك كان الضيف ببساطة قد صُدم. وكان ذلك قد بدا جلياً للمتواجدين. فتح فمه لكي يتكلم ولكن لم يكن للكلمات أن تخرج من فمه بسهولة، ثم قال: "هذا... هذا جنون... هذا... "

ثم قام ستيلمان بالتأكيد على ذلك الإثبات الواضح، بأن أمسك بيده عود ثقاب مُحترق وقال:
– هاهو أحد أعواد الثقاب، كنت قد وجدته في البرميل. يوجد هنا عود ثقاب آخر مماثل له.
استرد الضيف فوراً قدرته على الكلام وقال:
– نعم... وكنت أنت الذي وضعها هنا بنفسك.

كانت تلك رمية جيدة.

لكن ستيلمان ردّ على الفور:
– هذا الشمع من نوعية غير معروفة في كل المخيّم، وأنا على استعداد لأن يتم تفتيشي للحصول على علبة الثقاب. فهل أنت على استعداد لذلك؟

كان الضيف هذه المرّة قد صُعق ــ وكان بإمكان أي شخص،حتى لو لم يكن يمتلك حدّة

النظر أن يلحظ ذلك. بدأ يعتصر يديه. وتحركت شفتاه مرة أو مرتين، لكن الكلمات لم تخرج منها. انتظر الموجودون بصمت وبحيرة وهم يراقبون الموقف, وكان ذلك السكون قد زاد من تأثير الموقف على الضيف. ثم قال ستيلمان برفق:

– نحن بانتظار قرارك.

ساد الصمت من جديد لبضع لحظات.، ثم أجاب الضيف بصوت خافت:
– أرفض أن يتم تفتيشي.

لم يكن هناك أي تعبير علني عن ردّة الفعل، وإنما همس كل من الموجودين للآخر:
– لقد تم تسوية الأمر! آرشي هو الذي على حق. ولكن ما الذي يجب أن يتم الآن؟
ويبدو بأنه لم يكن هناك من يعلم بما سيحدث. ذلك لأن الموقف كان قد أصبح مربكاً في الوقت الحاضر. وهذا بالطبع لمجرد أن الأمور كانت قد اتخذت فجأة اتجاهاً لم يكن في الحسبان ولأنها كانت قد وصلت إلى الحدّ الذي جعل عقولهم تتوقف تماماً عن التفكير فلم يكن بإمكان عقولهم التي تعوزها الخبرة أن تتوقع ما حدث، مثلها مثل الساعة التي تتوقّف نتيجة صدمة.

لكن الآلة عادت تعمل من جديد، وبدأ كل اثنان أو ثلاثة من الموجودين يضعون رؤوسهم معاً ويتحاورون حول هذا وذاك الاقتراح، إلى أن تم تأييد مقترح واحد فقط هو بأن يتم التصويت على أمرين: فإما أن يتم توجيه الشكر إلى القاتل لتخليصه لهم من فلينت بوكنر، وبالتالي تركه يرحل. أو أن تتم محاكمته وإيداعه السجن. وكان أصحاب العقول الأكثر اتزاناً قد عارضوا الحلّ الأول، وأشاروا إلى أن أصحاب العقول الحكيمة في الولايات الشرقية سوف يعتبرون ذلك فضيحة، وبأنهم لن يتوقفوا عن إثارة الموضوع. وبذلك كان أصحاب العقول الحكيمة هم الذين فازوا في النهاية. تمت الموافقة بالإجماع على اقتراح الشخص الذي كان يترأسهم، والذي قام بعد ذلك باستدعاء الموجودين لكي يعرض عليهم اقتراحه ولكي يأمر بتنفيذه وهو: أن يتم سجن فيتلوك جونس وتقديمه إلى المحاكمة.
ثم تم تبني الاقتراح فلم يكن بالإمكان اتخاذ أي إجراء آخر. كما كان الجميع سعداء من ناحية أخرى لأنهم كانوا ينتظرون بفارغ الصبر الخروج من الحانة والتوجّه إلى موقع المأساة للتأكّد فيما إذا كان البرميل والأشياء الأخرى لا تزال هناك أم لا ــ ولكن لم يتحقق لهم ذلك، فلم تكن المفاجأة

قد انتهت بعد., لأن فيتلوك جونس الذي كان في ذلك الوقت يبكي بصمت دون أن يلحظه أحد في ذلك الاهتياج الذي تلاحق الواحد تلو الآخر، والذي استمر لبعض الوقت, وعندما تم الإعلان عن قرار توقيفه ومحاكمته , قد انفجر باكياً بيأس وقال:

لا، هذا غير ممكن، لا أريد أن أسجن ولا أريد أن أحاكم. كنت قد تعرّضت لما يكفي من التعاسة ومن البؤس. اشنقوني الآن أو لتدعوني أرحل. فعلى جميع الأحوال سوف تنجلي جميع الأمور ولن يكون هناك من بإمكانه أن ينقذني. فقد روى لكم آرشي كل شيء كأنه كان معي، كأنه كان قد شاهد كل شيء. لست أدري كيف اكتشف كل ذلك. سوف تشاهدون البرميل وجميع الأشياء الأخرى وبذلك لن يكون لدي أية فرصة للنجاة. نعم، لقد قتلته! وكنتم ستفعلون هذا أيضاً لو كان قد عاملكم كالكلاب، ولو لم تكونوا سوى فتى ضعيف وفقير ليس له أي صديق قد يقدم له العون.

قاطعه هام ساندويتش بالقول:

– وكنت أيضاً قد خدمته بشكل جيّد جداً، أصغوا إلي أيها الرجال...

حينئذ قال الشرطي:

– التزموا النظام أيها السادة، التزموا النظام!

سأله أحدهم:

–هل كان عمك على علم بما كنت تنوي القيام به؟

– كلا لم يكن يعلم بذلك.

وقال آخر:

– وهل كان من أعطاك علبة الثقاب ؟

– نعم.

– أأنت متأكد من ذلك؟

– نعم، كان قد قام بذلك لكنه لم يكن على دراية لِم كنت أحتاج إليها.

– وعندما خرجت للقيام بتلك المغامرة كيف حدث أن قمت بالمجازفة بأن يكون عمك برفقتك وهو من رجال التحرّي كيف ذلك؟

تردّد الفتى وبدأ يتحسّس أزرار قميصه بارتباك ثم قال بخجل:

– لأن لدي فكرة عن رجال التحرّي، ولأن بعضهم من أفراد عائلتي, فالأسلوب الأفضل لكي لا تترك لهم المجال لاكتشاف الأمر هو أن يكونوا حولك عندما تقوم بالفعل.

إلا أن عاصفة الضحكات التي استقبل بها ذلك الاعتراف الحكيم الساذج، لم تكن قد غيّرت كثيراً من حالة ارتباك ذلك الطفل الصغير المتشرد.

9

مقتطفات من رسالة موجهة إلى السيدة ستيلمان مؤرخة فقط "الثلاثاء ".

تم احتجاز فيتلوك جونس في كوخ خشبي مُقفل وتُرك هناك لكي تتم محاكمته. قام الشرطي هاريس بتزويده بعدد من وجبات الطعام اليومية، وطلب منه الاعتناء بنفسه. كما وعده بتزويده بالمزيد من المؤن فور احتياجه إليها.

وكنت في صباح اليوم التالي، قد ذهبت مع هيلير، من باب الصداقة، لمساعدته في مواراة قريبه بوكنر المتوفى غير المأسوف عليه, التراب حيث قمت أنا بمهمة المساعد الأول للحانوتي، وقام هيلير بمهمة الرئيس. وعلى الفور من انتهاءنا من تلك المهمة., جاء إلينا شخص غريب كئيب المظهر, رثّ الثياب يحمل حقيبة قديمة، واستطعت على الفور أن أشم الرائحة. تصوّري أمي! كان ذلك الرجل هو الرجل الذي لاحقته في كامل الكرة الأرضية! وذا ما أعتبره بمثابة هبة السماء لآمالي التي كانت على وشك التلاشي.

كنت خلال لحظة قد وقفت بجانبه، ووضعت يدي برفق على كتفه، لكنه سقط على الأرض كما لو أن صاعقة من البرق أوهنت قواه. وبينما كان الرجال يتراكضون لمساعدته، بدأ يحاول النهوض ثم وضع يديه عليّ بتوسل، وقال من فكيه اللذين كانا يرتجفان :

– شيرلوك هولمز! كنت قد طاردتني في جميع أنحاء العالم، ويشهد الله بأنني لم أتسبب بأي أذى لأي شخص, أتوسل إليك ألا تُعذبني بعد الآن .

وبنظرة واحدة إلى عينيه الهائجتين كان قد تبيّن لنا بأنه كان مخبولاً.

– أمي، أترين كان كل ذلك بسبب ما قمت به أنا!... ولو كنت قد سمعت ذات يوم بنبأ وفاتك, لما كنت سأشعر بمثل تلك التعاسة التي شعرت بها نحوه في تلك اللحظة. ثم التف الجميع حوله بكل تعاطف. قاموا برفعه من على الأرض وتحدثوا معه بعبارات مؤثرة ورقيقة., ثم طلبوا منه ألا يقلق وأن يبتهج لأنه أصبح الآن بين الأصدقاء، وأعلموه بأنهم سوف يتولون رعايته.

أمي! هؤلاء الرجال الأشداء الذين يعملون في المنجم هم في حنانهم كالأمهات عندما يقوم المرء بإيقاظ الجانب الإنساني في قلوبهم. كما أنهم يصبحون، عندما يتم إيقاظ العكس فيهم، أشبه بالكثير من الأولاد المتهورين غير العاقلين. وبذلك قاموا بكل قد يُخيّل إليك لمواساته، لكنهم لم ينجحوا في ذلك إلى أن نجح ويليس فارغسون في تهدئته، فهو من الرجال الدبلوماسيين الأذكياء بأن قال له:

– لو كان شيرلوك هولمز هو الشخص الذي يقلقك فقط ، فليس عليك أن تقلق بعد الآن.

سأله البائس المجذوب باهتمام:

– لماذا؟

– لأنه مات الآن.

– مات؟ هل مات بالفعل؟ أرجوك, لا تعبث برجل مُحطم بائس ؟ يا إلهي، هل يقول الحقيقة أيها الرجال؟

قال هام ساندويتش:

– هذا صحيح كما هي حقيقة وجودي أمامك الآن.

ثم قام الجميع بتأكيد ما كان قد صرّح به.

وأضاف فيرغسون لكي يحاول تأكيد ما قاله:

– تم شنقه الأسبوع الماضي في بيرنادينو، عندما كان يبحث عنك. كانوا قد اعتقدوا بأنه شخص آخر، ثم أسفوا بعد ذلك ولكن لم يكن بإمكانهم أن يفعلوا شيئاً.

قال هام ساندويتش وهو يتظاهر بأنه يعرف ذلك وبأنه كان قد ساهم فيه.

– وهم الآن يقومون بوضع نصب تذكاري له.

أطلق جيمس ويكلر تنهيدة عميقة، هي بدون شك تنهيدة الشعور بالراحة , ولم يقل شيئاً. ثم اختفت نظرة القلق من عينيه الهائجتين وأشرقت ملامحه بشكل واضح، كم استرخت ملامحه المشدودة بعض الشيء.

حسناً، ثم ذهب الجميع بعد ذلك إلى كوخنا. قام الرجال بتحضير أفضل طعام لأجله، بقدر ما أتاحته لنا المواد الموجودة في المخيم، وبينما كانوا يقومون بذلك، كنا أنا وهيلير قد خلعنا قبعته وحذائه الجلدي,وكنا قد ألبسناه الملابس الجديدة وبذلك جعلنا منه رجلاً وسيماً محترماً. هو الآن رجل عجوز، هذه هي الكلمة المناسبة، أصبح الآن رجلاً يثير الشفقة. عجوز, نتيجة لقنوطه وبسبب ذلك الشعر الأبيض الذي يكسو رأسه، وبسبب تلك العلامات التي تركها الحزن والأسى على وجهه، رغم أنه لا يزال في أوجه من ناحية السن. وبينما كنا نأكل وندخن ونتحاور، وبعد أن كان قد انتهى من تناول الطعام، وجدنا بأن صوته كان قد بدأ يعود إليه من جديد.، وبذلك بدأ يروي لنا قصة حياته بمحض إرادته. ليس بإمكاني أن أعيد كلماته لكنني سأحاول أن أرويها لك على وجه التقريب.

قصة الرجل الخطأ

كان الأمر قد حدث هكذا : كنت من سنوات عديدة أعيش في دينفر، أنا أحياناً أذكر عدد تلك السنوات ولا أذكرها في أحيان أخرى , إلا أن هذا ليس الموضوع. ثم كان قد وصلني فجأة إنذار بمغادرة البلدة تحت طائلة محاكمتي على جريمة كانت قد أُرتكبت في المنطقة الشرقية من زمن بعيد، ومنذ سنوات، سنوات طويلة. كنت قد علمت بتلك الجريمة لكنني لست الشخص الذي ارتكبها، وإنما كان ابن عم لي يحمل ذات الاسم. سألت نفسي حينذاك عن أفضل ما علي أن أفعله؟ كان عقلي مشوشاً تماماًالجبال حيث، ولم أكن أدري بما علي أن أفعله. كان قد سُمح لي بالبقاء لفترة قصيرة جداً ــ مهلة ليوم واحد فقط على ما أذكر– وإلا فسوف يتم تدميري لو تم نشر ذلك، كما كان سيتم إعدامي بدون محاكمة دون أن يُصدق أحد ما كنت سأقوله. فهذا هو الوضع دوماً في حالات الإعدام بدون محاكمة : هم يأسفون عندما يكتشفون بأن الإعدام كان عن طريق الخطأ، ولكن بعد فوات الأوان ــ وهذا ما حدث كما ترون مع السيد هولمز– وبذلك قلت لنفسي سوف أبيع جميع ممتلكاتي لكي أحصل على ما يكفيني من مال للاستمرار في العيش، وسوف أرحل إلى أن ينجلي الموضوع ثم أعود وأتقدم بإثباتاتي .هربت أثناء الليل. ذهبت إلى مكان بعيد في الجبال

حيث عشت متنكراً وباسم مستعار.

ثم بدأ اضطرابي وقلقي يزداد أكثر والبداية يتملك المشاكل قد جعلتني أشاهد الأشباح وأسمع الأصوات، ولم يعد بإمكاني أن أفكر بوضوح وبطريقة صائبة في أي موضوع من المواضيع.، كنت مضطرباً وكانت الأمور قد تعقدت بالنسبة إلي., وكان الألم قد حطم قلبي. ثم بدأت حالتي تسوء أكثر وأكثر.، وبدأت تلك الأشباح والأصوات تتزايد. كانت حولي طوال الوقت، كان ذلك في البداية يتم أثناء الليل فقط ، ثم أصبح يتم أثناء الليل أيضاً. كانت تلك الأشباح تتهامس طوال الوقت حول سريري، وتتآمر علي . كانت تقضّ مضجعي وتتركني في حالة دائمة من الإنهاك ولم أكن أحصل على القسط الكافي من الراحة.

ثم حصل ما هو أسوأ، حيث قالت تلك الهمسات ذات ليلة:

– لن نتمكن من تدبّر الأمر، لذا يجب أن نستدعي شيرلوك هولمز، وسوف يكون هنا خلال اثنا عشر يوماً.

وافق الجميع ورقصوا فرحاً، أما أنا فكان قلبي قد انفطر.، كنت قد قرأت عن ذلك الرجل، وكنت أعلم ما يعنيه أن يكون مثل ذلك الرجل هو الذي سيقتفي أثري، بما لديه من قدرة خارقة ومن طاقات لاتكلّ.

وعندما ذهبت الأشباح للبحث عنه، كنت قد خرجت في منتصف الليل وهربت للتو وأنا لا أحمل معي سوى حقيبة يدي التي يوجد في داخلها كل ما لدي من مال، ثلاثون ألف دولار فقط، ولازال ثلث المبلغ معي في هذه الحقيبة.

لكن ذلك الرجل كان قد عثر علي أثري بعد أربعين يوماً، وبذلك هربت من جديد، ذلك لأنه كان نتيجة العادة قد كتب اسمه الحقيقي في سجل الحانة ثم شطبه وكتب عوضاً عنه اسم داجيت باركلي. لكن الخوف يمنح المرء عيناً ثاقبة حادة، لذا استطعت قراءة الاسم الحقيقي من خلال التشطيب، وبذلك هربت بسرعة الغزال.

ثم طاردني ذلك الرجل في جميع أنحاء العالم ولمدة ثلاث سنوات ونصف: في ولايات المحيط، ومن أستراليا إلى الهند وفي كل مكان قد تتوقعونه. وطاردني من جديد في مكسيكو، ثم إلى كاليفورنيا., ولم يكن يترك لي وقتاً للراحة من التجوال. لكن ذلك الاسم في السجل كان ينقذني على الدوام. وها هو ما تبقى مني حياً الآن ، أنا متعب جداً! كنت قد أمضيت وقتاً مريراً، ومع ذلك أقسم بشرفي بأنني لم أتسبب قطّ بأي أذى له ولا لأي شخص آخر.

كانت تلك هي نهاية القصة. كان ذلك قد جمّد الدم في عروق هؤلاء الرجال، أما بالنسبة إلي

فمن المؤكد أن كل كلمة كنت أسمعها كانت تحرق نياط قلبي. ثم قررنا اصطحاب الرجل العجوز معنا وبأن يكون ضيفاً علي وعلى هيلير.

سوف أحتفظ برأي هذا لنفسي بالطبع. لقد قررت أن أقوم, بعد أن يكون العجوز قد حصل على القدر الكافي من الراحة والغذاء، بمرافقة ويكلر إلى دينفر لكي يسترد أمواله.

وبعد أن قام الرجال بمصافحة العجوز بأسلوب زمالة عمال المناجم التي تُحطّم عظم اليدّ، كانوا قد تفرقوا ونشروا الأنباء.

وفي فجر اليوم التالي نادانا ويلز فارغسن وهام ساندويتش بلطف إلى خارج المخيم، وطلبا التحدث إلينا على انفراد:

– انتشرت الأنباء حول الطريقة التي تم التعامل بها مع هذا الغريب في كل المخيم، وبذلك قَدِم عمال المناجم من جميع الأماكن وتجمّعوا هنا وسوف يقومون بإعدام الأستاذ., وقد أصيب الشرطي هاريس بالذعر الشديد، وقام بالاتصال بعمدة البلدة. تعالا معي!

بدأنا نركض، كان بإمكان الآخرين أن يفكّروا بالطريقة التي يرونها، لكنني كنت في داخلي أتمنى أن يصل العمدة في الوقت المناسب، فلم أكن أرغب في أن يتم إعدام شيرلوك هولمز بسبب ما ارتكبته أنا من أفعال... وأعتقد بأن بإمكانك أن تصدّقي ذلك بكل سهولة.

كنت قد سمعت الكثير عن العمدة إلا أنني سألتهم مع ذلك لكي أتأكد:

– هل سيكون بإمكانه أن يُوقف تلك الغوغاء؟

قال فارغسن: "أتسأل فيما إذا كان بإمكانه ذلك! ألن يكون بإمكان جاك فيفاكس إيقاف الغوغاء! حسناً، هذا ما يجعلني أبتسم! العمدة شخص متهور بإمكانه أن يسلخ جلد رأس خمسة عشر رجلاً دفعة واحدة. فألن سيكون بإمكانه ذلك؟

قلت: "أووه".

وبينما كنا في طريقنا إلى الوادي، كنا نسمع من بعيد العديد من الأصوات ومن الصرخات التي كانت تنطلق في الهواء الساكن. بدأت تلك الأصوات تُصبح أقوى كلما اقتربنا من المكان. كانت الصرخات تنطلق صرخة بعد صرخة، أقوى فأقوى وأقرب فأقرب... وعندما وصلنا آخر الأمر إلى تلك الجماهير المحتشدة في المنطقة المفتوحة أمام الحانة، كان صوت الجمهور المحتشد قد أصبح صامّاً. كانت جماعة من أولائك الأشرار المتوحشين من منطقة دالي قد أمسكوا بهولمز في قبضتهم، ولكن كان هولمز من أكثر الرجال هدوءاً، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ازدراء، وحتى لو كان في دمه البريطاني ما يعتريه من خوف من الموت، فإن شخصيته الحديدية كانت ستكبح ذلك الخوف، ولم يكن ليسمح بظهور ما يشير إلى ذلك.

ثم قال أحد أفراد عصابة شاد بلي هيكنز:

– تعالوا أيها الرجال لكي تُصوّتوا، أسرعوا! هل هو الشنق أم الرمي بالرصاص؟

صاح أحد الرجال:

–لا هذه ولا تلك! سوف يبقى على قيد الحياة لمدة أسبوع، وسوف يكون الحرق هو التخليد الوحيد بالنسبة إليه.

وأعلنت حشود الجماهير القادمة من المخيمات التي تقع حول المنطقة عن موافقتها بصوت يشبه هدير الرعد، ثم اندفع الجميع نحو السجين وهم يتزاحمون وأحاطوا به وهم يصرخون:

– النار، فلتشعلوا النار!

ثم قاموا بجرّه إلى موقع سارية الخيول,حيث أوثقوه بالسلاسل ووضعوا حوله أكوام من الخشب ومن أعواد الصنوبر حتى علو خصره. لم يشحب ذلك الوجه الحادّ الملامح، وظلت ابتسامة الازدراء تلك مرتسمة على شفتيه.

– أحضروا الثقاب، أحضروا عود ثقاب..!

قام شاد بلي بإشعال عود الثقاب، ظلّله بيده ثم انحنى ووضعه تحت غصن صنوبر بينما خيّم صمت عميق على الحشود. بدأ الغصن يلتهب وبدأ بصيص ضئيل من اللهب يضطرم للحظة أو للحظتين. وفي ذلك الوقت كان قد خيّل إلي بأنني سمعت من بعيد صوت حوافر حصان ــ ثم بدأ ذلك الصوت يُصبح أكثر فأكثر وضوحاً، وأكثر فأكثر تحديداً، ولكن ذلك لم يكن قد لفت انتباه الحشود التي كانت مستغرقة بما يجري. انطفأ عود الثقاب، وقام الرجل بإشعال عود ثقاب آخر وانحنى، وبدأ اللهب يتصاعد من جديد، لكنه كان هذه المرّة قد بدأ يضطرم وينتشر. أخذ الرجال هنا وهناك يشيحون بوجوههم، أما الجلاد الذي كان يُنفذ الحكم فكان قد وقف يرقب العملية بين أصابعه عود الثقاب المحترق. وفي تلك اللحظة كان صوت وقع الحوافر قد وصل إلى المنحدر الصخري ثم إلى الأسفل، ثم علت صيحة:

– عمدة البلدة!

وكان العمدة قد وصل في الحال، وهو يعدو بسرعة وسط ذلك الزحام، مما جعل الحصان يقف على قوائمه الخلفية تقريباً ثم صاح:

– ابتعدوا أيها الحمقى!

امتثل الجميع لأمره، ما عدا من كان يترأسهم، وكان قد وقف مكانه ووضع يده على مسدسه. قام العمدة أيضاً بسحب مسدسه بسرعة وقال له:

– أنزل يدك أنت أيها المتهور الأرعن. أطفئ النار وحرّر هذا الغريب من قيوده! وأطاعه

الشرير المشار إليه.

ثم كان العمدة بعد أن وضع حصانه بوضعية الراحة، قد ألقى عليهم خطبة دون أن يكون في كلماته أية مِسحة من الغضب أو من الحماسة، وإنما كان يُلقيها بكل تروٍّ وبأسلوب مدروس، وبنبرة تتوافق مع طباع أولئك الأشخاص، مما جعلهم لا يفقدون احترامهم له:

– لاشك بأنكم مجموعة من الأشخاص الجيّدين. ألستم كذلك ؟ وبأنكم أهلاُ للمجيء إلى هذا المكان بصحبة هذا المراوغ "هيغنس" ، هذا الثعبان ذو الفم الكبير الذي يقتل الناس عنوة، والذي يُطلق عليه نفسه اسم " ديسبارادو" أي الأرعن المتهوّر.

لو كان هناك ما أزدريه بشكل خاص فهو الإعدام الذي يتم بدون محاكمة قانونية. لم أشهد قطّ من يضع رجلاً بهذا الموقف. يجب أن يتم إثبات ما نسب إليه بمعدل مائة ضد واحد قبل أن يتجرأ المرء على تتبع رواية رجل مريض تم تلفيقها من قبل جماعة من الجبناء، كما أن من جعلوا هذا الأمر يتصاعد هم أيضاً كذلك، وتسع وتسعون من المائة , وسوف يكون العمدة أيضاً أحدهم لو أنه وافق على فعلتهم...

ثم توقف لحظة، لكي يتمعّن ,على ما يبدو, بالفكرة الأخيرة، ولكي يستسيغ معناها ثم استمر بالقول:

– يعتبر العمدة الذي يسمح بأخذ سجين منه من أحقر الجبناء في هذا العالم. وقد ثبت بموجب آخر الدراسات بأن هناك مرض جديد سيتم إيراده في كتب الأطباء تحت اسم ــ مرض العمدة. ثم استمر بالقول، وكأن الفكرة كانت قد راقت له كما كان بإمكان أي شخص أن يلاحظ ذلك.

– سوف يقول الناس ها هو من جديد مرض العمدة، نعم، وسوف يصبح هذا اللقب بعد ذلك من الألقاب الجديدة. فعلى سبيل المثال لن يقول الناس: "هذا الرجل هو عمدة مقاطعة راباهو" بل سيقولون: "هذا الرجل هو عمدة منطقة جبناء راباهو" وذلك لمجرد التفكير بأن بإمكان رجل ناضج أن يخاف من مجموعة من الرعاع!

ثم استدار بنظره نحو الأسير وقال:

– من أنت أيها الغريب، وما الذي فعلته؟

– اسمي شيرلوك هولمز، ولم أفعل شيئاً.

كان تأثير ذلك الاسم على العمدة رائعاً، على الرغم من أنه كان قد جاء وهو يعرف ذلك. ثم بدأ بعد ذلك يتحدث بكل انفعال بأن ما يحدث يُعتبر وصمة على جبين الدولة، وذلك بأن يتعرض مثل هذا الرجل، الذي ملأت مآثره الرائعة وشهرته وإبداعاته أنحاء العالم، والذي كانت رواياته قد كسبت قلوب القراء بما فيها من سحر وفطنة ومن مكانة أدبية رفيعة، وأمام الملأ، لمثل هذا

الاعتداء المنافي لجميع الأخلاقيات. ثم اعتذر له باسمه وباسم كل الأمّة، وانحنى بكل إجلال أمام هولمز، واعتبر نفسه مسؤولاً بشكل شخصي فيما إذا تم التعرض للمضايقة مرة أخرى.

ثم طلب من الشرطي هاريس أن يوصله إلى مكان إقامته، وأن يعتبر نفسه المسؤول عن أي تحرش وعن أي اعتداء قد يقع عليه... واستدار نحو الرعاع وقال:

– اذهبوا إلى جحوركم أيها الحثالة !

وكان هذا ما فعلوه. ثم قال:

– وأنت شادبلي اتبعني، فسوف أهتم بقضيتك بنفسي. لا، احتفظ ببندقيتك، فعندما سيأتي اليوم الذي سوف أخاف فيه منك لو صادف أن رأيتك وراء ظهري وأنت تحمل هذا الشيء، فسوف يكون ذلك هو الوقت المناسب بالنسبة إلي لأن أنضم إلى المائة والاثنين وثمانين، ثم تابع سيره يتبعه شاد بلي...

وكنا عندما كنا في طريقنا إلى كوخنا، وكان ذلك تقريباً في موعد الغداء، قد أعلمنا بنبأ هروب فيتلوك جونس من السجن أثناء الليل ومغادرته المخيم. لم يأسف أحد لذلك فعلى عمه أن يتولى تتبع أثره لو كان يرغب في ذلك وهذا هو مساره، فلم يكن هناك في المخيم من يهتم بأمره.

10

بعد عشرة أيام كان ستيلمان قد كتب إلى والدته الرسالة التالية:

"جيمس ويلكر بخير الآن من الناحية الجسدية، كما أن وضعه العقلاني قد بدأ يتحسن وسوف أتوجه معه غداً صباحاً إلى دينفر".

ثم كتب إليها في الليلة التالية ملاحظة مختصرة كان قد أرسلها من محطّة في الطريق:

أمي! عندما كنا في طريقنا إلى دينفر صباح اليوم، كان هيلير قد همس لي " لا تُطلع ويكلر على هذه الأنباء إلى أن تتأكد من أنه بأمان، وبأنها لن يتسبب في تشويش ذهنه، وبعد أن تتأكد من تحسّن وضعه. كانت الجريمة القديمة التي تحدث عنها قد ارتكبت بالفعل من قبل ابن عمه كما قال لنا. أما الرجل الذي قمنا أمس بمواراته التراب المدعو "فلينت بوكنر" فهو المجرم الحقيقي ــ أتعس

رجل عاش في هذا القرن ــ واسمه الحقيقي هو "يعقوب فولر"!... وهكذا، أمي، ها قد أصبح ذلك الميت, الذي هو زوجك السابق، والذي هو أبي، في قبره بمساعدتي وبشكل غير مقصود، ولندعه الآن يستريح...

عائلة الويليامز وجهاز الإنذار من اللصوص

انساق الحديث بسلاسة وبهجة من الطقس، إلى المحاصيل، إلى الأدب، ومن الأدب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الدين، وظلّ يتنقل بسرعة وبشكل عشوائي من موضوع إلى آخر، إلى أن استقر على موضوع جهاز الإنذار من اللصوص. وكان السيد ويليامز قد أظهر حينئذ وللمرة الأولى بعض التجاوب.

كنت كلما لمحت مثل ذلك التعبير الذي ارتسم على وجه ذلك الرجل، أفهم ما يعنيه، وبذلك كنت ألتزم الصمت لكي أترك له فرصة تحرير قلبه من العبء الذي يُثقل عليه.

قال بانفعال لم يكن بإمكانه السيطرة عليه:

– سيد توين، لن أنفق سنتاً واحداً على جهاز إنذار من اللصوص، ولا حتى سنت واحد وسوف أعلمك لماذا:

كنا ونحن نستكمل إكساء منزلنا قد وجدنا , بعد سدادنا حساب السمكري، بأنه قد توفر لدينا بعض المال ، وهو ما لم نكن قد توقعناه. كنت أرغب في أن نستخدم ذلك المبلغ في وضع "هيثن" (تمثال وثني لطرد الأرواح الشريرة)، لأنني كنت أميل دوماً وبشكل كبير إلى وضع مثل ذلك التمثال. لكن السيدة ماك ويليامز قالت دعنا نضع جهازاً للإنذار من اللصوص، وكنت قد وافقت على تلك التسوية، وسوف أقوم بتفسير الأمر– إن ما نفعله دوماً، كلما ترغب السيدة ماك ويليامز بأمر ما، وأكون أنا قد رغبت بشيء آخر، هو أن أُقرّر في النهاية تنفيذ الأمر الذي ترغب به السيدة ماك ويليامزــ وهذا ما كانت زوجتي تُطلق عليه تعبير التسوية بالحلّ الوسط.

حسناً، جاء الرجل من نيويورك وقام بوضع جهاز الإنذار، وطلب منا لقاء ذلك ثلاثمائة وخمسة وعشرين دولار. وقال لنا حينذاك بأن بإمكاننا من الآن فصاعداً أن ننام دون أي قلق. وكنا قد فعلنا ذلك لفترة، ولنَقل أن ذلك كان لفترة شهر واحد. لكنّا شممنا ذات ليلة رائحة تبغ. طلبت

مني زوجتي أن أنهض من فراشي لكي أستطلع الأمر. أشعلت شمعة وتوجهّت نحو السلالم، وإذا بي أشاهد لصاً كان في طريقه للخروج من إحدى الغرف، وهو يحمل بين يديه سلّة تحتوي على بعض الأواني التي كان، على ما يبدو، قد اعتقد في الظلام بأنها من معدن الفضة الصافي. كان يدخن الغليون لذا قلت له:

– نحن لا نسمح بالتدخين في هذه الغرفة يا صديقي.

قال لي بأنه غريب عن المنطقة، لذا فليس من المفروض أن يكون على علم بالقواعد المُطبقة في هذا المنزل، وبأنه كان قد دخل سابقاً إلى عدة منازل بمثل هذا المستوى، ولم يكن أحدهم قد اعترض على ذلك. ثم أضاف بأنه يعتقد, كما أن ذلك حسب تجاربه السابقة، لم يسبق أن أُعتبرت مثل هذه القواعد مما يُطبق على اللصوص.

قلت له:

– فإذاً بإمكانك أن ستمر في التدخين لو كان هذا هو العرف، رغم أنني أرى بأن منحك مثل هذا الامتياز يعتبر تنازلاً من أسقف مثلي للص. وهو من الأمور المرفوضة، وبأن فيه ما قد يشير بوضوح إلى نوع من التراخي مع مرور الزمن. ولكن لو تركنا كل ذلك جانباً، فما الذي جعلك تدخل إلى البيت خِلسة وبهذه الطريقة الخفية ودون أن تقرع جرس الإنذار؟"

بدا لي مضطرباً وخجلاً وقال بارتباك:

– ألف معذرة، لم أكن أعلم بأن لديكم جهاز إنذار من اللصوص، وإلا فكنت سأقرعه. أتوسل إليك ألا تذكر ذلك أمام أحد لكي لا يصل إلى مسامع والداي، فقد تقدمت بهما السن وأصبحا ضعيفين، ومثل هذه الخرق الجلي وهذا الاستهتار بالعادات المُقدسة المُتعارف عليها في حضارتنا قد يؤدي إلى تقويض ذلك الجسر الواهي الذي يقع بين الواقع الباهت السريع الزوال وبين الأعماق المَهيبة للأبدية. ثم قال هل يُضايقك لو طلبت منك عود كبريت؟

قلت له :

– من شأن مشاعرك هذه أن تشرّفك، ولكن لو سمحت لي بالقول، هذا المجاز في الحديث ليس أفضل ما تستند عليه، احتفظ بذلك لنفسك فهو يشتعل بواسطة العلبة فقط، هذا لو كنت تثق بتجربتي. ولكن دعنا نعود إلى موضوعنا:

– كيف دخلت إلى هنا ؟

قال:

– دخلت عبر نافذة الطابق الثاني.

لابد أن الأمر كان كذلك. وبذلك قمت باسترداد الأواني منه وفق التعرفة المتعارف عليها في

دفع قيمة المُرتهنات، محسوماً منها تكلفة الإعلان. ثم تمنيت لذلك اللص ليلة سعيدة وأغلقت النافذة خلفه وعدت إلى الداخل من جديد لكي أروي لزوجتي ما حدث.

وكنا في صباح اليوم التالي قد أرسلنا بطلب الخبير الذي قام بتركيب جهاز الإنذار. وعندما جاء إلينا كان تفسيره لما حدث بأن ذلك كان بسبب ربط جهاز الإنذار بالطابق الأول فقط . كان ذلك بالطبع من البلاهة، فقد لن يكون لدى المرء في المعركة أي درع على الإطلاق، لو كان كل ما لديه هو ما يحمي ساقيه فقط. قام الخبير بوضع القطعة الثانية على جهاز الإنذار وذهب في طريقه بعد أن حصّل منا لقاء ذلك على ثلاثمائة دولار...

ثم كنت بعد مدة قد شاهدت ذات ليلة ذلك اللص في الطابق الثالث. كان على وشك نزول السلالم وهو يحمل مجموعة مُتنوعة من الممتلكات العائدة إلينا. كانت ردّة فعلي الأولى أن أقوم بتحطيم رأسه بمضرب البيلياردو، ولكن ردّة الفعل الثانية كانت بأن أمتنع عن ذلك، لأنه كان يقف بيني وبين المضرب. وبذلك كنت قد امتنعت عن القيام بذلك لأنني وجدت بأن ردّة الفعل الثانية هي الأسلم، واتبعت أسلوب التسوية بالحلّ الوسط, وذلك بأن استرددت الممتلكات منه بذات القيمة السابقة بعد أن خصمت من المبلغ عشرة بالمائة لقاء استخدامه السلالم، بما أن السلالم من ممتلكاتي.

وكنا في اليوم التالي قد أرسلنا من جديد بطلب الخبير الذي قام بتثبيت الجزء الثالث على جهاز الإنذار لقاء ثلاثمائة دولار أيضاً. وبذلك كان حجم الجرس قد أصبح هائلاً. كان يشتمل على سبعة وعشرين شريط معدني سُجل على كل منها أسماء الغرف وفتحات المواقد. وكان بذلك قد شغل أيضاً مكاناً يُعادل حجم خزانة للملابس. كان قد تثبيت الجرس الذي هو بحجم قِدر الغسيل على رأس سريرنا., كما كان هناك سلك يمتد من المنزل إلى مكان إقامة الحوذي في الإصطبل، يرتبط بقرص الجرس الذي ثُبت على طرف وسادته.

وكان من المفترض أن نشعر حينذاك بالراحة، لولا خلل واحد.، ذلك لأن جرس الإنذار كان يرنّ كل صباح عندما تأتي الطاهية وتفتح باب المطبخ. وعندما حدث ذلك في اليوم الأول كان قد خُيّل إلي بأن ذلك اليوم هو بالتأكيد يوم نهاية العالم. ولم أكن قد فكرت بذلك وأنا في السرير، لا، وإنما عندما غادرت السرير ذلك لأن التأثير المُفزع الأول لذلك الجرس كان أشبه بمن يقذف بك عبر المنزل، ويضربك بعنف على الجدار ثم يلفّ بك ويلويك كالعنكبوت على غطاء الموقد إلى أن يقوم أحدهم بإغلاق باب المطبخ. والحقيقة أنه لايمكن أن تكون هناك جلبة قد تُقارن بتلك الجلبة التي كان يُحدثها ذلك الجرس.

حسناً، ثم كانت تلك الكارثة تحدث بشكل مُنتظم في الساعة الخامسة من كل صباح، وبذلك

كانت تُضيع علينا يومياً ثلاث ساعات من النوم. لأنك عندما تستيقظ بسبب مثل ذلك الشيء لن تستيقظ فقط على الفور وفي الحال، وإنما سوف يؤدي ذلك الصوت إلى أن يَتنبّه كل ما فيك، عقلك وكل شيء.. وإلى أن تبقى بذلك الوضع ثمانية عشرة ساعة – ثمانية عشرة ساعة من اليقظة التي تفوق التصوّر والتي لم يسبق أن تكون قد مرّرت بها طوال حياتك.

وحدث ذات مرة أن توفي أحد الغرباء بين أيدينا، واضطررنا لإخلاء غرفتنا له، وإلى لاحتفاظ به فيها طوال الليل. فهل كان ذلك الغريب ينتظر يوم الحساب؟... كلا، سيدي، كان قد نهض في الخامسة من صباح اليوم التالي بأكثر ما يمكن من سرعة, وكنت دون فخر أعلم جيّداً بأنه سوف يفعل ذلك. لأنه قام بعد ذلك بتحصيل بوليصة التأمين على الحياة وعاش بسعادة، فقد كانت لديه العديد من الإثباتات التي تؤكّد وفاته تماماً في منزلنا.

حسناً، ونظراً لأننا كنا نُحرم يومياً من النوم، فقد بدأنا نتوجه بالتدريج للبحث عن طريقة أفضل قد يكون بإمكاننا أن نرسو عليها، وبذلك قمنا أخيراً باستدعاء الخبير من جديد. كان ذلك الخبير قد وضع سلكاً يمتد إلى خارج باب المنزل، كما وضع هناك مفتاحاً كهربائياً. إلا أن توماس كبير الخدم لدينا كان يخطئ ويُغلق ذلك المفتاح قبل ذهابه للنوم، ثم يقوم بفتحه من جديد مع فجر اليوم التالي، في الوقت الذي كانت فيه الطاهية ستفتح باب المطبخ تماماً، وهذا ما كان يجعل جهاز الإنذار يصدح بعنف في المنزل، ويتسبب أحياناً بكسر أحد النوافذ. وبعد أسبوع كان قد تبيّن لنا بأن موضوع المفتاح الكهربائي لم يكن سوى شِرك وتضليل.. وكنا قد اكتشفنا بأن مجموعة من اللصوص، كانت تُقيم طوال الوقت في منزلنا، ولكن ليس بهدف السرقة بالتحديد، فلم يكن قد تبقى لدينا الكثير مما يمكن أن يُسرق، وإنما للاختباء في منزلنا نظراً لأنهم كانوا ممن تلاحقهم الشرطة. وكان قد خطر ببالهم بكل دهاء، بأن رجال التحرّي لن يتوقّعوا على الإطلاق أن يتخذ مجموعة اللصوص لأنفسهم ملاذاً في منزل كان من المعروف بأن يحتوي على أكثر أجهزة الإنذار تطوّراً وفعالية في أمريكا.

أرسلنا من جديد بطلب الخبير، وكان هذه المرة قد توصّل إلى أكثر الأفكار إبهاراً، بأن وضع ذلك الشيء الذي كان يجعل الجرس ينفصل فور فتح باب المطبخ. كانت تلك فكرة جيّدة، وكان أيضاً قد فرض علينا التكلفة التي تتناسب مع تلك الفكرة... وبإمكانك بالطبع أن تتوقع النتيجة. كنت أفتح جهاز الإنذار كل ليلة قبل النوم لأنني لم أعد أثق بذاكرة توماس الضعيفة, لكن اللصوص كانوا يدخلون من باب المطبخ فور إطفاء الأضواء في المنزل ويغلقون جهاز الإنذار حتى دون أن تكون هناك حاجة لأن ينتظروا أن تفعل الطاهية ذلك في الصباح.

وهكذا ترى كيف أن الوضع الذي كنا فيه كان يزداد خطورة... لم يكن بإمكاننا استقبال أحد

لعدة أشهر, ولم يعد لدينا أي سرير إضافي، فقد شغل اللصوص جميع الأسرّة. وكنت وفي نهاية الأمر قد قرّرت أن أعالج الوضع بنفسي., استجاب الخبير لطلبي بأن وضع سلكاً آخراً في الإصطبل مع مفتاح كهربائي يُتيح للحوذي القيام بفتح وبإقفال جهاز الإنذار.

كان الأمر قد نجح في المرحلة الأولى. وتلت ذلك فترة من الأمن والسلام، تمكنّا خلالها من دعوة بعض الأصدقاء مُجدّداً، ومن الاستمتاع بالحياة.

لكن ذلك الجهاز غير القابل للضبط، كان من حين لآخر يتسبب بشيء غريب. كنا في إحدى ليالي الشتاء قد قفزنا من فراشنا على صوت تلك الموسيقى المفزعة للجرس. ركضنا بسرعة إلى تلك اللوحة وأشعلنا المصباح. وشاهدنا عليها كلمة غرفة الأطفال. وكان أن فقدت السيدة ماك ويليامز على الفور وعيها تماماً لشدة الهلع، كما كنت على وشك أن أفعل ذات الشيء.

ثم أمسكت ببندقية الصيد التي كانت لدي، ووقفت بانتظار الحوذي، في الوقت الذي كان فيه رنين النداء مُستمراً. كنت أعلم بأن صوت الجرس قد نبّه الحوذي أيضاً، وبأنه سوف يأتي إلي وهو يحمل بندقيته فور انتهائه من ارتداء ملابسه.

وكنت عندما وجدت بأن الوقت قد حان، قد تسللت إلى الغرفة المجاورة لغرفة الأطفال., ونظرت من النافذة. شاهدت في ذلك الظلام شبح الحوذي الذي كان يقف في الباحة السفلية في وضع التأهّب بانتظار فرصة القبض على اللص، ثم تسللت بعد ذلك إلى غرفة لأطفال وأطلقت النار، وقام الحوذي أيضاً بإطلاق النار في الهواء بذات اللحظة. نجح كلانا، إلا أننا كنا قد تسببنا في إصابة إحدى الخادمات بالشلل، كما كان الحوذي قد أصابني في مؤخرة رأسي.

أشعلنا المصباح وطلبنا الطبيب., ولكن لم يكن هناك أي أثر لأي لص., كما لم تكن أية نافذة قد فتحت., وإنما كان قد تم تحطيم أحد ألواح الزجاجية فقط في المكان الذي كانت فيه طلقة الحوذي قد أصابته. كان ذلك بالفعل أشبه بلغز غريب لم نتمكن من تفسيره ــ أن ينطلق جهاز الإنذار من نفسه وفي منتصف الليل ودون أن يكون هناك أي لص في الجوار!

لبى الخبير الذي قمنا باستدعائه طلبنا كالعادة، وكان تفسيره للأمر بأن ما حدث كان عبارة عن إنذار كاذب حدث بالخطأ، وبأن من السهل إصلاح ذلك. قام بذلك بإصلاح نافذة غرفة الأطفال وكان أن طلب منا أيضاً مبلغاً مُجزياً لقاء ذلك ثم غادر.

ليس بإمكان أحد أن يصف مقدار ما عانيناه خلال السنوات الثلاث التي تلت من جراء تلك الإنذارات الكاذبة. كنت خلال الأشهر الثلاث التالية، أركض دوماً وأنا أحمل بندقيتي إلى الغرفة المشار إليها في اللوحة، كما كان الحوذي يهجم إلى الخارج وهو يحمل مصباحه الكهربائي لكي

يُساندني. ولم يكن هناك دوماً ما يحتاج لأن نطلق النار بسببه، وإنما كنا نجد جميع النوافذ مغلقة وآمنة.... وبذلك كنا نقوم في اليوم التالي باستدعاء الخبير لكي يُصلح تلك النوافذ التي كانت تبقى هادئة لمدة أسبوع فقط أو أكثر... أما الخبير فلم يكن ينسى بالطبع أن يرسل إلينا الفاتورة بقيمة الإصلاحات.

وكان أن حدث مع مرور الوقت ما هو من الطبيعي جداً، فبعد أن كنا قد أجبنا على ثلاثمائة أو أربعمائة من تلك الإنذارات الكاذبة، كنا على سبيل الدعابة قد توقفنا عن الردّ على الإنذارات. نعم، كان كل ما أقوم به عندما ما يصدح جهاز الإنذار بعنف هو أن أنهض بكل هدوء وأن أقوم بتفحّص اللوحة بكل هدوء أيضاً وأن أسجل رقم الغرفة، وأن أقوم بفصل ذلك الرقم عن جهاز الإنذار، وأعود إلى سريري كما لو أنه لم يحدث شيء. إلا أنني كنت بذلك بحاجة لأن أخرج باستمرار من فراشي، لكنني لم أعد أرسل بطلب الخبير. حسناً ولا حاجة لأن أقول، بأنه مع مرور الزمن، كان قد تم فصل جميع الغرف عن جهاز الإنذار، وبأن الجهاز بكامله لم يعد صالحاً للعمل.

وفي الوقت الذي لم تعد لدينا فيه حماية حدثت لنا الكارثة الأكبر، كان اللصوص قد دخلوا ذات ليلة وقاموا بسرقة جهاز الإنذار! نعم، سيدي ! كانوا قد انتزعوا كل جزء من أجزائه "الأسنان والأظافر" (تعبير مجازي) الزنبرك، الأجراس، قرص الجرس، البطارية وكل شيء، كما سرقوا مائة وخمسين ميلٍ من الأسلاك المطلية بالنحاس. قاموا بإزالته برمته، ولم يتركوا لنا أي أثر له لكي نُقسم به أعني لكي نشتمه.

وكنا قد أمضينا بعد ذلك وقتاً طويلاً لاستعادته، لكن ذلك كان لقاء المال. ثم أعلمتنا الشركة التي تُصنّع أجهزة الإنذارات، بأن ما يلزمنا الآن هو تركيب الجهاز بشكل صحيح، وربطه بالنوافذ بنوع حديث من الأسلاك وبذلك سوف تكون الإنذارات الكاذبة مستحيلة. وبأن ذلك الاختراع الجديد سوف يجعل عمل الجهاز آلياً، بحيث يعمل بشكل آلي كل مساء، ثم ينفصل في الصباح دون أن تكون هناك حاجة لأي شخص لإتمام هذه العملية.

اعتقدنا حينذاك بأنه قد تم التخطيط لكل ذلك بشكل جيّد. وكان الخبراء قد وعدوا بإنهاء الموضوع خلال عشرة أيام على الأكثر. وكان العمل قد بدأ بالفعل قبل مغادرتنا المكان كعادتنا خلال فصل الصيف. إلا أن الخبراء كانوا قد تركوا العمل بعد بضعة أيام بسبب العطلة الصيفية. وبذلك جاء اللصوص على إثرهم لكي يُمضوا عطلة الصيف في منزلنا.

وكنا عندما عدنا إلى المنزل في الخريف، قد وجدنا بيتنا فارغاً تماماً أشبه بخزانة في بيت يتم

طلائه بالدهان. قمنا بتأثيث البيت من جديد وأرسلنا بطلب استعجال لقدوم الخبير. جاء الخبير واستكمل العمل وقال لنا " لقد تم تثبيت هذه الساعة بحيث يعمل جهاز الإنذار اعتباراً من الساعة العاشرة مساء، ثم ينفصل آلياً في الساعة السادسة إلا الربع صباحاً، وكل ما عليكم هو أن تقوموا بربط الساعة مرّة واحدة في الأسبوع ثم تتركوها بعد ذلك وهي التي ستتولى أمر الإنذار.

مررنا بعد ذلك بثلاثة أشهر من أكثر الأوقات هدوءاً، لكن فاتورة الأتعاب كانت هائلة. كنت بالطبع قد قلت لهم بأن الموضوع لا يستحق كل ذلك المبلغ ما لم يَثبت لنا خلو جهاز الإنذار الجديد من العيوب.. وكان الوقت المحدد لذلك هو ثلاثة أشهر فقط. وبذلك قمنا بسداد الفاتورة بعد انتهاء المهلة المحددة. ولكن... وفي اليوم التالي تماماً من قيامنا بسداد فاتورة الأتعاب، كان جهاز الإنذار قد انطلق في الساعة العاشرة صباحاً، بطنين أشبه بأزيز عشرة آلاف من حشرات النحل. كنت قد قمت بفصله حوالي الساعة الثانية عشرة ليلاً وفق التعليمات، وهذا ما جعل جهاز الإنذار يتوقف عن العمل، ولكن تشابكاً جديداً كان قد حدث بين الأسلاك بعد ذلك، وكان علي أن أقدّم الساعة لمدة اثنتي عشرة ساعة لكي يعمل الجهاز من جديد. ثم استمرت تلك السفاسف لمدة أسبوع أو لمدة أسبوعين، إلى أن جاء الخبير واستبدل الساعة بساعة جديدة.

وخلال السنوات الثلاث التاليات، كان ذلك الخبير يأتي إلينا كل ثلاثة أشهر لكي يستبدل الساعة بساعة جديدة. لكن ذات العيب كان يظهر دوماً في الساعات التي يُركبّها: فإما أنهم كانوا يضعون الإنذار للفترة النهارية، أوأنهم كانوا لا يضعونه للفترة الليلية. وحتى لو قمت بذلك بنفسك، فسوف يقومون وعلى الفور بفصله من جديد عندما تُدير ظهرك.

هذه هي قصة جهاز الإنذار كما حدثت تماماً دون أي زيادة أو نقصان، ودون أن أجعل منها قصة تُروى على سبيل التهكم. نعم، سيدي !. وبذلك كنت قد نمت تسع سنوات مع اللصوص، وأنا أقوم بصيانة جهاز الإنذار المرتفع الثمن على نفقتي الخاصة، لحماية أولئك اللصوص وليس لحمايتي أنا، فهم لم يساهموا في كل ذلك بالطبع ولو بسنت واحد. إلى أن قلت للسيدة ماك ويليامز بأنني تعبت، وبذلك قمت بموافقتها بنزع جهاز الإنذار بكامله وببيعه لقاء كلب حراسة، لكنني بعد ذلك قمت بإطلاق الرصاص على ذلك الكلب.

لست أدري ما هو رأيك في كل ذلك سيد توين؟، لكنني أعتقد بأن مثل هذه الأشياء تُصنّع لصالح اللصوص فقط.. نعم،سيدي , أعتقد بأن جهاز الإنذار يشتمل في حدّ ذاته على كل ما هو ضدّ الحريق، أو الإخلال بالأمن، أو لحماية بيت الحريم (الحرملك)، لكنه بذات الوقت، وبشكل أو بآخر، لا يحتوي على أية ميّزات تعويضية ترتبط بذلك. والآن وداعاً....

السيرة الذاتية للكاتب صاموئيل لانجورن مارك توين

(1910 – 1835)

كاتب أمريكي الجنسية ولد عام 1835 في فلوريدا بالمسيسبي. ثم انتقل للعيش في هانيبال في ميسوري وعلى ضفاف نهر الميسيسبي.

توفي عام 1910في ريدينج بولاية كونيتيكت على إثر أزمة قلبية.

هو ابن لمحامي يدعى جون مارشال. كان مارك توين عندما توفي والده لايزال في سن الثانية عشر.

الجوائز والدرجات العلمية:

حصل الكاتب مارك توين خلال مسيرته الأدبية على العديد من الجوائز ومن الدرجات العلمية الفخرية من كل من جامعات يل Yale. ميسّوري Missouri، أكسفورد Oxford ، ومن الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب.

الأعمال التي مارسها:

كان مارك توين في بداية حياته، وقبل تفرغه للتأليف، قد مارس العديد من الأعمال، حيث عمل مضيفاً على عدد من السفن البخارية. كما عمل في مهنة التنقيب عن الفضة والذهب. ثم عمل بعد ذلك مراسلاً صحفياً لعدة صحف محلية, إلى أن انضم إلى شقيقه أورين توين الذي كان يمتلك عدة صحف, حيث عملا معاً في مجال الصحافة ولعدة سنوات، إلى أن تعرّضت أعمال شقيقه إلى الخسارة ثم إلى الإفلاس مما جعله يبدأ التجوال بين مختلف مدن المنطقتين الشرقية والغربية–

هاتفورد , فرجينيا , نيفادا, سان فرانسيسكو – سيراس الخ.. حيث عاش خلال تلك الفترة على ما كان يحصل عليه لقاء ما يكتبه من مقالات في الصحف المحلية، البعض منها تحت اسم مستعار.

أسلوبه الأدبي:

اشتهر مارك توين بمقالاته التي لم تكن تخلو أحياناً من سخرية لاذعة لعدد من الوجوه الاجتماعية ومن الشخصيات العامة، مما جعله يتعرّض للمحاكمة بتهمة الذم والقدح لإساءته لإدارة الشرطة، وكان ذلك ما أدى إلى هروبه إلى سيراس. لكنه بعد مرور عدة أشهر, وبعد أن تمّ إلغاء الدعوى, كان قد عاد من جديد إلى سان فرانسيسكو حيث بدأ بنشر أول مجموعة من مؤلفاته تحت عنوان " الضفدع القافز الشهير لكالفاريس" وهو المؤلف الذي حقق له تلك الشهرة العالمية الكبيرة والذي كانت جميع الصحف قد كتبت عنه. وكان بعد ذلك قد استأنف مسيرته الأدبية بنشر العديد من المؤلفات من روايات – قصص قصيرة – مسرحيات – رسائل أدبية – ومقالات – نقد أدبي – ومن قصص الأطفال.

شخصيته:

يتميّز صاموئيل لانجورن كليمانس مارك توين بالفصاحة والحيوية وبنعمة حب الحياة، وهو إلى حدّ كبير نِتاج الأمة الناشئة التي تربّى فيها., وكان مصدر إلهام العديد من رواياته، ما حصل عليه من فرصة مشاهدة العديد من المناطق في أمريكا. ومن بين أكثر مؤلفاته الخالدة شهرة قصتي "مغامرات توم نشآر الخشب "، و"مغامرات هاكيلبري فين ".

جدول المحتويات

المقدّمة
نعم الحياة الخمس
قصة حب من القرون الوسطى
تجربة غريبة
غراميات ألونزو كليرنس وروزانا إثلتون
هل كان ذلك الجنة أم الجحيم ؟
هل هو على قيد الحياة أم ميت؟
قصّة التحرّي المزدوج
عائلة الويليامز وجهاز الإنذار من اللصوص
السيرة الذاتية للكاتب صاموئيل لانجورن مارك توين